مِن حِكم أولياء الله

١

عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول: ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م

إسطنبول: ١٤٣٦/ ٢٠١٥

اسم الكتاب باللغة التركية: Hak Dostlarından Hikmetler-1

اسم الكتاب بالعربية: من حكم أولياء الله ﷻ -١.

الترجمة للعربية: محمد عز الدين سيف

مراجعةو تصحيح وتدقيق: محمد إياد عمار

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٧٤٥٣

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language : Arabic

العنوان:

دار الأرقم

Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.net

Web site : http://www.islamicpublishing.net



مِن حِكم أولياء الله

١

عثمان نوري طوپباش

دار الأرقم

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، الحمد لله العلي القدير الذي شرَّفنا بنعمة الإسلام والإيمان، وأنزل علينا ألطافه حين خاطبنا بالقرآن، دليل الهداية والغفران؛ والشكر له سبحانه أن جعلنا من المفلحين الموفَّقين، وأكرمنا أن نكون من أمة خير المرسلين محمد ﷺ الذي كان قرآنًا يمشي على الأرض.

والصلاة والسلام على أشرف خلق الله المبعوث رحمة للعالمين،أسوتنا في الدنيا، وشفيعنا في الآخرة، وعلى آله الأطهار وصحبه الكرام أجمعين.

إن سعادة الإنسان في الدَّارَين منوطة بانسجام الروح والبدن في حياته، فكما أن للبدن حاجة إلى غذاء مادي، كذلك للروح حاجة إلى غذاء معنوي، والحكمة أفضل غذاء للروح وأنفع دواء، والتفكر في أقوال أهل الحكمة وأفعالهم وسلوكهم يحيي الأرواح، كأمطار نيسان الخيرة حين تبعث الحياة في الأرض القاحلة فتجعل منها جنات غناء.

وما أحسن توضيح سيدنا علي ﷺ لهذه الحقيقة حين قال:

«إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكم».

وقوله: «أيقظوا القلوب الغافلة بالحكمة حتى تطمئن وتسكن».

إن لغو الحديث يقسي القلب ويجفف منابع الروح في الإنسان، وأما المواعظ والحكم فتسكب الطمأنينة في النفس وتشرح الصدور، وحين تطرق الحكمة سمع الإنسان يستيقظ العقل والقلب بعد أن كانا يتخبَّطان في تقلبات الحياة اليومية بمدها وجزرها، فيجدان الطمأنينة، ويصلان إلى شاطئ الحقيقة والمعرفة الربانية.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

وإذا تدبَّرنا هذه الآية الكريمة بعين **الحكمة** نجد أن للأنبياء- قدوة البشرية- ثلاث وظائف عامة هي:

١. تبليغ آيات الله تعالى وتطبيقها؛ أي إيضاح أوامر الله ونواهيه وتنفيذها.

٢. تزكية الأرواح؛ أي تطهير النفس البشرية من الأدران المعنوية المتراكمة وانتشالها من مستنقع الغفلة الذي يغرق فيه الإنسان.

٣. تعليم الكتاب و«الحكمة»؛ أي جعل القلوب تأنس بالحقائق والأسرار الإلهية.

إن **القرآن الكريم** منظومة كاملة تجتمع فيها جميع الأسرار والحِكم والحقائق المكنوزة في هذا الكون، فالحقائق كلها مبثوثة فيه على صورة مختصرة وإشارات لا يعقلها إلا أولوا الألباب وإن كان الحديث عن عمق المعاني فهو كتاب لا حد له، فكلما تعمَّقنا فيه، وجدناه كالتربة الخصبة المباركة العريقة في القِدم تحتوي في باطنها كنوزًا عظيمة.

أي إن القرآن الكريم من أوله إلى آخره معرض للحكم إن تعمَّق الإنسان في التفكر فيه. **وما هي الحكمة؟** الحكمة هي الإرشادات الإلهية والحقائق الخفية المكنوزة في الحوادث والوقائع كلها، فالأصل المطلق إذًا لهذه الحكم هو الله سبحانه وتعالى؛ وما أحاديث النبي ﷺ ومعاملاته كلها إلا إيضاح لِحكم القرآن وشرحٌ لها، تلقَّاها النبي من الله تعالى بالوحي.

ولا ريب أن الصحابة الكرام لا يضاهيهم أحد في اطِّلاعهم على الحقائق الإلهية المركوزة في شخص الرسول ﷺ الذي يقول في الحديث الشريف:

«أصحابي كالنجوم»[١].

---

١ المباركفوري، تحفة الأحوذي، القاهرة، جـ١٠، ٢٢٦، رقم: ٣٨٠٧؛ ابن عبد البر، جامع بيان العلم، جـ٢، ٩١.

ونحن إن نظرنا من منظور الحكمة نجد أن للنجوم ثلاث خصائص في القرآن الكريم هي:

١. **تزيين السماء**[٢]: وكل صحابي من الصحابة الكرام هو مظهر من مظاهر الجمال لا يماثله غيره في الإسلام والإيمان القلبي. وقد أثنى المولى ﷻ في كتابه العزيز على المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان[٣].

٢. **رجم الشياطين**[٤]: إن كيفية الرجم من الناحية المادية يجهلها الإنسان، والله وحده العليم بها. لكننا نعلم يقينًا أن الصحابة الكرام كانوا يرجمون الشيطان بحرصهم على اتِّباع كتاب الله والاقتداء بسنة نبيه وتطهير أرواحهم ليحيوا حياة ربانية فيكونوا شهداء على الناس[٥].

٣. **هداية المسافر في البر والبحر**[٦]: فكما أن النجوم تدل المسافر على وجهته عبر مواقعها، كذلك الصحابة الكرام، فهم يرشدون- بحياتهم التي تعد قدوة لنا- الأمة الإسلامية كلها حتى قيام الساعة، ويأخذون بأيدي الناس إلى الطريق الصحيح كي يُخلِّصوا المجتمعات من الخرافات والأفكار الخاطئة.

٢ انظر: فصلت، ١٢.
٣ انظر: آل عمران، ١٩٥؛ التوبة، ١٠٠؛ الفتح، ٢٩؛ الحشر، ٨-١٠.
٤ انظر: الملك، ٥.
٥ انظر: البقرة، ١٤٣؛ الحج، ٧٨.
٦ انظر: الأنعام، ٩٧.

إن الحكمة التي وهبها الله سبحانه وتعالى للنبي ﷺ ووضعها في قلبه المبارك قد انتقلت- انتقالًا لا يدانيه شكٌّ- إلى الصحابة الكرام، ثم من الصحابة إلى أولياء الله. فأولياء الله- الذين هم ورثة الأنبياء- كالمرآة الجلية التي تعكس نور الحِكم النبوية على الأزمنة والأمكنة كلها؛ وهؤلاء الأولياء هم مظهر من مظاهر رحمة الله المُطلقة بالبشرية، هذه البشرية التي خُلقت وهي بحاجة إلى إيقاظ وإرشاد وتربية، فالأولياء بذلك هم أولئك العباد المصطفون الذين أكرمنا الله بهم كي يلبُّوا هذه الحاجة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. وينبغي لنا أن ندرك أن الأنبياء وأولياء الله، الذين يُكمِلون وظيفة الأنبياء في الإرشاد، هم كاللجة الواسعة لا يمكن لأحد أن يطَّلع على حجمها وعمقها، وكل إنسان يغوض ويتعمق في هذا البحر ويأخذ نصيبه منه على حسب استعداده وقدرته.

وإضافة إلى ذلك كله، خلق الله تعالى- الذي لا يخلو فعل من أفعاله عن حكمة- الكائناتِ كلها في هذا الكون، وجعل لكل كائن منهم كيانًا خاصًا به، وأكرم عباده من البشر بخصائص ومزايا مادية ومعنوية سامية تختلف من عبد لآخر..لذا لن تجد في هذا الكون شخصَين، لا بل وحتى كائنين يشبهان بعضهما شبهًا تامًّا، فلو خلق الله تعالى كائنَين متماثلين بصورة تامة، لكان خلقُ أحدهما بلا حكمة، والله سبحانه منزه عن فعل كهذا. فلذلك مهما تشابه شخصان في الظاهر والشكل، فإن بينهما اختلافًا في خصائصهما

ومزاياهما التي لا تعرف حدًّا، مثل عالمهما القلبي، وتفكيرهما، وأحاسيسهما، وميولهما.

ويستقي أولياء الله- على كثرتهم- من المنبع نفسه؛ أي من الكتاب والسنة، لكن يظهر لدى كل واحد منهم اختلاف في مظاهر التجليات التي نالوها في عالمهم المعنوي، وهذا الاختلاف كاختلاف الألوان حين يتساقط الضوء على حواف الألماس، فالألوان مختلفة لكن الجوهر واحد.

ونجد أن المولى ﷻ لم يجعل أولياءه متشابهين، فالشاه نقشبند عالمٌ فذ وبحرٌ لا مثيل له في التصرف المعنوي ومعرفة الله، ومن أولياء الله من كان مثل مجنون ليلى يسوح في صحارى العشق، ومنهم من طاف في أودية الحيرة، ومنهم من عجز لسانه أمام العظمة الإلهية فعاش في إطار الإرشاد بسكوته ولسان حاله، ومنهم من كان مثل يونس أَمْرَه بلبلًا يردد نغمات العشق الإلهي، ومنهم من كان مثل مولانا جلال الدين الرومي تتقاطر من لسانه لآلئ الحكمة، فكان بحق متحدثًا باسم الأولياء كلهم، وبحرًا لا نظير له في الروحانية.

وقد أُمِر أكثر أولياء الله بالبيان والإفصاح بمقالهم وحالهم، فترى عشَّاق المولى هؤلاء يستمرون في إرشاد القلوب التي تتوق للحقيقة والمتلهفة للوصال مع الله تعالى منذ قرون طويلة، وذلك بعباراتهم المليئة بالحكمة، وروحانية قلوبهم.

أيها القراء الأعزاء، إن هذا العمل المتواضع الذي نضعه بين أيديكم هو القسم الأول لكتاباتنا المنشورة في مجلة «ألتنأولوق» تحت عنوان «من حكم أولياء الله تعالى»، أردناها أن تكون زيارة لتكية الحِكم لعلَّنا نتفكر هناك فيها ونتدبر. ورغبنا في مزج قلوبنا بالنصائح والتنبيهات المليئة بالحكمة، والتي خرجت من أفواه أولياء الله– ورثة الأنبياء- كي نمرَّ بسلامة في رحلة هذه الحياة الفانية المليئة بالامتحانات الإلهية، وحتى تمسي قلوبنا مرآة صافية جلية تعكس فضائل قلوبهم وكريم أحوالهم، وتتنزَّلَ على أحوالنا وسلوكنا تجلياتُ الفضائل القادمة من قلوب أولياء الله.

اللهم اجعلنا ممَّن يسيرون على طريق من تحبهم في هذه الدنيا، ووفِّقنا في الأعمال التي ترضى عنها، واحشرنا جميعًا في الآخرة مع عبادك المرضِيِّين.

آمين...

عثمان نوري طوبَّاش

حزيران ٢٠١٣

أُسكُدار–اسطنبول

لقمان الحكيم

عليه السلام

-١-

إن وجود غايات أخرى في العبادات والأعمال الصالحة غير رضا الله تعالى، وإظهار الرياء الذي يمحق الإخلاص، هو ما يسمى الوقوع في الشرك الخفي. فإشراك الناس والمنافع النفسانية في الأعمال يجعل منها أعمالاً لا خير فيها ولا ثواب. والعبادة التي يكون المقصود منها غير الله سبحانه ليست عبادة، بل هي ذنب من الذنوب.

لقمان الحكيم عليه السلام -١-

لقد كان سيدنا لقمان عليه السلام- المشهور بحِكَمه- شيخَ حكماء الظاهر والباطن. وتشير الروايات إلى أنه كان من أقارب سيدنا أيوب عليه السلام [٧]، وقد خدم كثيرًا من الأنبياء.

وتنوعت الآراء في لقمان الحكيم، هل كان نبيًّا أم وليًّا؟ غير أن الراجح بين علماء الإسلام أن لقمان لم يكن نبيًّا، بل رجلًا صالحًا حكيمًا تقيًّا من أهل التفكر والورع.

وقد ذكر القرآن الكريم في السورة المسماة باسمه أن لقمان عليه السلام كان من أهل «الحكمة»، إذ قال المولى عز وجل:

﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ...**﴾ [لقمان: ١٢]

والحكمة: هي القدرة على إدراك حقيقة الأمور وأسرارها.

والحكمة: هي أن يعي العقل عجزه عن إدراك الحقائق. فكم من أسرار لا تدركها العقول، ولا تُحلُّ إلا بالحكمة، وبعين الحكمة يمكن أيضًا قراءة التجليات الإلهية في الكون.

---

٧ انظر: الثعلبي، العرائس، ص٣٩١.

ولولا الحكمة لبقيت الأسرار محجوبة عنا، ولو لم تُكشف الأسرار، لما نالت القلوب ما نالته من العرفان، ولما برز أولياء الله أمثال مولانا جلال الدين، وعبد القادر الجيلاني، ويونس أَمْرَه، وشاه نقشبند، وعزيزمحمود هُدائي، وغيرهم، فكان هؤلاء الأكابر بالنسبة للقلوب المؤمنة معايير استثنائية في الاستقامة والتقوى.

ولا تتفجر ينابيع الحكمة إلا من القلوب التي تطهرت بالتزكية، فينال المؤمن القلب السليم بمقدار تطهيره لروحه مما سوى الله تعالى- أي بمقدار تزكيته لقلبه- وذلك ضمن إطار منهج التزكية والتربية الذي وضعه الله ورسوله ﷺ.

إن الهدف الأخير للعلم هو التعمق في الحكمة، أي إدراك الإبداع الإلهي، وحل الألغاز اللامحدودة التي تُرى في «القرآن والكون والإنسان»؛ وبعبارة أخرى: القدرة على إدراك تجليات القدرة والعظمة الإلهية في كل ذرة.

فالطب مثلًا يهتم بالقواعد المُبهِرة التي وضعها الله في الجسد، وعلم النبات يتناول القواعد التي جعلها الله في النباتات التي تبدأ من التراب وتنتهي إليه. أما الحكمة فتنشغل بمعرفة واضع القوانين والقواعد التي تشتغل بها العلوم كلها، لأن غاية العلم ليست تكديس المعلومات في الأذهان، بل جعل القلب يدرك الأسرار والحكم وراء هذه المعلومات، وهو ما يمكن القيام به بتجلي النور الإلهي في القلب.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]

والحق أن الحكمة التي يهبها الله لعبده حين يصل إلى النضج في العلم والعرفان والعالم الروحاني تجعل منه قادرًا على الإصابة في كلامه وقراره وسلوكه. وينقل المفسر الزمخشري لنا حادثة مليئة بالعِبر ومثالًا لحِكم لقمان الحكيم:

فقد رُوي أن داوود عليه السلام أمر لقمان الحكيم بذبح شاة، وبأن يخرج منها أطيب مضغتين، فأخرج اللسان والقلب، ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب، فسأله عن ذلك؟ فقال: «هما أطيب ما فيها إذا طابا، وأخبث ما فيها إذا خبثا».[٨]

إن القلب واللسان- الذي يقوم مقام المترجم له- هما العضوان الأخطر شأنًا، واللذان قد يكونان وسيلة لسعادة الإنسان أو هلاكه في الدارَين، ولا يتحقق الإيمان الذي هو أول شرط لنيل السعادة الأبدية إلا بإقرار اللسان وتصديق القلب.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف:

«ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألاوهي القلب».[٩]

---

٨ الزمخشري، الكشاف، جـ٥، ١٨.

٩ البخاري، الإيمان، ٣٩.

وقد صحب معاذُ ﵁ - وهو من كبار الصحابة - رسولَ الله ﷺ في سفر، فأراد النبي ﷺ أن يترقى بمعاذ في عالمه الروحاني ويصل به إلى الفلاح الأبدي، فكان في كل مرة يقول له: «**ألا أخبرك؟**» فأعطاه النبي ﷺ الكثير من الأوامر والوصايا، وآخرها قوله:

«**ألا أخبرك بملاك ذلك كله [الأعمال الفاضلة]؟**»

قال معاذ ﵁ : بلى يا نبي الله،

فأخذ بلسانه وقال ﷺ: «**كفَّ عليك هذا**»،

فقال معاذ ﵁: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال ﷺ: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يَكبُّ الناسَ في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم**». [١٠]

لهذا السبب يجب على المرء أن يحذر أشد الحذر من الكلام باستهتار، وأن يدرك جيدًا إلى أي مبلغ قد تبلغ به معاني العبارات التي يفوه بها.

---

١٠ لقراءة تفاصيل هذه الحادثة انظر: الترمذي، الإيمان، ٨؛ ابن ماجه، الفتن، ١٢

قال رسول الله ﷺ:

«**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**». [أحمد، جـ٥، ٣٣١]

ما أعظم العِبر في تنبيه بلال بن سعد ﵁ حين قال:

«لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت».

ويقول رسول الله ﷺ في أحاديث أخرى حول هذا الموضوع:

«إن العبد ليتكلم بالكلمة، ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب».[١١]

«إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه».[١٢]



وهذا يعني أنه ينبغي أن يسيطر المرء على قلبه- منبع الأحاسيس والأفكار- ولسانه الذي يعمل مترجمًا له. ولقد كان لقمان عليه السلام يلفت الانتباه إلى مثل هذي الحقائق التي لا تحصى ولا تستقصى، ولهذا بقيت عباراته المليئة بالحكم- لا سيما نصائحه لابنه- إلى يومنا هذا بواسطة القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، وبعض الكتب الموثوقة.

ولنا أن نذكر هنا بعضًا من نصائح لقمان الحكيم- شيخ حكماء الظاهر والباطن- لعلها تكون إرشادات لنا للفوز بالسعادة الأبدية.

١١ مسلم، الزهد، جـ٤، ٤٩/ ٢٩٨٨.
١٢ الترمذي، الزهد، ١٢؛ ابن ماجه، الفتن، ١٢.

يقول لقمان عليه السلام:

﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]

[إن المؤمن الكامل هو الذي يؤمن بوجود الله ووحدانيته إيمانًا تامًّا لا يخالطه أي شك، لذا يعيش حياته شاعرًا ومدركًا أن الله سبحانه هو المسيطر الوحيد الذي يتصرف بالكون كله، إذ لا مجال أبدًا للشرك في عقيدة التوحيد.

فالشرك أعظم ظلم، يهوي بالعبد إلى جهنم ليخلد فيها، ولا يمكن للعبد الذي يشرك أو ينكر أو ينافق أن يسبِّب أي ضرر بذلك لربه أو لأهل التوحيد، إنما هو بذلك يظلم نفسه أشد الظلم لاستحقاقه العذاب الأبدي. وما أوضح هذه الحقيقة في الآيات الآتية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-٩]

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]

ونجد أن وجود غايات أخرى في العبادات والأعمال الصالحة غير رضا الله تعالى، وإظهار الرياء الذي يمحق الإخلاص، هو ما يسمى الوقوع في الشرك الخفي. فإشراك الناس والمنافع النفسانية في الأعمال يجعل منها أعمالًا لا خير فيها ولا ثواب.

يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».[١٣]

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**» قال: قلنا: بلى، فقال: «**الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي، فيزين صلاته، لما يرى من نظر رجل**».[١٤]

وهذا يعني أن المولى جل جلاله لا يريد أن تُشرَك الأمور الفانية في العبادات. فالعبادة التي يكون المقصود منها غير الله سبحانه ليست عبادة، بل هي ذنب من الذنوب. والصلاة التي يصليها العبد برياء- وإن كان ظاهرها حسنًا- لا قيمة لها عند الله تعالى، لأن الشرك الخفي قد خالطها؛ لا بل إنها فوق هذا كله تجلب غضب الرب تعالى. فكما أن نبع الماء يفقد لذته وصفاءه حين تسقط فيه قطرة من نجاسة، كذلك هو حال العبادات التي تؤديها القلوب المريضة الغافلة حين تخالط النيةَ المنافعُ الدنيوية الفانية.

---

١٣ مسلم، الزهد، ٤٦/ ٢٩٨٥.
١٤ ابن ماجه، الزهد، ٢١/ ٤٢٠٤.

يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

«إن الحرام نار، لا يُقبل عليها إلا من مات قلبه، فلو كان صاحب اليد التي تُمَد إليها حيًّا، لَشَعر بألمها».

ويوضح لنا الحديث الشريف الآتي أن الرياء في العبودية، أي الشرك الخفي، يفضي إلى حسرة وندامة وإفلاس في الآخرة:

«إن أول الناس يُقضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتِي به فعرَّفَهُ نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار؛ ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار؛



ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك،

قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار».[١٥]

١٥ مسلم، الإمارة، ١٥٢/ ١٩٩٥.

نفهم من هذا الحديث أن الرياء- الشرك الخفي- يجرد أعظم القربات من ثوابها، ويجعل من صاحبها عرضة للغضب الإلهي. لهذا السبب يجب على المؤمن أن يعزم على أن يكون في عباداته وطاعاته في إطار الخطاب الإلهي الآتي:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]

يقول لقمان عليه السلام:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]

[يقول الله تعالى أيضًا في كتابه الكريم:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]

لقد أخفى الله سبحانه عنَّا عمل الخير الذي نصل به إلى عفو الله ورضوانه ومحبته كي نتوسل إليه بالأعمال كلها، فرضاه عز وجل قد يكون مخفيًّا في عمل عظيم في بعض الأحايين، أو عمل يبدو حقيرًا، أو بين هذا وذاك. لهذا السبب ليس هناك عمل خير لا قيمة

له مهما كان صغيرًا، إذ لا يضيع عمل عند الله تعالى ظاهرًا كان أم خفيًّا، صغيرًا أم كبيرًا. ويجب على المؤمن أن يسعى جاهدًا بكل ما أوتي من قوة لفعل الخيرات دائمًا لوجه الله، وأن يكون مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر.

ومن جانب آخر، أخفى الله تعالى الذنب الذي يتجلى عليه غضبه كي يحترس العبد من الذنوب كلها، فغضبه ﷻ قد يتجلى في ذنب كبير تارة، أو ذنب صغير تارة أخرى، أو بين هذا وذاك. لهذا يُعدُّ استخفاف الذنوب الصغيرة وعدم الاكتراث بها اغترارًا وانخداعًا عظيمًا، يقول رسول الله ﷺ:

«إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه».[١٦]

لهذا كان أولياء الله يقولون:

«لا صغيرة مع الإصرار».

ولَكَم هو معبِّر قول التابعي بلال بن سعد رضي الله عنه:

«لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت»[١٧]]

---

١٦ أحمد، جـ١، ٤٠٢-٤٠٣؛ جـ٥، ٣٣١.

١٧ أحمد، الزهد، صـ ٣١١؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ ٥، ٢٢٣.

يقول لقمان عليه السلام:

«إني تعلمت الحكمة من العميان فإنهم لا يضعون أقدامهم قبل الفحص، فإن كان فيه تمكينًا يضعون ويمشون، وإلا فيتركون ويطلبون جهة أخرى فيها تمكين، فلذا لا أفعل شيئًا بلا تأمل ما فيه، وفي عاقبته».

[إذا لم ينتبه المرء إلى مصائد الذنوب الكثيرة التي يصادفها في مراحل الحياة المختلفة، فإنها ستغدو يوم القيامةكالقنبلة التي تنفجر في يده، وكل حركة من حركاته ستكون كذا إن لم يراعِ رضا الله تعالى، ويفكر فيها أحلال هي أم حرام.

ويجب على المؤمن قبل كل شيء أن يزن كل عمل بالمعايير الإلهية، ويأتيه إن كان ذا نفع لدنياه وعاقبته، فإن لم يكن الحال كذلك فعليه بالبقاء بعيدًا عنه. وعليه أن لا يضع أي طعام في فمه ما لم يتحراه، أحلال هو أم لا.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«حتى الكلب لا يأكل الخبز أو العظمة التي تُرمَى له إلا بعد أن يشمها».

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«حتى الكلب لا يأكل الخبز أو العظمة التي تُرمَى له إلا بعد أن يشمها».

وهذا يعني أن عدم التمييز بين الحلال والحرام، والخير والشر، والحق والباطل، والركض دون وعي وراء المنافع والمصالح، هي غفلة ما بعدها غفلة تُوقع الإنسان في درجة أدنى من درجة الحيوانات نفسها.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي أيضًا:

«وحتى الأعمى يدرك شروق الشمس شروقًا تامًّا من حرارتها»، ويوضح مولانا بقوله هذا أن عمى الإدراك الذي يُعدُّ فاجعة عظمى هو البقاء غافلًا أبلهًا دون إحساس أمام المعايير والنظم الإلهية؛ ولا يقع في مثل هذه الغفلة والحيرة إلا من كان قلبه ميِّتًا.



وكان من أقوال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

«إن الحرام نار، لا يُقبِل عليها إلا من مات قلبه، فلو كان صاحب اليد التي تُمَد إليها حيًّا، لشعر بألمها».

والخلاصة هي أنه يجب على المؤمن في هذه الدنيا- التي تعد امتحانًا إلهيًا- أن ينتبه إلى خطواته، وأن يسير فيها كأنه يسير في أرض مليئة بالألغام، «فحياة التقوى» التي أرادها الله سبحانه منا تقتضي العيش بهذا الإحساس.

وما أجمل توضيح المثال الآتي لمعنى التقوى:

فقد سأل سيدنا عمرُ أبيَّ بن كعب رضي الله عنه عن التقوى؟ فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى. قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت [وفي رواية: حذرت]. قال: فذلك التقوى.[١٨]

وخير مظاهر التقوى الهربُ من الكفر والنفاق والشرك كالهرب من الوقوع في النار، واتباع أوامر الله تعالى حق الاتباع، والحذر من نواهيه أشد الحذر.]

يقول لقمان عليه السلام:

«لا تعلق نفسك بالهموم، ولا تشغل قلبك بالأحزان، وإياك والطمع، وارضَ بالقضاء، واقنع بما قسم الله لك».

[يقول ربنا عز وجل في كتابه الكريم:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦]

إن الرضا بالحوادث التي تجلب السعادة إلى القلب، ثم الاستياء من تلك التي تُصيب المرء بالهم والغم ليس من آداب العبودية. فما لم يصل الإنسان إلى ذروة النضج المعنوي، فلن يتخلص بسهولة من هذا الضعف البشري. أما حين يزكي نفسه ويصل إلى مقام النفس «**الراضية**»، فسيخضع دون أي تردد لأحكام القضاء الإلهية

١٨ البغوي، معالم التنزيل، ١، ٦٠؛ ابن كثير، التفسير، ١، ٧٥.

كلها خيرها وشرها، ويُظهِر الرضا بها، وينسى الشكوى والتذمر، وما أعظم البشارة الإلهية لمثل هؤلاء في قوله تعالى:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]

إن أفضل قاعدة للسعادة هي اتباع العقل للوحي، وتزيين القلب بالأخلاق الحميدة، وإظهار الرضا أمام مفاجآت الحياة حلوها ومرها. ولا تتحقق السعادة الحقيقية إلا بقبول تقلبات الحياة كما هي، وتحمُّل المشقَّات، والسعي لإصلاح الفساد، ورؤية الجانب الجميل من كل شيء، والتسليم دائمًا لله رب العالمين، وذلك بعدم الغفلة عن الألطاف الخفية التي تحف القهر الإلهي.

وما أجمل وأحسن قول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن عالمك الداخلي كالنُزُل، فالسعادة والهموم موقوتة. فلا تغترن بالسعادة، ولا تنشغل بالهموم. ولا تحزن إن منعتك همومك عن السرور، فهي- إن صبرت- إعداد لتتلقى الفرح والبهجة».]

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الذين يدركون حيل النفس والشيطان ومكائدهما ويلجؤون إليك، واجعلنا من الذين يُظهِرون العصيان للنفس والطاعة لك، فيعيشون في سعادة وطمأنينة التسليم لك يا رب في أحوالهم كلها.

آمين!..

لقمان الحكيم

عليه السلام

ـ٢ـ

لا نجد في أولياء الله هؤلاء تلك الغفلة التي تستبد بالناس حين يرون بدائع الكون وروائعه دون تدبر، فالأولياء ينظرون إلى المخلوقات بعين الحكمة والعبرة. ويتجه نظر هؤلاء الأولياء بالحيرة والدهشة إلى أمور كثيرة منها: أوراق النباتات وأزهارها ذوات الألوان الكثيرة مع أن أصلها كلها تراب واحد، وثمار الأشجار التي تختلف فيما بينها من حيث اللون والرائحة والطعم والشكل ولا تكاد ترى تشابهًا بينها، وهذي الزخارف العجيبة المنقوشة على أجنحة الفراشات التي ما بلغ عمرها الأسبوع أو الأسبوعين، و تلك البلابل التي تسمع منها النغمات تصدر من قلبها الصغير فتأخذ الألباب، وتلكم اليمامات بأصواتها العذبة، والدقائق الموجودة في خلق الإنسان، والعجائب الإلهية التي لا يحدها حد، مثل رؤية العين وإدراك الدماغ وما تعبِّر عنه هذه العجائب من أسرار بـ«لسان حالها».

لقمان الحكيم عليه السلام -٢-

يقول لقمان عليه السلام:

«أي بني، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك».[١٩]

[**الحكمة** غذاء الروح، فكما أن بدن الإنسان بحاجة إلى غذاء مادي يتقوى به على معاشه، فكذلك القلب في حاجة إلى الفيوضات الإلهية والحكم الربانية ليحيا ويشعر بالسكينة والطمأنينة ويبلغ الكمال

ولا يمكن للإنسان مهما كانت الوسيلة أن يملأ ذاك الفراغ الذي يتركه الحرمان من الحكمة في الروح، ولو كان لهذه الدنيا مالكًا. لهذا نرى أن الذين يتحملون مسؤولية المجتمع، لا سيما أصحاب الثروات الطائلة والإداريين، بحاجة- أكثر من غيرهم- لعون أهل الحكمة كي يحافظوا على التوازن القلبي والاستقامة في عبوديتهم لله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يمكن لحاشية من في يده مقاليد الحكم والسيطرة أن ينطقوا بالحق كل حين، ذلك لأن اهتمامهم منصبٌّ على مصالحهم بصورة عامة، وغالبًا ما يخالجهم قلق فقدان مناصبهم، فيلجمهم هذا القلق عن الصدع بالحق وإسداء النصيحة.

١٩ أحمد، الزهد، ص٨٧/ ٥٣٩.

أما أهل الحكمة فغايتهم أن تكون لهم مكانة عند الله تعالى لا عند الناس، فهم الذين استغنوا عن المنافع والمصالح الدنيوية، فوجدوا هذا الاستغناء وتيك المتاعب التي كابدوها في سبيل إحقاق الحق رحماتٍ تتنزل عليهم. لهذا تراهم لا يترددون أبدًا في مصارحة من بيدهم مقاليد الأمور وإسداء النصائح لهم، على عكس أولئك الذين يحيطون بهم. فجعلوا من إسداءالنصائح المرة والإرشادات الصادعة عند الضرورة لهؤلاء الناس كي يفوزوا في الآخرة وظيفةً على كاهلهم، وكانوا بذلك كالأطباء الذين يقدمون الدواء المر ليشفى مريضهم.

ويروي الفضل بن الربيع أن الخليفة العباسي هارون الرشيد قال له يومًا: «قد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلًا أسأله». فأخذته [أخذت هارون] بعد ما أوصاه سفيان بن عيينة إلى الفضيل بن عياض.

فقرعت الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله أما له عليك طاعة، فنزل ففتح الباب.

ثم دخل الخليفة هارون الرشيد، وطلب من الفضيل موعظة، فقال الفضيل:

يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة، قال له النبي ﷺ: «**إن الإمارة**

حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعل» ثم قال ﷺ: «**يا عماه، قد جعلتك أميرًا عليك**» [أي إذا أطعت الله للحظة، فذلك خير لك من الحكم بغفلة لآلاف السنين].

فبكى هارون بكاء شديدًا، وقال: زدني.

فقال الفضيل: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي، فعدَّ الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة من عذاب الله فصم الدنيا وليكن إفطارك منها الموت، وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن أمير المؤمنين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فوقِّر أباك، وأكرِمْ أخاك، وتحنَّن على ولدك.

ثم قال الفضيل: يا خليفة، يا لها من كف، ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله عزّ وجلّ. يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عزّ وجلّ عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار

الحكمة: غذاء الروح، فكما أن بدن الإنسان بحاجة إلى غذاء مادي يتقوى به على معاشه، فكذلك القلب في حاجة إلى الفيوضات الإلهية والحكم الربانية ليحيا ويشعر بالسكينة والطمأنينة ويبلغ الكمال.

فإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك. إن النبي ﷺ قال: «**من أصبح لهم غاشًّا لم يرح رائحة الجنة**».

فبكى هارون، وقال له: عليك دين؟ قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي. قال: إنما أعني من دين العباد قال: إن ربي لم يأمرني بهذا إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال ﷻ:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧]



[وكأن الفضيل يقول له: «إنني راضٍ بقضاء الله، فكل ما يأتي منه خير، وإني لأستحيي أن أشكو للعباد ما قدَّره رب العباد»]

فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك، وتقوَّ بها على عبادتك، فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا، سلمك الله ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا.

فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب، قال هارون: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين، فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال

فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به، فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه، فأكلوا لحمه. فلما سمع هارون هذا الكلام، قال: ندخل فعسى أن يقبل المال، فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله، فانصرفنا.[٢٠]

لقد أنزل الله تعالى نور الحكمة على قلوب الكثير من عباده الذين تركوا الدنيا وراءهم ظهريًّا، وأدبروا عن مفاتنها وأقبلوا على الله تعالى، فأكرمهم بالمُلك الحقيقي، وجعل سلاطين الدنيا يلتجئون إلى أعتابهم ويتمسحون بأذيالهم.

وقد وضع عظماءُ التاريخ العلماءَ والعارفين من أهل الحكمة تيجانًا على رؤوسهم، وبلغوا قمة المجد المؤثَّل حين استقاموا على توجيهاتهم ومواعظهم. فكان إلى جانب السلطان عثمان غازي الشيخ أدبالي، وإلى جانب السلطان يلدرم خان الشيخ أمير سلطان، وإلى جانب السلطان محمد الفاتح الشيخ آق شمس الدين، وإلى جانب السلطان أحمد الشيخ عزيز محمود هُدائي، والكثير الكثير من الشيوخ الذين كانوا عاملًا حقق التوازن بين المادية والروحانية، والدنيا والآخرة، وقدموا لقلوب السلاطين لقاح الاستقامة.

٢٠ انظر: أبو نعيم، الحلية، جـ٨، ١٠٥.

ولننظر إلى الحادثة التالية التي هي خير دليل على هذه الحقيقة:

كان السلطان ياوز سليم سلطانًا جلدًا لا يتحمل خطأ المخطئين ولا غفلة الساهين، غير أن هذا الطبع الشديد كان مضبوطًا بالضوابط الشرعية. وذات يوم أمر بقتل حوالي أربعين رجلًا بسبب حادثة سرقة من خزينة الدولة حصلت نتيجة إهمالهم، وحين علم شيخ الإسلام زنبيلِّي علي أفندي بهذا القرار، أراد إيقاف تنفيذه، فهرع مسرعًا إلى مجلسَ السلطان سليم ودخله دون إذن، رغبة في سماع أصل الحادثة من فم السلطان نفسه، فأجابه السلطان إجابة لا تخلو من فظاظة قائلًا:

«يا شيخنا الكريم، إن ما سمعتموه صحيح، لكن ليس لكم أي حق في أن تتدخلوا في أمور الدولة».

فرد عليه الشيخ زنبيلِّي علي أفندي بطريقة مماثلة:

«يا مولاي،ما أتيت إلى هنا إلا لكي أُعلِمَكم الأحكام الشرعية، فوظيفتنا هي الحفاظ على آخرتكم».

ووضَّح للسلطان القرار الذي يجب أن يُتَّخذ.

وبهذا أدى الشيخ وظيفته الضرورية في التنبيه والإرشاد كي يسلم في آخرته، فقد كان مدركًا أنه سيلقى وبالًا هو أيضًا إن لم يؤدِّها. لهذا خرج بعد أن جازف بحياته في سبيل النطق بالحق دون أن يخاف في الله لومة لائم، ولم يخش السلطانَ سليم الذي كان مقاتلًا لا تعرف رياح غضبه هدوءًا إن هبَّت .

فلم يكن من السلطان ياوز سليم وهو قاهر الجيوش الجرارة، بعد أن رأى نفسه أمام هذه الجرأة التي ما رآها من أحد من قبل، إلا أن خضع خضوعًا تامًّا أمام حدود الشريعة وضوابطها، والتي كانت معاييرها أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف، واستوعب الحقيقة، وقبِل تنبيه شيخ الإسلام، فنزل على حكمه، وفوق ذلك كله اعتذر من الشيخ زنبلِّي علي أفندي واسترضاه.

ولنا أن نذكر هنا مثالًا رائعًا آخرًا للطاعة والتسليم والاحترام الذي أظهره هذا السلطان أمام أهل العلم والعرفان والحكمة، السلطان الذي ما كان يلين لاسترحام ولا يرق لاستعطاف أبدًا في أمور الدولة والسلطنة:

فبينما كان على رأس جيشه بالقرب من أضنة، حبسهم مطر غزير، فكان الطين في كل مكان. وفي تلك الأثناء كان السلطان سليم راكبًا فرسه، وإلى جانبه كمال باشا زاده- أحد كبار علماء ذلك العصر- يتحدثان في بعض الأمور. وفجأة جفل فرس كمال باشا، فتلطخ قفطان السلطان بالطين. فأسِف كمال باشا، واصفرَّ لونه، لكن السلطان سليم نظر إليه والابتسامة تعلو جبينه وقال:

لقد جعل أولياء الله من إسداء النصائح المرة والإرشادات الصادعة عند الضرورة للناس كي يفوزوا في الآخرة وظيفةً على كاهلهم، وكانوا بذلك كالأطباء الذين يقدمون الدواء المر ليشفى مريضهم.

«إن الطين الذي تناثر من قدم فرس العلماء فلطخنا لشرفٌ كبير لنا وبركة ما بعدها بركة. اجعلوا هذا القفطان الملطخ بالطين على تابوتي حين يأتيني الأجل».

ولم يغتر السلطان سليم صاحب الفتوحات العظيمة يومًا بالانتصارات التي حققها في أقطار الأرض، بل كان سلطانًا قاهرًا لنفسه متغلبًا عليها، مدركًا أن النصر الحقيقي إنما يبدأ في العالم المعنوي بإرشاد أهل العلم والعرفان والحكمة. والبيتان الآتيان يعبِّران أجمل تعبير عن هذه الحقيقة:



مُلك العالَم صراع لا طائل فيه

وخدمة ولي خير من الكون وما فيه!.

وهكذا نرى أن السلطان سليم- كغيره من السلاطين العثمانيين- قد رأى الولي الذي يوجهه إلى طريق الحق والخير فوق كل دنيوي قيِّم، فرجَّح عون الأولياء ومددهم على مُلك الدنيا.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«خير لك أن تكون عبدًا لولي الله من أن تكون تاجًا على رؤوس السلاطين».

لأن التاج الموضوع على رؤوس السلاطين محكوم عليه بالفناء في نهاية المطاف، وإن كان للسلطنة هيبة وفخفخة حينًا من الزمن.

لكن من يكون محبوبًا لدى ولي من أولياء الله، فأبديةٌ سعادته وسلطنته التي يصل إليها بالتنبيهات والإرشادات المليئة بالحِكم.

وقد كان يتملك السلاطين العثمانيون هذا الشعور والإدراك، فكانوا يطلبون من الجند المأجورين منذ قيام دولتهم إلى انهيارها أن يصيحوا بصوت عالٍ أثناء ذهاب السلطان إلى صلاة الجمعة والرجوع منها قائلين:

«لا تكن مغرورًا يا سلطاننا، فالله أكبر منك!»

فأخذ هذا التحذير المعنوي الموجَّه لنفس السلطان طابع الرسمية في الدولة.]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، عليك بمجالسة العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر».[٢١]

[إن كل إنسان محتاج إلى نور الفراسة والبصيرة الذي يوصله إلى الحق والخير، ولا يمكن لمن لم يقتبس حظًّا وافيًا من هذا النور وعمل بمقتضاه أن يجد الصراط المستقيم، لا سيما في أيامنا هذه التي انتشرت فيها المادية، وأُثيرت المغريات النفسانية، فترى الكثير من الناس محرومين من دليل يرشدهم ومنقذٍ ينبِّههم أمام

٢١ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ ١، ١٢٥.

ما يواجهونه من مهالك، فصاروا كجذوع الأشجار التي تجرفها السيول، وفقدوا وجهتهم وطريقهم الموصل إلى الفلاح. وكم من قلوب صافية صفاء الماء العذب غرقت في مستنقعات الهوى حين لم تجد من يوجهها إلى الحِكم والحقائق الإلهية.

ويصوِّر مولانا جلال الدين الرومي الحال المؤسفة للذين وقعوا في الغفلة والضلالة بانخداعهم بهاتيك المغريات الدنيوية والنفسانية، فيقول:

«إن المال [والجاه] في الدنيا هو الامتحان الذي يضعه الله أمام عبده، فالدنيا تُسكِر الغافل وتخدعه. ومن يفتح قلبه للدنيا، يمسي أعمى البصيرة. فمثل هؤلاء كمن يشرب من الماء الملح الأجاج [ويترك الماء العذب الفرات، وما ذاك إلى لغفلته]».

ولا يمكن علاج الأرواح المتعبة التي تعكَّر صفوها وتاهت في أودية الضلال، ولا فتح عيون الأفئدة لترى الحق والخير، ولا إحياء القلوب الميتة، إلا بتتبع آثار أولياء الله أصحاب القلوب الحية المفعمة بالحكم والحقائق الإلهية.

ويعبِّر مولانا الرومي عن هذه الحقيقة بقوله:

«من يرجو معية الله، فليصحب أولياءه؛ فإن أنت بقيت بعيدًا عن حضرتهم، فهذا يعني هلاكك».

«إن لباس الحكمة الذي أضاعه القلب، يجده عند أهل القلوب».

إن الحكمة حين تكون وسيلة لإحياء القلوب، فإنما هي تميز السبب الحقيقي والسري الذي ترتبط به الأسباب الموجودة في كل كائن وحادثة تقع في عالم الأسباب الذي نعيش فيه، وهذا يعني الانتقال من الأثر إلى المؤثر، ومن الإبداع إلى المبدع؛ أي إدراك الإشارات الإلهية الموجودة في كل شيء، وهذا يعني حل رموز الامتحان الإلهي في العالم الروحاني. وكل إدراك وفهم لا يصل إلى المولى عز وجل- مسبب الأسباب- هو إدراك وفهم ناقص، ونضج هذا الإدراك منوط بمقدار معرفة المراد الإلهي في كل كائن وحادثة في هذا الكون والعيش وفقًا لإرادته عز وجل.

لهذا من الضروري إحياء العالم الداخلي وذلك عبر التفكر العميق في الأقوال والأفعال المليئة بالحِكم، وبفضل هذا يستطيع المؤمن أن يُبقي شعوره بالعبودية حيًّا في داخله، ولهذا السبب أيضًا كان تعليم الكتاب و«الحكمة» من أهم وظائف الأنبياء- إضافة إلى التبليغ والتزكية.

إن المنبع المطلق للحكمة هو الله العزيز الحكيم. أما إلهام القلوب بالحِكم وظهورها على اللسان فهو أمر مرتبط بقدر القرب

من نصائح محمد بن كعب للخليفة هارون الرشيد:

«إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن أمير المؤمنين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فوقِّر أباك، وأكرِمْ أخاك، وتحنَّن على ولدك».

الروحي من الله تعالى بالأعمال الصالحة التي هي مظهر من مظاهر التقوى. يقول رسول الله ﷺ في الحديث القدسي:

«ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به».[٢٢]

ويقول ﷺ في حديث آخر:

«من أخلص لله أربعين يومًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».[٢٣]

لذا فإن العالم الروحاني لأهل التقوى الصالحين الذين وصلوا إلى درجة سامية في القرب من الله تعالى، هو مرآة صافية جلية تعكس أنوار الحكمة والحقائق الإلهية. ولا نجد في أولياء الله هؤلاء تلك الغفلة التي تستبد بالناس حين يرون بدائع الكون وروائعه دون تدبر، فالأولياء ينظرون إلى المخلوقات بعين الحكمة والعبرة.

ولعمري إن الإنسان العادي لينظر بإعجاب وتقدير إلى لوحات رسَّام قلَّد ما رآه في الطبيعة، ولكن لا ترى في نظرته مثل ذلك الإعجاب والتعظيم حين يقف أمام هذا الكون وخالقه ﷻ، فهو يرى العجائب كلها حوادث طبيعية لا أهمية لها.

---

٢٢ انظر: البخاري، الرقاق، ٣٨؛ أحمد، جـ ٦، ٢٥٦؛ الهيثمي، جـ ٢، ٢٤٨.

٢٣ السيوطي، الجامع الصغير، جـ ٢، ١٣٧/ ٨٣٦١.

أما أولياء الله عزّ وجلّ من أهل الحكمة فيتلذّذون بالإبداع الإلهي ويشعرون بالحيرة والدهشة أمام المبدع الحقيقي وآثار قدرته وعظائم صنعته، لا أمام لوحة رسام ما رُسمت إلا لتخليد ذكراه.

ويتجه نظر هؤلاء الأولياء إلى أمور كثيرة منها: أوراق النباتات وأزهارها ذوات الألوان الكثيرة مع أن أصلها كلها تراب واحد، وثمار الأشجار التي تختلف فيما بينها من حيث اللون والرائحة والطعم والشكل ولا تكاد ترى تشابهًا بينها، وهذي الزخارف العجيبة المنقوشة على أجنحة الفراشات التي ما بلغ عمرها الأسبوع أو الأسبوعين، و تلك البلابل التي تسمع منها النغمات تصدر من قلبها الصغير فتأخذ الألباب، وتلكم اليمامات بأصواتها العذبة، والدقائق الموجودة في خلق الإنسان، والعجائب الإلهية التي لا يحدها حد، مثل رؤية العين وإدراك الدماغ وما تعبِّر عنه هذه العجائب من أسرار بـ«لسان حالها».



وبعد هذا كله يغدو الكون لأولياء الله كتابًا إلهيًّا مقروءًا، فقد تجاوزوا علم السطور، ليصلوا إلى علم الصدور. لذلك فإن العبد يفوز بما لا يتوقعه من روحانيات وفيوضات حين يستمع إلى أقوالهم المليئة بالحِكم، ويتّبع سلوكهم المليء بالعِبَر.]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، حملت الجندل والحديد، وكل حِملٍ ثقيل، ولم أحمل حملًا هو أثقل من جار السوء».[٢٤]

[لا يظهر الوجه الحقيقي للإنسان إلا حين يُمتحَن بالمشقات ويُضرب على الوتر الحسَّاس لتلك النفس التي بين جنبيه. وخير دليل على ذلك قصة سيدنا عمر رضي الله عنه مع الرجل الذي جاء يشهد عنده، فقال له عمر رضي الله عنه: ائتِ بمن يعرفك؛ فجاء برجل، فقال له: هل تزكِّيه؟ هل عرفته؟ قال: نعم، فقال عمر رضي الله عنه: وكيف عرفته؟ هل جاورته المجاورة التي تعرف بها مدخله ومخرجه؟ قال: لا؛ قال عمر رضي الله عنه: هل عاملته بالدينار والدرهم اللذَين تعرف بهما أمانة الرجال؟ قال: لا؛ فقال: هل سافرت معه السفر الذي يكشف عن أخلاق الرجال؟ قال: لا، فقال عمر رضي الله عنه: فعلَّك رأيته في المسجد راكعاً ساجداً، فجئت تزكِّيه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ فقال له عمر رضي الله عنه: اذهب فأنت لا تعرفه، يا رجل ائتني برجل يعرفك فهذا لا يعرفك.

إن المعيار الذي يقدمه لنا سيدنا عمر رضي الله عنه هو عدم الانخداع بالظاهر، والنظر إلى أفعال المرء وصِلاته البشرية ومعاملاته كي تقتنع به قناعة صحيحة تامة، وإنه لمن الخطأ أن تشهد على صلاح رجل ما دون أن تمتحنه في مصالحه ومنافعه.

٢٤ أحمد، الزهد، ص٨٦، رقم: ٥٣٣.

فالجوار يُظهِر الهويةَ الحقيقية للإنسان، ونحن نعلم أن الإنسان يستطيع النجاة من شر شخص ما بالابتعاد عنه، غير أن الأمر ليس سهلًا حين يكون مصدر الشر جارًا لك، لهذا السبب من الضروري اختيار الجار الطيب، وهناك مَثَل مشهور يقول: «الجار قبل الدار».

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام، فإن جار البادية يتحول عنك».[٢٥]

ويقول سيدنا أبو بكر رضي الله عنه:

«لا تعادِ جارك، فالضيف ذاهب وهو باقٍ».

فيجب علينا في هذه الحال أن نعتقد أن الناس كلهم أيضًا يرغبون في حسن الجوار، فنكون جيرانًا طيبين أولًا، ثم نسعى للسكن بين الجيران الصالحين.

ويبيِّن الحديث الشريف الآتي أهمية مراعاة حقوق الجار:

«ما زال يوصيني جبريل بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه».[٢٦]

ونجد من جانب آخر أن إزعاج الجار دليل واضح على ضعف الإيمان، فيجب على كل جار أولًا أن يأمن شر الآخر، فعن أبي شريح، أن النبي ﷺ قال:

---

٢٥ النسائي، الاستعاذة، ٤٤.

٢٦ البخاري، الأدب، ٢٨.

«والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: **«الذي لا يأمن جاره بوايقه»**.[٢٧]

ولما للجوار من أهمية عظيمة فإنه لم يقتصر على هذه الدنيا فقط، فكما أنه من الضروري البقاء بصحبة الصالحين في الحياة، فمن المهم جدًا أن يستمر الجوار معهم في القبر أيضًا، وقد جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ:

«ادفنوا موتاكم وسط قوم صالحين».[٢٨]

وقد أخذ العثمانيون بهذه التعليمات النبوية وعظَّموها، فكانوا يرغبون في أن يُدفنوا بالقرب من الصالحين أمثال أبي أيوب الأنصاري وكاراجا أحمد، لهذا نجد أن المقابر التي دفن فيها الصالحون اتسع حجمها فصارت كل مقبرةمنها كأنها مدينة بذاتها.

ونخلص هنا إلى أن المسلم مسؤول عن جاره، لهذا يجب عليه الحذر- قبل أي شيء- من أي سلوك قد يزعجه، وأن يتجاوز عن أخطائه ومساوئه الصغيرة، وألا ينسى أن ممن يحبهم الله تعالى من عباده رجل له جار يؤذيه فيصبر على أذاه ويحتسبه.[٢٩] وينبغي للمسلم أيضًا أن يُحسِن إلى جاره بناءً على حقيقة أن **«الإنسان يغلبه الإحسان»**، فإن كان جاره يعده عدوًا له، فلا بد أن يخفف هذه

٢٧ البخاري، الأدب، ٢٩؛ مسلم، الإيمان، ٧٣.

٢٨ الديلمي، جـ١، ١٠٢.

٢٩ انظر: أحمد، جـ٥، ١٧٦.

العداوة؛ وإن لم يكن صديقًا ولا عدوًّا فيجب أن يقرِّب علاقتهما إلى الصداقة؛ وإن كان صديقًا، فعندها يجب أن يزيد من المحبة بينهما.

يقول الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]

وإن لم يستطع المرء إصلاح جاره السيء، فعليه حينئذ أن ينظر في عيوب ذاته، وهذا ما فعله عبد الله بن المبارك من محاسبته لنفسه في الحادثة التالية:



فقد صحب وليَّ الله هذا في إحدى سياحاته رجلٌ ذو طباع سيئة، وبعد ان افترقا، بدأ عبد الله بالبكاء، فسأله أصحابه عن سبب بكائه، فكان جواب هذا الولي ذي القلب الرقيق بعد أن تنهد:

«عجبا كيف صحبت هذا فلم أصلح من حاله ولا من خلقه شيئًا على طول سفرنا معا، أَلِعَيبٍ في لم يستفد مني؟ فإن كان ذلك فماذا سيكون حالي غدًا يوم العرضِ على الله تعالى، اللهم رحمتك بي».

اللهم اجعلنا مؤمنين ذوي قلوب لطيفة رقيقة بعمق تفكرنا في هذه الحِكم والحقائق كلها. آمين!

لقمان الحكيم

عليه السلام

-٣-

لا يكتفي المؤمنون الصالحون الذين وصلوا إلى نضج معنوي جليٍّ بتخليص أنفسهم وبلوغهم الفلاح، بل تراهم يبحثون حولهم عمَّن يمكن أن ينجوَ في الآخرة، فهم يحيون مدركين أن فلاحهم مرتبط بسعيهم لفلاح غيرهم، ويرون هذه الوظيفة مسؤولية طبيعية يقتضيها إيمانهم.

لقمان الحكيم عليه السلام -٣-

يقول لقمان عليه السلام:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]

[ينبِّه لقمان الحكيم بنصيحته هذه إلى أعمال مهمة فرضها الله سبحانه، وهي: الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر.]

ولنبدأ بالحديث عن الصلاة، فالصلاة عماد الدين، ومعراج المؤمنين، ووظيفة لا تقوم العبودية إلا بها، وليس يمكن حتى عند لقاء العدو تركُها.[٣٠]

وليست القضية المداومةُ على أداء الصلاة فحسب، بل الأهم من ذلك الخشوع فيها، وذلك بمراعاة تعديل الأركان وحضور القلب؛ فالصلاة المقبولة هي الصلاة التي يصليها العبد بخشوع وفي حال يتوازن فيها القلب والبدن، يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون: ١-٢]

٣٠ انظر: النساء، ١٠٢.

ويبيِّن لنا الصحابي عبد الله بن الشخِّير حال الخشوع في صلاة النبي ﷺ بقوله:

«رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء ﷺ».[٣١]

لقد فُرِضت الصلاة في ليلة الإسراء والمعراج، وكانت صلاته ﷺ دائمًا كحاله حين كان في المعراج؛ أي في وصال مع الله ﷻ لا يمكن لأحد أن يعرِّف ماهيته أو يحدده. وقد علَّمنا رسول الله ﷺ فقال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[٣٢]

فبذلك أمرنا- نحن أمة الإسلام- أن تكون صلواتنا كحاله حين عُرِج به.

وقد عرَّف لنا الجانب القلبي للصلاة بقوله:

«**الصلاة مثنى مثنى، تشهد في كل ركعتين، وتخشع، وتضرع، وتمسكن**».[٣٣]

وهذا يعني أنه يجب على المؤمن أن يعي أنه- أثناء صلاته- يقف بين يدَّي رب العالمين، فيقطع علاقته بما سواه، ويدرك عجزه، فيسعى ليكون في حال من التواضع والمحوية والتعظيم لله والخشوع بين يديه والالتجاء إليه. ولا بد أن يعترف بأنه مخلوق

---

٣١ أبو داوود، الصلاة، ١٥٨.

٣٢ البخاري، الأذان، ١٨.

٣٣ الترمذي، الصلاة، ١٦٦.

ضعيف حقير عاجز أمام ربِّه العظيم، وأن كل شيء فيه من لطفه ﷻ، ثم يركع ويسجد للمولى سبحانه وهذه المشاعر تتأجج فيه، ويستوي في السجود ذاتُه والتراب الذي يسجد عليه، فيفنى في الحق تعالى، وعليه- إضافة إلى ذلك كله- أن يؤدي صلاته وهو مشتاق لشرف الوقوف أمام الله تعالى ونيل الفيوضات الإلهية.

ومن الضروري أيضًا أن نُقبِل على الصلاة بكل جوارحنا وأحاسيسنا، ونسعى لنتدبر ونتفكر في معاني التكبيرات والتسبيحات والأدعية والآيات، عندها نؤدي هذه العبادة العظيمة بأحاسيس عميقة وكأننا في معراج للوصال مع المولى جلَّ في علاه. ويوضح الشيخ أسعد أربيلي أحد المعايير المتعلقة بآداب قراءة «**التحيات**»[٣٤] التي تجلت في ليلة المعراج، ويضرب بذلك مثلًا عن التكامل في الصلاة، فيقول:

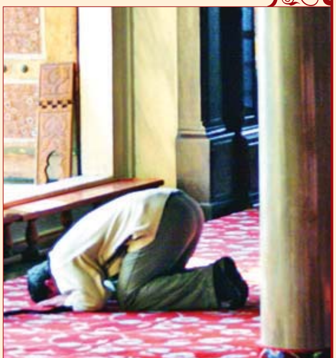
«إن التحيات التي عرضها وقدمها رسول الله ﷺ في حادثة المعراج لله تعالى يجب على المصلِّي أن يقدمها باسمه، أي كأنه

٣٤ أي: التشهد.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«اختلاط الوردة بالأشواك أكسبها رائحة عطرة».فحين تكون الوردة بين الأشواك، تزداد جمالًا وتألقًا. وأكثر الشروط أهمية في رقي المؤمن بروحانياته هو مروره من قنطرة الصبر، أي التحلي بالصبر على المصائب والهموم التي تصيبه في سبيل الله، وذلك بالتفكير بما أعده المولى له من ثواب في الآخرة؛ وبمعنى آخر، التخلي عن الشكوى والعصيان والتذمر.

هو من يقدِّم هذه التحيات لله تعالى، إذ لا ينبغي له أن ينأى بنفسه عن هذه الحال، قارئًا التحيات وكأنه ناقل لكلام شخص آخر أو راوٍ لحادثة. بل يجب أن يقرأها وكأنه يعيش تلك التجليات التي نزلت في المعراج بإدراكه معاني هذه التحيات. ويجب على المصلِّي أيضًا أن يقرأ بنفسه (أي باسمه هو) سلام الله ﷻ- بالمقابل- على نبيه، وردَّ النبي على هذا السلام الإلهي، والشهادتين التي نطق بهما جبريل عليه السلام». [٣٥]



وترى أحباب المولى عز وجل الذين استطاعوا أن يؤدُّوا الصلاة بهذه الرقة القلبية الشديدة يتلذَّذون تلذذًا لا مثيل له بالوصال أثناء هذه العبادة. وقد خلق الله سبحانه أبداننا ببنية هي الأنسب للسجود، ذلك كي نستفيد استفادة عظيمة من لذة الوصال معه جل وعلا، وأمرنا بالسجود له كي تكون هذه السجدة وسيلة للقرب من ذاته العليَّة.

ويصف الله تعالى الصلاة الكاملة التي ينبغي أن يؤديها العبد بالصورة المناسبة بقوله في كتابه العزيز:

[أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ] [العنكبوت: ٤٥]

٣٥ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٣٣، رقم: ١٠.

فالصلاة المقبولة الصحيحة إذًا هي تلكم الصلاة التي يؤديها من يتنزه عن الفحشاء والمنكر. ومنعُ الصلاة العبدَ عن الوقوع في المنكرات منوط بدوام الشعور بالعبودية- التي يدركها العبد أثناء هذه العبادة- بعد الفراغ من أدائها. أما إذا كان المرء يصلي الصلاة ومع ذلك ينتهك الحقوق ويداوم على ارتكاب المحرمات التي تُغضِب الله سبحانه، فهو حينها بعيد أشد البعد عن المعنى الحقيقي للصلاة، يقول المولى جل جلاله في مثل هؤلاء الغافلين الذين يصلون صلواتهم على هذا النحو:

[فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ] [الماعون: ٤-٥]

وإذا ما رجعنا إلى قول لقمان الحكيم لابنه نرى أن العمل الثاني الذي نصح به، والذي يعد من الوظائف الأساسية الواجبة على كل مؤمن هو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا يكتفي المؤمنون الصالحون الذين وصلوا إلى نضج معنوي جليٍّ بتخليص أنفسهم وبلوغهم الفلاح، بل تراهم يبحثون حولهم عمَّن يمكن أن ينجوَ في الآخرة، فهم يحيون مدركين أن فلاحهم مرتبط بسعيهم لفلاح غيرهم، ويرون هذه الوظيفة مسؤولية طبيعية يقتضيها إيمانهم.

ويعتقدون أن أفضل طريقة يشكر بها العبد ربه تعالى هي السعي لإيصال النعم- وعلى رأسها الإيمان والقرآن- التي أسبغها الله سبحانه عليهم إلى أولئك المحرومين منها.

يقول الشيخ أسعد أربيلي رحمة الله عليه:

«إن الشكر لا يعني قولك: (يا رب الشكر لك!) فحسب؛ بل الشكر يعني استعمال جميع النعم التي أسبغها الله تعالى عليك (العين، والأذن، واللسان، والقلب، والعقل، والصحة، والحياة) وفقًا للغاية من خلقها.

وخير أنواع الشكر وأكثرها قبولًا عند المولى ﷻ هو الشكر الذي يسري إلى غيره، أي العبادات الاجتماعية والخدمات التي تقدم النفع والفائدة إلى الإخوة في الدين».[٣٦]

ويأتي على رأس العبادات الاجتماعية الأمرُ بالمعروف والخير، والنهي عن المنكر والشر. غير أنه يجب على المؤمنين الذين سيؤدُّون هذه الخدمة أن يمثلوا الإسلام خير تمثيل في شخصياتهم وأحوالهم وسلوكهم؛ أي عرضهم الإسلام بادئ ذي بدء بأسلوب حياتهم.

وأما العمل الثالث والأخير الذي يشير إليه لقمان الحكيم في نصيحته لابنه فهو: الصبر. والصبر من أكثر الموضوعات التي يذكرها القرآن الكريم ويقف عندها، وهو عدم إخلال العبد التوازنَ القلبي حين يواجه تقلبات الحياة والظروف المختلفة، حلوها ومرها، والحفاظ على العبودية على منهجها الصحيح.

٣٦ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص٦٧، رقم: ٣٨.

ومن الأمور التي تجلب رضا الله تعالى صبرُ العبد على المرضَ والفقر والمهالك والمصائب، لا سيما تلك التي تكون أثناء تبليغ الدين وإيقاظ الغافلين، فضروب الأذى والضرر هذه كلها مجرد امتحان للعبد في حياته. فيجب على المؤمن في مثل هذه الأحوال أن يحافظ على توازنه القلبي ويقوي عزمه ويضاعف جهده على الدوام بتذكره دائمًا الامتحانات الصعبة التي مرَّ بها أنبياء الله ودوائر المحن التي واجهوها.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي موضحًا أن التبليغ والإرشاد- اللذَين يُعدَّان من أهم وظائف الأنبياء- يستلزمان الصبر العظيم:

« أعظم البلاء وأكثره إنما يُصَبُّ على الأنبياء، فإن هداية الضالين الغافلين المحرومين إلى الصراط المستقيم لهوَ بلاء بحد ذاته ».

ويقول مولانا في موضع آخر مبيِّنًا أن إظهار التحمل والصبر على مثل هذه الابتلاءات يُكسِب الإنسان الوصول إلى الكمال:

«اختلاط الوردة بالأشواك أكسبها رائحة عطرة».

فحين تكون الوردة بين الأشواك، تزداد جمالًا وتألقًا. وأكثر الشروط أهمية في رقي المؤمن بروحانياته هو مروره من قنطرة الصبر، أي التحلي بالصبر على المصائب والهموم التي تصيبه في سبيل الله، وذلك بالتفكير بما أعده المولى له من ثواب في الآخرة؛ وبمعنى آخر، التخلي عن الشكوى والعصيان والتذمر.

وكما أنه من أهم المُهمات الصبر على الفقر والعوز والمصائب التي تترك الإنسان عاجزًا، فكذلك من المهم الصبر على الغنى والشباب والصحة والفراغ، وهي أمور أربعة تهيج النفس وتجرها إلى التفلت والجموح؛ حتى إن وضع حدٍّ لشهوات النفس المفرطة في هذا الوضع، وإلجامها أمام مغريات الذنوب الشديدة، لأشقُّ وأصعب من الصبر على الفقر أو المرض أو الشيخوخة.

من أجل هذا كله، يجب على المؤمن أن يحرص ويصبر على حياة التقوى، مهما كانت الظروف التي يمر فيها.]

يقول لقمان عليه السلام:

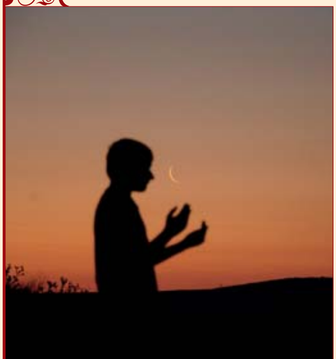
«إذا امتلأت المعدة، نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة».

[إذا ما أراد العبد أن يُربِّي نفسه في التصوف كي يترقى بروحه إلى درجات الكمال، فعليه حينها أن يرفع الشعارات الثلاثة ذات الأهمية العظيمة في هذا الطريق وهي:

١. قلة الطعام.
٢. قلة المنام.
٣. قلة الكلام.

يقول الشيخ أسعد أربيلي:
«لا تخشَ من الأشواك المنتشرة على الطريق الذي يأخذك إلى بستان العشق! فأنا قادر على جمع المئات من البراعم من كل شوكة».

فقلة الطعام التي لفتت انتباهنا في نصيحة لقمان الحكيم شعارٌ رفعه الأنبياء والصحابة والأولياء والصالحون جميعًا. وإذا تمعَّنت في حياة الصالحين الأتقياء، فإنك لن تجد ما نراه اليوم من النهم والجشع الذي هو علة كثير من الأمراض والأزمات، والذي يفتح طريقًا إلى التفريط والغفلة، ولن ترى في حياة أولئك الصالحين ذلك الإسراف في المأكل والمشرب، والاستجابة لكل ما تهواه النفس وتميل إليه.



واعلم أن تسمين البدن يُضيف طابع القسوة إلى عالم الإنسان المعنوي، ويغلظ القلب، ويطلق العنان للنفسانية، ويعكر صفو الروحانية، ويُضعِف الفكر؛ لهذا يقول رسول الله ﷺ:

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع».[37]

«ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطن. بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».[38]

«المؤمن يشرب في مِعًى واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء».[39]

---

٣٧ الحلبي، إنسان العيون، جـ٣، ٢٩٩.

٣٨ الترمذي، الزهد، ٤٧.

٣٩ مسلم، الأشربة، ١٨٦.

لهذا السبب من الضروري الحفاظ على الاعتدال في المأكل والمشرب من أجل حياة قائمة على العبودية الصادقة لله تعالى. إذ لا يمكن أبدًا بمعدة متخمة ونفس جشعة إدراكُ العجز والافتقار لله تعالى ولا يمكن الفناء- وهي أمور تكوِّن جوهر العبودية لله تعالى- ولا التوجه بالتواضع والمحوية إلى المولى ﷻ، ولا ذرف الدموع، ولا الخشية من الله تعالى ومحبته.

أي إنه مهما أدَّى المرء عباداته ظاهرًا بمعدة متخمة، فلا بد أن يكون هناك نقصان وعوز في خشوعه والفيوضات الروحانية التي يتلقَّاها. ومهما بدت عباداته كثيرة ظاهرة، فإن هذه المعدة المتخمة تكون في الحقيقة سببًا في النقصان والعيب؛ لهذا يعد الاكتفاء بطعام حلال قليل شرطًا لأداء العبادات بخشوع، والاستفادةِ من الحِكم والعِبر الإلهية بالتفكر العميق.

وما أجمل توضيح مولانا جلال الدين الرومي هذه الحقيقة حين قال:

«لا تهتم بتسمين بدنك كثيراً، فهو في النهاية أضحية مآلها التراب. والأصل أن تربِّي قلبك، فالقلب هو منْ سيرتقي، ويصل إلى مراتب الشرف، وينال حُسن المآب».

«قدِّم القليل من الدسم والعسل لبدنك؛ فالإفراط في تسمينه يوقِع في الرغبات النفسانية، ويُهوي بك إلى الدناءة في نهاية المطاف».]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني لا تكونن أعجز من هذا الديك الذي يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك».[٤٠]

[يلفت لقمان الحكيم انتباهنا في نصحيته هذه إلى الشعار الثاني في التربية الصوفية ألا وهو: قلة المنام.

وما أعظم العِبر في أن المولى جل جلاله يجعل الكثير من الحيوانات تستيقظ في الأسحار التي هي أفضل الأوقات وأعظمها أجرًا، ذلك كي يكون هذا الأمر وسيلةً لإيقاظنا وتنبيهنا نحن البشر. وما أشدَّ بؤس الإنسان الذي يغفل عن هذا الوقت وقد خلقه الله عز وجل في أحسن تقويم وشرَّفه على المخلوقات كلها.

إن أوقات السحر أوقات استثنائية تصفِّي الذهن والقلب، وتكسب الإنسان بلاغة وإدراكًا حادًا، وتقوِّي الذاكرة، وتعجِّل في المضي قدمًا في مملكة الروحانية.

وللذكر في الأسحار قيمة عند الله تعالى تفوق قيمة الذكر في سائر الأوقات. فالانشغال بالعبادات في وقت يبدو فيه السرير وكأنه مغناطيس يجذب الإنسان إليه أصعب وأعسر من أوقات أخرى، لذلك فإن إحياء الأسحار – إذا جاز التعبير هنا – دأب الرجال العظام لا الرجال كلهم.

٤٠ البيهقي، شعب الإيمان، ٧، ٤٧٥، رقم: ٥٣٠٦.

والأسحار أوقات يترك فيها العبد لذة النوم كي يرضى الله عنه، ويتوجه ليقف أمامه سبحانه لا لسبب دنيوي إنما لعشقه المولى جل وعلا، لهذا يعد السحر دليلًا جليًّا واضحًا على المحبة الخالصة التي يشعر بها العبد تجاه ربه، فلا يمكن البتة أن نجد مؤمنًا محبًّا لربه محبة بمعناها الكامل ينام حتى الصباح وهو غافل عنه سبحانه غفلة تامة.

وأشهى وأنفع غذاء يمكن أن يُقدَّم للروح هو ما يؤدِّيه العبد في الأسحار من صلاة، ودعاء، واستغفار، وشهادة توحيد، وصلوات على النبي ﷺ، وتفكر في الموت، وأذكار أخرى. ولعله من المهم الاستمداد من هذه الطاقة المعنوية في النهار أيضًا، كي نحفظ أنفسنا من الغفلة.

ومن المعلوم أن درجة الإقبال على الصلاة والتسبيحات في الليل منوطة بمقدار محبة الله تعالى في الفؤاد.

وحين أتى رجلٌ إلى إبراهيم بن الأدهم قائلًا: «إني لا أقدر على قيام الليل فصِف لي دواء».

أجابه إبراهيم: «لا تعصِه بالنهار، وهو يقيمك بين يديه في الليل. فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف».

إن العبد الصالح الذي يتذوق اللذة المعنوية لقيام الليل وينال فيوضاتها، يودُّ لو أن الأسحار لا تنقضي، ويقول بعد أن يتعمق في

التفكر في الموت: «ما كنت لأخاف من الموت، لكنه يحول بيني وبين صلاة الليل».

والحق أن انشغال المرء بالعبادة في الوقت الذي ينام فيه الناس جميعًا يعني أنه من العباد المختارين المقبولين في مجلس المعرفة والمحبة الربَّانية الخاصة، لهذا السبب يرى أرباب القلوب أنه لا وقت أفضل وأنفع من وقت الأسحار، وهذا ما توضحه الآيات الكريمة الآتية في كتاب ربنا:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا. إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦-٢٧]

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]

وحتى لا نبقى محرومين من فيوضات الروحانية في الأسحار يوصينا رسول الله ﷺ بقوله:

يقول الشيخ أسعد أربيلي:

«إني أتلذذ بالاضطراب في بستان الدروشة، وأرى الوردة في رؤياي حتى لو نمتُ على وسادة من شوك».

«عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد».[٤١]

أما التأخر عن إحياء أوقات الأسحار بالعبادات فهو خسران عظيم ما بعده خسران، وتشير الحادثة الآتية إلى هذه الحقيقة:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا قصَّها على النبي ﷺ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي ﷺ، وكنت غلامًا شابًا أعزب، وكنت أنام في المسجد على عهد النبي ﷺ، فرأيت في المنام كأن ملكَين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم فجعلت أقول أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، فلقيهما ملك آخر، فقال لي: لن تراع، فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على النبي ﷺ، فقال:



«نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي بالليل».

فكان عبد الله بعد ذلك اليوم لا ينام من الليل إلا قليلًا.[٤٢]

---

٤١ الترمذي، الدعوات، ١٠١.

٤٢ البخاري، أصحاب النبي، ١٩.

ونخلص من ذلك كله إلى أن على المؤمن ما استطاع أن يضيء أسحاره بأنوار ذكر الله تعالى ويقومها وفقًا لما يأمره الله ورسوله، عندئذ يصير ليله أشد نورًا وضياءً من نهاره.

يقول أبو يزيد البسطامي:

«لم يُفتح لي شيءٌ إلا بعد أن جعلت الليالي أياماً».[٤٣]]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، ما ندمت على الصمت قط، وإن كان الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب».[٤٤]

«الصمت حكمة، وقليل فاعله».[٤٥]

[وأما الشعار الثالث والأخير في التربية الصوفية، والذي نراه في نصيحة لقمان الحكيم فهو: قلة الكلام.

إن الصمت زينة العلماء وحلية العقلاء. والإنسان الذي يلبس مجنَّة الصمت يصون نفسه عن الكثير من سهام المهالك والمصائب، ويخلِّصها من نظرات أهل الحسد التي تنشر السموم في كل مكان. لهذا يجب على الإنسان أن يعمل صالحًا كثيرًا ويُظهِر أعمال الخير والحسنات بدل كثرة الكلام. وأما الإنسان الذي يزيد في الكلام

---

٤٣ البورصوي، روح البيان، جـ١، ٤٠١، البقرة: ٢٥٥.

٤٤ أحمد، الزهد، ص٤٤، رقم: ٢٧٢.

٤٥ أحمد، الزهد، ص٨٨، رقم: ٥٤٥.

ويتحدث عن الأعمال الصالحة لكنه لا يجد فرصة للقيام بها فهو يعيش في غفلة كبيرة واغترار عظيم.

والصمت الناتج عن إلجام النفس هو أفصح جواب وأبلغ ردٍّ على الجهَّال- وفق الظروف- فعلماء الإسلام يقولون:

«الصمت أفضل جواب للحمقى».

والحادثة التالية التي يرويها سعيد بن المسيب خير مثال لهذا القول:

بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه، وقع رجل بأبي بكر، فآذاه، فصمت عنه أبو بكر؛ ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر؛ ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر، فقال أبو بكر: أوجدت عليَّ يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ:

«نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان».[٤٦]

لكننا نجد من ناحية أخرى أنه من الخطأ الصمت حين يلزم الكلام، كما هو الحال في الكلام حين يلزم الصمت. فعدم التدخل والوقوف في وجه الخطأ في المواقف التي قد يضيع فيها الحق والبقاء صامتًا هو سبب لنزول الوبال العظيم.

٤٦ أبو داوود، الأدب، ٤١/ ٤٨٩٦.

يقول الشيخ أبو علي الدقاق:

«من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس».

إن الكلام أو الصمت على حسب الموقف معيارٌ عندنا نحن المؤمنين، ويجب علينا أن نراعي أمر نبينا ﷺ حين قال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».[٤٧]

لهذا إذا كان من اللازم على الإنسان الكلامُ، فعليه حينها أن يتكلم بكلمات مليئة بالحكمة تُطمئِنُ القلوب وتُريح الأرواح المتعبة، وتكون أعظم قيمة وأبعد أثرًا من الصمت. ولكي يتكلم الإنسان بمثل هذه العبارات الحسنة الجميلة، عليه أولًا أن يستوعب هذه العبارات المليئة بالحكمة ويحياها في حياته. وقد وهب الله الإنسان أذنين ولسانًا واحدًا كي يسمع الكثير ويتكلم القليل، فإذا لم يدرك المرء هذه الحقيقة، فسيكون كما قال الشيخ سعدي الشيرازي:

«من يتكلم دون تفكر، فكلامه خطأ في كثير من الأحيان».

ولهذا يقول سيدنا أبو بكر رضي الله عنه:

« تفكَّر جيدًا فيما تقول ، ومتى تقول ، ولمن تقول ».

فالإفراط في الكلام يحط من شأن الإنسان في أقصر وقت، يقول مولانا جلال الدين الرومي:

٤٧ البخاري، الأدب، ٣١، ٨٥؛ مسلم، الإيمان، ٧٤.

«الحديث الطويل إنما يستعين به من لا يستطيع إفهام مقصده».

ومثل هذا الذي يتكلم كثيرًا أنصت إليه قليلًا.]

اللهم اجعل صمتنا تفكُّرًا، ونظرنا عبرة، وكلامنا حكمة. وأكرمنا يا رب بأن نجعل أعمارنا في سبيل رضاك على أفضل صورة.

آمين!

لقمان الحكيم

عليه السلام

-٤-

إن قلوب الأولاد الذين ولِدوا على فطرة الإسلام طاهرة طهارة التراب، وكالجوهرة الخام تحتاج إلى صقل. ومستقبلهم منوط بالبذور التي زُرعت فيهم لا سيما مما أخذوه من الوالدين، حينها سنعلم هل ستغدو تلك البذور ورودًا أم أشواكًا، وهل ستثمر حلوًا أم مرًّا.

لقمان الحكيم عليه السلام -٤-

يقول لقمان عليه السلام:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨-١٩]

[إن الغرور والكِبر والإعجاب بالذات واحتقار الناس أخلاق سيئة لا تجر الإنسان إلا إلى نار جهنم. وليس للإنسان أن يتصف بصفة الكبرياء لأنها صفة خاصة بالمولى جل جلاله، لذلك يغضب الله عز وجل ويشتد غضبه على العبد الذي خلقه ولم يكن شيئًا مذكورًا، يغضب على العبد الفاني الآيل إلى الموت حين يُعجب بذاته ويستحقر غيره من العباد، يقول جل جلاله:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]

يقول المفسر البورصوي في كتابه (روح البيان):

«أقبِل على الناس بجملة وجهك عند السلام والكلام واللقاء تواضعًا، ولا تحول وجهك عنهم، ولا تُشِح بصفحة وجهك كما يفعل المتكبرون استحقارًا للعامة والفقراء، وليكن الغني والفقير عندك على السوية في حسن المعاملة والإشارة، ولا تمل خدك

تكبرًا أو تجبرًا معجبًا بما فتح الله عليك، فتكون بهذا مفسدًا في لحظة ما أصلحته في مدة».[٤٨]

إن سبب غضب الله تعالى الذي حلَّ على إبليس هو عصيانه إيَّاه بغروره وتكبره على آدم عليه السلام، ومحاولته منازعة الله بصفة الكبرياء الخاصة به جل جلاله. ولقد هلك قارون وصار إلى الدركات السفلى مع مُلكه وأمواله كلها التي كانت سنده ومدده وذلك لتقديسه المال، وحسده لسيدنا هارون عليه السلام، مع أنه كان متعمقًا في علوم الباطن.

لذا يجب على المؤمن ألا يدنو أبدًا من الغرور والكِبر والأنانية، وأن يعلم دائمًا أن النعم من الله تعالى، وأن العيوب والأخطاء من نفسه التي بين جنبَيه، ويُراعي قواعد اللطافة والآداب الإسلامية في أحواله ومعاملاته كلها؛ فيكون معتدلًا في مشيته، متحليًّا بالوقار والسيكنة، يغض طرفه ولا يتعالى على من حوله، ويخفض من صوته تأدبًا وحذرًا.

وما أكثر المعاني الموجودة في التشبيه الذي ذكره الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ [لقمان: ١٩]

فصوت الحمار الذي هو رمز للفظاظة والغلاظة صوتٌ مستنكر مزعج يعلو بلا سبب ولا غاية، ومثل هذا النوع من الخطاب لا يتوافق البتة مع لطافة المؤمن الكامل وظرافته وأدبه، فالأصوات المزعجة الجارحة للقلوب لا تخرج إلا من قلوب فظة.

٤٨ روح البيان، مجلد ٧، ص ٨٤.

يقول الحسن البصري:

«كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات، فردَّ عليهم بأنه لو كان خيرًا، فُضِّلَ به الحمير» [49]]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، تأدَّبْ في صغرك، تسعد في كبرك».

«لا تحقرن صغير أمرٍ، فالصغير يغدو كبيرًا».

[من العبارات المشهورة التي كان يقولها الأجداد: «يلين الغصن حين يكون غضًّا». إن للتربية في الصغر أهمية عظيمة، فالعلم في الصغر كالنقش على الحجر، يدوم ما دامت هذه النقوش. لهذا السبب من الضروري إيلاء أهمية كبيرة للتربية المعنوية لا سيما للأطفال والشباب، ويجب أن نتذكر دائمًا أن إهمال أمور صغيرة قد يكون سببًا لندامة كبيرة.

٤٩ أبو حيان، البحر المحيط، جـ. ٨، ص ٤١٧.

نجد مع الأسف في أيامنا هذه أن التلفاز، والمنشورات السيئة، والمواد الإباحية، وأزقة الفساد، والإعلانات التي تروج لثقافة الاستهلاك والبذخ والترف، والعناوين المريبة في «الإنترنت» قد تحولت كلها إلى وحوش كاسرة تنشر السموم في روح الأجيال الصاعدة فتفسدها. فتفقد الأجيال الشابة– تحت هذا الوابل من تأثير دوائر الفساد وأوكار الرذيلة– شخصيتها وهويتها، وتغدو مسخًا يضيع في أودية المهالك والضلال. ويمسي أمثال هؤلاء الشباب الذين يربيهم التلفاز و«الإنترنت» متسكعين على قوارع الطرقات منحرفين قابعين في الزوايا المظلمة من المجتمع، وتمسي صلتهم مع آبائهم وأمهات محض صلة دموية لا أكثر ولا أقل.

ولا تعني الرحمة بالأطفال والشباب والرأفة بهم النظرَ إلى حياتهم الدنيا فحسب، بإشباع بطونهم، وتزيين أجسادهم، وتسلية نفوسهم، وتأمين راحة أبدانهم؛ بل إن المقصود من الرأفة والرحمة خلاصُهم من العذاب في دار المقام، وتنشئتهم على القيم السامية التي تحييهم الحياة السعيدة، وقبل هذا وذاك إشباعهم بالروحانيات، وبذل الجهود الحثيثة والتضحيات الفريدة في سبيل ذلك.

ويوضِّح الحديث الشريف التالي أن الحظ العظيم هو لشاب تربى على القيم المعنوية التي تحجزه عن الهفوات و السقطات:



«**إن الله ﷻ ليعجب من الشاب ليست له صبوة**».[50]

وتقع مسؤولية تربية مثل هؤلاء الشباب الناضجين والأجيال الواعية على كاهل الآباء والأمهات أولًا.

ويأمرنا الله تعالى أن نربِّي «زوجاتٍ تكنَّ قرة عين» ليلدن «نسلًا تقر به العين» وذلك كله من أجل بناء أسرة آمنة تكون أساسًا لمجتمع مطمئن. والهدف الذي يضعه أمامنا ربنا ﷻ هو أن نكون أئمة للمتقين، وقادة مرشدين، أصحاب تقوى وأخلاق فاضلة في

٥٠ أحمد،مسند، جـ٤، ١٥١.

المجتمع، ويخبرنا أنه لا تتحقق الطمأنينة والأمان في المجتمعات إلا بظهور أمثال هذي الشخصيات التي تكون قدوة لغيرها.

ويقول نبينا ﷺ:

«كلكم راع ومسؤول عن رعيته... والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها».[٥١]

إن الراعي الجيد لا يحمل قطيعه إلى أراض جرداء قاحلة، بل يسوقها إلى أراضٍ نضرة خضراء، غزيرة الأمواء، كي ترعى هناك صباح مساء صيفَ شتاء. وهذا يعني أنه من الضروري أن يربِّي الصالحون من الآباء والأمهات أولادهم بالطعام الحلال، ويأخذوا بأيديهم منذ نعومة أظفارهم إلى أماكن الطاعة المباركة كي ينالوا غذاءهم المعنوي، ويتلقوا أحسن تربية.

وقد كانت الصحابيات تغضبن على أولادهن إذا ما بقوا طويلًا دون أن يروا رسول الله ﷺ، وكنَّ يجتهدْنَ أن يقتبس أولادُهن فيوضات الصالحين.

إن الراعي الحقيقي يحتضن الشاة المريضة أو الضعيفة التي بقيت وراء القطيع، ويأخذها كي لا تتأخر عن البقية، ولا يتركها لقمة سائغة للذئاب؛ وكذلك هو حال الآباء والأمهات، فهم يكابدون المشقات الكثيرة أثناء تربية الولد كي يترقى في عالمه الروحاني.

---

٥١ البخاري، الوصايا، ٩؛ مسلم، الإمارة، ٢٠.

والراعي الحقيقي هو الذي يحمي قطيعه من الأخطار. ونجد مع الأسف في أيامنا هذه أن التلفاز، والمنشورات السيئة، والمواد الإباحية، وأزقة الفساد، والإعلانات التي تروج لثقافة الاستهلاك والبذخ والترف، والعناوين المريبة في «الإنترنت» قد تحولت كلها إلى وحوش كاسرة تنشر السموم في روح الأجيال الصاعدة فتفسدها. فتفقد الأجيال الشابة- تحت هذا الوابل من تأثير دوائر الفساد وأوكار الرذيلة- شخصيتها وهويتها، وتغدو مسخًا يضيع في أودية المهالك والضلال.

ويمسي أمثال هؤلاء الشباب الذين يربيهم التلفاز و«الإنترنت» متسكعين على قوارع الطرقات منحرفين قابعين في الزويا المظلمة من المجتمع، وتمسي صلتهم مع آبائهم وأمهات محض صلة دموية لا أكثر ولا أقل.

لذا لا بد أن يكون الآباء والأمهات- لا سيما في أيامنا هذه- أجنحة تحتضن الأولاد وترعاهم وتحميهم. فالراعي الجيد تراه يمشي بدقة متناهية أمام القطيع تارة، وخلفه تارة أخرى، ويوجهه ويلاحظه بكل عناية كي يصل سالمًا إلى المرعى الذي يبتغيه.

ومن الواجب على الوالدين توجيه أولادهم دائمًا نحو الحق والخير كي يستقيموا على الصراط المستقيم، لهذا السبب يأتي في مقدمة وظائف الوالدَين تنشئة أولادهم على الهوية الإسلامية وتعميق جذورها في أنفسهم، وذلك بتربية هؤلاء الأولاد الذين

أكرمهما الله تعالى بهم ووضَعهم أمانة بين يديهما، ولا بد أن يشعر الوالدان أثناء تربيتهما أنهما يعبدان الله تعالى بهذه التربية.

وقد جعل المولى عَزَّ وَجَلَّ الأنبياءَ كلهم رعاة،[٥٢] فبمهنة الرعي وحدها يعرف المرء الرأفة والرحمة حين يألف أحاسيس المخلوقات، وبه يتعلم كيفية إدراة البشر. ونجد من هذا المنطلق أن الآباء والأمهات حين يكونون رعاة جيدين لأولادهم، فهم بذلك يقدمون خدمة سامية كوظيفة الأنبياء نفسها، والتوفيق في هذه الخدمة لا يكون إلا من نصيب أصحاب الأرواح الكاملة الناضجة.

والحق أن قلوب الأولاد الذين ولِدوا على فطرة الإسلام طاهرة طهارة التراب، وكالجوهرة الخام تحتاج إلى صقل. ومستقبلهم منوط بالبذور التي زُرعت فيهم لا سيما مما أخذوه من الوالدين، حينها سنعلم هل ستغدو تلك البذور ورودًا أم أشواكًا، وهل ستثمر حلوًا أم مرًّا.

إذًا؛ لا بد أن يكون الآباء والأمهات قدوة حسنة لأولادهم، فتعليم الطفل يبدأ في حضن الأم وكنف الأب، وكل كلمة تخرج من فم الأب والأم هي لبنة تساهم في بناء شخصية الطفل.

ويجب علينا أن نفكر تفكيرًا جديًّا آباءً وأمهاتٍ في هذه الموضوعات كلها لا سيما وأننا نعيش في حياة تعكَّرَ صفوها تحت نير ثقافة العولمة. وينبغي أن نسأل أنفسنا دائمًا السؤال التالي: «ماذا

---

٥٢ البخاري، الإجارة، ٢.

قدمت لولدي أبًا أو أمًّا حتى أنتظر منه البر والوفاء والطاعة؟» فإن كنا نريد أولادًا كاملين لا عيب فيهم، فيجب أن نسعى في البداية لنكون آباء وأمهات خالين من المثالب، ولا ننسى أنه ليس لنا أن ندَّعي مُلك شيء ما لم نُعطِ ثمنه.

ولا يمكن بأي طريقة أو وسيلة شكر والدَين ربَّيا أولادهما تربية صالحة، لكن إذا أهمل الوالدان تربية الولد تربية معنوية بعيدة عن سبيل الله، فليرتقبا يوم الحساب حين يحمِّلهما الولد المسؤولية كلها.]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، كيف لا يخشى الناس ما وعدا به من العذاب وهم يهملون ما أمروا به من الطاعات كل يوم!»

[الغفلة هي أن تضع أصبعك أمام عينك وتعمي بها نفسك. والغفلة هي أن تسدل ستارًا على قلبك يحجبك عن الحقائق، الغفلة هي التخبط في حقل من الألغام، هي التجول على أطراف الهاوية بلا حذر، الغفلة هي عشق الشاة للذئب وولع الضعيف بجلاده.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرًا استبشروا به، وإن كان غير ذلك، قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا».

[أحمد، جـ٣، ١٦٤؛ الحاكم، المستدرك، جـ٤، ٣٤٢/ ٧٨٤٩]

إن الشيطان والنفس الأمارة هما أشد أعداء الإنسان، فهما يضعان أمام الإنسان ذرائع لا تنتهي ويزينان له الكثير من الحيل والدسائس كي يزايل ما كلف به من وظيفةَ العبودية، ويهملَ ما ألقي على عاتقيه من أمانة ومسؤولية؛ فبذلك يخدِّران عقله، وقلبه، وإدراكه، وفهمه، ووجدانه، ثم يجرَّانه وهو في هذه الحال من السكرة والغفلة وانعدام الشعور إلى العذاب العسير بسهولة مطلقة.

وأعظم ضروب الغفلة حين يتكل العبد على رحمة الله المطلقة ومغفرته ولطفه وكرمه، ويظن أن «الله سيعفو عنه في نهاية المطاف» مهما فرط وأجرم، فتراه لا يراعي أوامر الله ونواهيه حق المراعاة، ولا يعبأ بالعاقبة المفجعة التي تؤدي إليها المحرمات؛ فهذا النوع من الغفلة هو اعتقاد أن الله تعالى غفور رحيم، وتناسي أنه جل جلاله قهار عزيز ذو انتقام في الوقت ذاته.

من أجل هذا كله يحذرنا ربنا العلي القدير- نحن عباده- في الآية الكريمة فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]

لهذا السبب يجب على العبد أن يكون حذرًا متَّزنًا محتاطًا ساعيًا للنجاة في آخرته، وألا ينسى أن الله تعالى قهار مثلما أنه غفَّار وستَّار، فإن لم يكن العبد كذلك فليرتقب حينها الخسران العظيم.

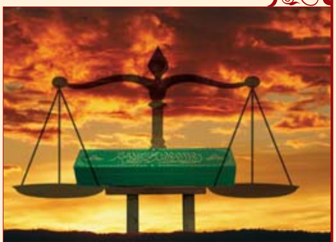
وحتى لا نقع في هذا الخسران ونضيع أعمارنا علينا أن نحرص على إصلاح أحوالنا بتوبة نصوح تنبع من القلب وتؤيدها الندامة والأعمال الصالحة.

وينصح لقمان عليه السلام ابنه قائلًا:

«يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة».[٥٣]

ويروي منصور بن عمار رحمة الله عليه الحادثة التالية:

خرجت ليلة من الليالي وظننت أن النهار قد أضاء، فإذا الصبح علا فقعدت إلى دهليز يشرف، فإذا أنا بصوت شاب يدعو ويبكي وهو يقول:



إلهي وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي إياك مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بذلك جاهل، ولكن خطيئة عرضت أعانني عليها شقائي، وغرَّني سترك المُرخَى علي، وقد عصيتك بغفلتي وخالفتك بجهلي، فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عني؟واشباباه! واشباباه! واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدًا إذا قيل للمخفين جوزوا، وقيل للمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط؟

٥٣ البيهقي، الزهد الكبير، ص٢٢٧، رقم: ٥٩٠.

فلما فرغ من قوله، تلوت آية من كتاب الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فسمعت حركة شديدة، ثم لم أسمع بعدها حسًّا فمضيت.

فلما رجعت من الغداة إذا أنا بجنازة منصوبة وعجوز تدخل وتخرج باكية، فقلت لها: يا أمَة الله، من هذا الميت منك؟ قالت: إليك عني لا تجدد علي أحزاني، قلت: إني رجل غريب فأخبريني. قالت: والله لولا أنك غريب ما أخبرتك، هذا ولدي من موالي رسول الله ﷺ، وكان إذا جنَّ عليه الليل قام في محرابه يبكي على ذنوبه، وكان يعمل هذا الخوص فيقسم كسبه ثلاثًا، فثلث يطعمني وثلث للمساكين وثلث يفطر عليه، فمر علينا البارحة رجل لا جزاه الله خيرًا، فقرأ عند ولدي آيات فيها النار، فلم يزل يضطرب ويبكي حتى مات رحمه الله.

فقلت: يا أمة الله، ابنك – إن شاء الله – في الجنة، فهذه صفة الخائفين إذا خافوا السطوة، فاشكري الله.[٥٤]

---

٥٤ انظر: أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٩، ص٣٢٨؛ الغزالي، إحياء علوم الدين، جـ٤، ص٤٢٢.

ويقول نبينا ﷺ في أضراب هؤلاء ممن يشعرون بالندامة نتيجة ذنوبهم ويذرفون الدموع خشية من الله تعالى:

«ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دموع، وإن كان مثل رأس الذباب من خشية الله، ثم تصيب شيئًا من حر وجهه، إلا حرمه الله على النار».[٥٥]

«لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع».[٥٦]

ولكن يجب ألا تُفهم مثل هذه البشارات في هذين الحديثين فهمًا خاطئًا، فالبشارات هنا تبين فضيلة ذرف الدموع خشية من الله تعالى إضافةً إلى الحياة في إطار الكتاب والسنة، ذلك أن العبد لا يضمن العاقبة التي سيؤول إليها. أما حين لا يراعي العبد أوامر الله ونواهييه، ويظن أنه سينجو في دار الخلود بدموعه التي يذرفها خشية من الله تعالى لوقت معلوم بعد أن تحل به المصائب ويلقى الألاقي، أو حين يرى الأموات أمامه، أو يمر على حوادث مشابهة، فهذا كله- كما ذكرنا فيما سبق- مكر شيطاني يجعل الإنسان يتوكل على عفو الله فقط، وهذا ما يغدو لاحقًا غفلة مريعة واغترارًا مؤسفًا.

ولا ريب أن الله تعالى يعفو عمَّن يشاء من عباده بسبب أو بلا سبب، غير أنه يجب على المؤمن ألا يعوِّل على الصالحات من

---

٥٥ ابن ماجه: الزهد، ١٩.

٥٦ الترمذي، الزهد، ٨/ ٣٢١١.

أعماله ودموعه التي سكبها من مقلتيه بعد أن أدَّى وظائف العبودية كلها قدر استطاعته؛ بل يأمل بمغفرة الله وعفوه دائمًا بالتوجه إليه عز وجل. وخير مثل لنا في هذا الموضوع خوف أولياء الله ورجاؤهم، أي حال الخشية والأمل الذي يعيشون في إطاره.]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، تب إلى ربك من كل ذنب أذنبته عمدًا كان أو خطئًا ،وتصدق عسى ربك أن يتوب عليك».

[التوبة هي الشعور بندامة حقيقية بعد الذنب، وتركه تركًا لا أوبة بعده. ويعد عمل الخير والانشغال بالأعمال الصالحة خير وسيلةً لتكفير الذنوب التي اقترفها العبد .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».[٥٧]

---

٥٧ الترمذي، البر، ٥٥/ ١٩٨٧.

الحياة حقيقة سامية لا تسعها المسافة بين المهد واللحد. وإن كانت رطوبة تراب المقابر وصلابة حجارتها هي الجواب الوحيد للسؤال الذي يتبادر إلى ذهن الإنسان حين يسأل: «ما هي الحياة؟» فما هو الشيء الأمَرُّ والأشقى من هذه الحياة؟ إن الحياة الحقيقية هي العيش في جنة حقائق القرآن والسنة بفيوضاتها وطمأنينتها وسرورها، لنيل السعادة السرمدية.

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، اشهد الجنائز، فهي تذكِّرك الآخرة. واعتزل اللهو والملذات فإنها تميل بك إلى الدنيا».

[إن أعظم نصيحة يمكن أن تُقدَّم لإنسان يسعى للفلاح في الآخرة هي الموت. وأكثر المسائل أهمية لدى الإنسان هو حل لغز الحياة والموت في ضوء الحقائق الإلهية، فالحياة حقيقة سامية لا تسعها المسافة بين المهد واللحد. وإن كانت رطوبة تراب المقابر وصلابة حجارتها هي الجواب الوحيد للسؤال الذي يتبادر إلى ذهن الإنسان حين يسأل: «**ما هي الحياة؟**» فما هو الشيء الأَمَرُّ والأشقى من هذه الحياة؟

إن الحياة الحقيقية هي العيش في جنة حقائق القرآن والسنة بفيوضاتها وطمأنينتها وسرورها، لنيل السعادة السرمدية. ويلخص الشاعر هذه الحياة التي يعيشها المرء بهذا الشعور في قوله:

ولدتــــك أمك يا ابن آدم باكــيًا والناس حولك يضحكون سرورًا

فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتــك ضاحكًــا مسرورًا

ولكي يبقى هذا الشعور حيًّا دائمًا لدى المرء، فمن الضروري أن يشهد الجنائز، ويحاسب نفسه معتقدًا أنه في يوم ما سيوضع هو أيضًا في ذلك التابوت ويحمل على الأعناق ويلحدً في القبر لا محالة، ويتفكر دائمًا في أن الدنيا فانية والحياة قصيرة.]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، إذا فعلت الخير فارجُ الخير، وإذا فعلت الشر فلا تَشُكَّنَّ أن يُفعل بك الشر»[٥٨]

[من الأمثال العربية المشهورة قولهم: «من دقَّ دُقَّ». أي من يزرع يحصد ما يزرعه، وسيرى نتيجة عمله أمامه. والدنيا بستان الآخرة، فما يزرعه الإنسان فيها من خير أو شر، سيحصد ثماره في القبر، والقيامة، ودار الخلود.

ويوضِّح مولانا جلال الدين الرومي أن المرء سيجد أمامه ثواب وجزاء ما صنعه، بقوله:

«أزرعت يومًا قمحًا، فحصدت شعيرًا؟»

إن المؤمن صاحب الفراسة والبصيرة يعيش حياته على أفضل صورة، ويسعى للاستفادة من كل فرصة يمكن له أن ينال الثواب بها، ذلك كي لا يجد أي أثر لذنب في دفتر أعماله، بل يملؤه بأعمال الخير والحسنات. يقول سيدنا أبو بكر رضي الله عنه:

«الدنيا سوق المؤمنين، والليل والنهار رأس مالهم، والأعمال الصالحة بضاعتهم، والجنة ربحهم، والنار خسارتهم».

وإننا لنجد حتى أبسط العقول يحسب الربح والخسارة دائمًا في الأمور المادية، ويعيد النظر مرارًا وتكرارًا في حاله، ويبحث عن

٥٨ البيهقي، الزهد الكبير، ص٢٨٤، رقم: ٧٣٧.

الطرق التي يزيد بها الأرباح ويتلافى الخسائر. فما أعظم حماقة ابن آدم الذي يريد الآخرة حين تراه لا يفكر في حياته الدنيوية أيقضيها في الخير أم الشر، هذه الحياة الفانية التي تحدد في الآخرة مصيره، أإلى سعادة سيمضي أم إلى هلاك.]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، الحياة قصيرة، وعمرك أقصر منها، ولم يبقَ إلا القليل من عمرك القصير هذا».

[في كل يوم يمر علينا نقلب صفحة من صفحات عمرنا، ويجري نهر حياتنا بسرعة دون توقف وما هذي الحياة الدنيا التي يحسبها الإنسان الغافل أبدية لا نهاية لها، إلا مهلة قصيرة في الحقيقة.

ويخبرنا المولى عز وجل عن هذه الحقيقة في قوله:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]

ولا تختلف هذه الحياة الفانية عن رغوة الصابون حين نقارنها بالحياة الأبدية في الآخرة، ولا يعلم أحد في هذا العمر القصير متى يطرق الموتُ بابه، فهذه الحياة كالبكرة التي لا يُعلَم طولها، فلا تدري متى ستنقطع بك أو تتلاشى من يدك، فكل مولود مرشح للموت مهما كان سنه وعمره.

لهذا يقدم لنا الإمام الغزالي نصيحة قيمة:

«أيها الولد، فلتفترض أنك متَّ ثم أُرسلت إلى هذه الدنيا من جديد. تخيَّل كيف سيكون شعورك حينها! فلا تقتربنَّ البتة اليوم من الذنوب والمعاصي، واحذر منها، ولا تُضِع أي لحظة من لحظات هذا اليوم أبدًا، فكل نَفَس من أنفاسك نعمة لا تقدَّر بثمن».]

اللهم اجعلنا ممن يدركون قيمة أعمارنا، ويسِّر لنا حياة توافق رضاك ملؤها الأعمال الصالحة.

آمين!

لقمان الحكيم

عليه السلام

–٥–

ماذا تنفع النعمُ الفانية المرءَ لو بقيت كلها في يديه؟ وما فائدة أن يُعمَّر ألف سنة في راحة ولذة وصحة؟ أوَليسَ في نهاية المطاف سيؤول إلى تلك الحفرة الضيقة الموحشة ويترك وحيدًا في ظلامها موسدًا على سواد ترابها؟ وماذا ستكون الحياة الدنيا التي تعيشها دون تذكر الآخرة- حتى لو قضاها بسعادة وجاه- غير الإفلاس والخسارة في دار الخلود؟

لقمان الحكيم عليه السلام -٥-

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة سراعًا يذهبون، وإنه قد استدبرت الدنيا لتذهب واستقبلت الآخرة، وإن دارًا تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج منها».[٥٩]

[إن مغامرة الإنسان ورحلته في هذه الحياة مسرح قائم بذاته تدور على خشبتها الحوادث ليأخذ المرء منها الدروس والعِبر:

فهو يأتي إلى هذه الدنيا وليس معه أي شيء، ويخرج منها صفر اليدين لا يحمل ولو شيئًا واحدًا منها، ويمتحننا الله- نحن عباده- بالمغريات النفيسة البهيَّة في هذه الدنيا الفانية. وحتى لو علم ذاك الإنسان الذي لم يخضع لتربية معنوية هذه الحقيقة الجلية، لبقي حريصًا على محبة هذه الدنيا الدنيِّة، وخالف حدود الله من أجل أمور سيتركها خلفه يومًا ما، فتراه ينشغل في إعمار دار الفناء، ويهدم دار البقاء.

٥٩ انظر: البيهقي، الزهد الكبير، ص٢٠١، رقم: ٥٠١.

فماذا تنفع النعمُ الفانية المرءَ لو بقيت كلها في يديه؟ وما فائدة أن يُعمَّر ألف سنة في راحة ولذة وصحة؟ أوَليسَ في نهاية المطاف سيؤول إلى تلك الحفرة الضيقة الموحشة ويترك وحيدًا في ظلامها موسدًا على سواد ترابها؟

والدنيا غدَّارة، لا بد أن تسترد منك يومًا ما وَهَبَتْكَ، فلا يبقى لك حينها إلا الحساب والعذاب. إذًا، ماذا ستكون الحياة الدنيا التي تعيشها دون تذكر الآخرة- حتى لو قضيتها بسعادة وجاه- غيرالإفلاس والخسارة في دار الخلود؟

إن السعادة الحقيقية هي الانتقال إلى الحياة الأبدية بقلب سليم، وذلك بنيل رضا الله ﷻ ومحبته في هذه الدنيا الفانية. والعاقل هو الذي يذكر الموت دائمًا أبدًا، ويستعد من هذا اليوم استعدادًا يوافق المقام الذي يبتغي الوصول إليه في الآخرة، يقول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]

ويقول المولى ﷻ في موضع آخر: **﴿والفَجرِ﴾** [الفجر: ١]، وهذا قسمٌ منه سبحانه بوقت عظيم تستيقظ فيه المخلوقات كلها لتعيش يومًا جديدًا. وهذا يعني أن الله سبحانه يطلب منا أن نصغي إلى حِكم هذا الوقت المعلوم ونتعمق في التفكير فيه، فعلينا إذًا أن نتفكر في كل فجر يطلع علينا على الصورة التالية:

لقد فتح ربي ﷻ لي صفحة جديدة من صفحات عمري، ومنحني فرصة أخرى لم يمنحها لكثير من الناس، فكم من أناس كانوا أمس أحياء صاروا اليوم في عداد الأموات. إن هذا اليوم الجديد جعلني ابتعد يومًا آخر عن هذه الدنيا واقترب يومًا من الآخرة، وكل نَفَس اتنفسه يقرِّبني من اللحظة التي يخرج فيها نَفَسي الأخير. إذًا كيف لي أن أستغل يومي هذا خير استغلال؟ وبماذا أملأ صفحة يومي؟ فالكِتاب الذي تسجِّل فيه الملائكة كل أعمالي سيكون ملفًا يُعرَض يوم القيامة أمام المحكمة الإلهية...

لذا يجب ألا أنسى البتة أن الآخرة هي حياتي الحقيقية، وأنني ما بُعثت إلى هذه الدنيا الفانية إلا كي أفوز بالآخرة. وينبغي أن أحيا يومي هذا شاعرًا أنه آخر أيامي، وأن كل نَفَس أتنفسه آخر أنفاسي.

وقد قيل: «هلك المسوِّفون». ولست أعلم أحيٌّ أنا غدًا أم ميت؟

يقول نبينا ﷺ:

«إذا قمت في صلاتك فصلِّ صلاة مودع».[٦٠]

---

٦٠ ابن ماجه، الزهد، ١٥/ ٤١٧١.

يا صاحب المُلك والمال	أين الصاحب الأول لهما؟
المال كذبة والمُلك كذبة	فاستمتع إلى حين بهما

(يونس أمرَه)

فلا بد إذًا أن أصلي صلاتي في يومي هذا بخشوع وروحانية، وأن أوفي ديوني المادية منها والمعنوية، وأطلب المسامحة ممن له حق علي، وألا أضر أو أتضرر من أحد، وأن أنشر الرحمة دائمًا حيثما حللت، وأن أكون ذا قلب رقيق حساس كمن يودِّع هذه الدنيا.]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، اتخذ طاعة الله تجارة، تأتك الأرباح من غير بضاعة».[٦١]

[إن اللحظات التي يكون فيها أعظم الربح في الحياة الدنيا هي تلك التي يمضيها الإنسان مطيعًا لله سبحانه، وأعظم تجارة رابحة في الدنيا هي التجارة التي يعطي فيها الفانيَ ويفوز بالباقي. فسعادة المؤمن العظمى حين يكون عبدًا صالحًا بتسليمه التام لأوامر الله عز وجل.

ومن يعبد الله مخلصًا يتخلص من العبودية لمخلوقات الله، ويصل إلى الحرية الحقيقية، ومن لا يكون عبدًا لله تعالى، لا ينجو من حال يغدو فيها للظالمين عبدًا، وللمال والمُلك أسيرًا، وللمغريات النفسانية مدمنًا.

والفدية الوحيدة التي يتخلص بها الإنسان من أنواع الأَسْر هذه هي التسليم التام لأوامر الله تعالى. ولا تجارة أربح للمؤمن في حياته الدنيا من هذه التجارة، فمن يبيع نفسه لله عز وجل، أي من يستسلم

٦١ أحمد، الزهد، بيروت ١٩٩٩، ص٤٣، رقم: ٢٦٩؛ البيهقي، الزهد الكبير، ص٢٨١، رقم: ٧٢١.

للأوامر الإلهية بتخليه عن الهوى والوساوس، يأخذ نصيبه من هذه الدنيا؛ أما من يخضع للدنيا فإنه يُحرَم من رضا الله سبحانه الذي يقول في الآية الكريمة:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]

ويطلق القرآن الكريم صفة **﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾** [الغاشية: ٣] على أولئك الغافلين الذين أنهكوا قواهم سعيًا لنيل المنافع الدنيوية بدل رضا الله تعالى في هذه الحياة.



ولكي لا يقع المرء في هذه الهاوية وهذه العاقبة المفجعة، لا بد أن يحيا في إطار الآية الكريمة التالية:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ [التوبة: ١١١]

وتشير الروايات إلى أن هذه الآية الكريمة نزلت في بيعة العقبة حين دعا الأنصارُ النبيَّ ﷺ إلى مدينتهم (يثرب)، وقد كان النبي ﷺ آنذاك يجاهد في سبيل التوحيد تحت نير المصاعب الجسام في مكة. وفي تلك البيعة قام عبد الله بن رواحة– وكان من الأنصار– وقال:

يا رسول الله، اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال ﷺ:

«أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال: «**الجنة**».

قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل.[٦٢]

ويوضح لنا المولى ﷻ أفضل أنواع التجارة وأعظمها ربحًا حين يقول في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ. لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]

ونجد في هاتين الآيتين الكريمتين أن الخطوة الأولى في هذه التجارة التي هي وسيلة للفلاح الأبدي هي: **تعلم القرآن الكريم، وتعليمه**، وتنظيم حياتنا وفقًا لأحكامه، وامتلاك قلب رقيق حساس متفكر بحقائقه.

أما الخطوة الثانية فهي **إقامة الصلاة**، أي إمكانية اللقاء مع الخالق ﷻ في الصلاة، فهو يخبرنا أنه معنا كل حين، ويأمرنا أيضًا أن نكون

٦٢ ابن كثير، تفسير، جـ٢، ٤٠٦.

معه دائمًا؛ وهو الذي جعل من الصلاة، التي هي معراج لأرواحنا، أعظمَ وسيلة للوصال الذي قد نحققه معه ﷻ في ظل الظروف الدنيوية، ولهذا السبب يقول في كتابه الكريم:

﴿**اسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق: ١٩]

يقول ميرزا مظهر جان جانان:

«لكل عمل هيئته، والصلاة تجمع في ذاتها الخصائص كلها، فهي تشمل تلاوة القرآن الكريم، وأنوار الذكر مثل التسبيحات، والصلوات الشريفة، والاستغفار. فإن راعى العبد آداب الصلاة بحق، فسيجد فيها أعظم الفيوضات وأحسن الأحوال، أحوالٌ تشبه هاتيك الأحوال الروحانية التي كانت في عصر السعادة[٦٣]».[٦٤]

وأما الخطوة الثالثة لـ«**التجارة التي لن تبور**» والتي هي وسيلة للفلاح الأبدي فهي: الإنفاق سرًّا وعلانية.

ويجب على المؤمن أن يرجِّح الإنفاق السري، لكنه إن كان مجبرًا على الإنفاق العلني، فلا مناص من ابتغاء الإخلاص فيه، خوفًا من أن يقع في الرياء والمفاخرة.]

٦٣ عصر السعادة: عصر النبي ﷺ والخلفاء الراشدين. [المترجم]

٦٤ عبد الله دهلوي، المقامات المظهرية، ص٧٣.

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، إن المؤمن ذو قلبين: قلب يرجو به، وقلب يخاف به». [٦٥]

[لا يمكن أن يتحد في قلب واحد الخوفُ والمحبة في المسائل الدنيوية، لكن الوضع مختلف في المسائل الروحانية، فالمؤمن الكامل كلما تعمق في تفكره في نِعم الله الكثيرة، امتلأ قلبه بمحبة الله سبحانه. ويحقق هذا المؤمن الوصال مع الله تعالى في قلبه عبر كل مخلوق ينظر إليه بنظر المحبة، وبإطاعته لأمر الله في قوله:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وتراه دقيقًا حريصًا كي لا يفقد هذا القرب والمكانة، وكأنما فرائصه ترتعد قلقًا من أن يخسر محبة الله له. وحياة الأنبياء والأولياء مليئة بمظاهر هذه الحال، بل بخير مظاهرها، يقول خليل الله إبراهيم عليه السلام خائفًا من ربه: **﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾** [الشعراء: ٨٧]

٦٥ أحمد، الزهد، ص٨٧، رقم: ٥٣٧.

لا يمكن أن يتحد في قلب واحد الخوفُ والمحبة في المسائل الدنيوية، لكن الوضع مختلف في المسائل الروحانية، فالمؤمن الكامل كلما تعمق في تفكره في نِعم الله الكثيرة، امتلأ قلبه بمحبة الله سبحانه. ويحقق هذا المؤمن الوصال مع الله تعالى في قلبه عبر كل مخلوق ينظر إليه بنظر المحبة، وبإطاعته لأمر الله في قوله:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وتراه دقيقًا حريصًا كي لا يفقد هذا القرب والمكانة، وكأنما فرائصه ترتعد قلقًا من أن يخسر محبة الله عز وجل له.

إن الخوف والرجاء هما ميزان العبودية الواجب وجوده دائمًا في قلب المؤمن. أي يجب أن يتوازن في قلبه دائمًا الخوف من أن يغضب الله عليه بحرمانه من رضاه ومحبته، ورجاءُ نيلِ مغفرته ورحمته التي وسعت كل شيء.

ويجب على المؤمن أن يحافظ على هذا التوازن القلبي حتى آخر نَفَس يتنفسه، فقد ورد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ذكرُ من حلَّ عليه غضب الله وكان على بُعدِ ذراع من الجنة، ومن تنزَّلت عليه رحمات الله وكان على بُعد ذراع من النار.



أي إن المرء لا يعلم إذا كان سيسلم بإيمانه عند خروج نَفَسه الأخير، ولا يمكن لأحد أن يضمن ذلك سوى الأنبياء والمبشَّرين، وقد جاء في الآية الكريمة قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]

لذا يجب على المؤمن من أجل سلامة إيمانه لحظة خروج نفَسه الأخير أن يسعى جاهدًا طوال حياته لنيل رضا الله سبحانه، ويكون في حال دعاء والتجاء أملًا أن ينال رحمة الله تعالى ومغفرته.

وقد التجأ سيدنا يوسف عليه السلام إلى المولى جل جلاله فقال مبتهلًا:

﴿...تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني إن الدنيا بحر عميق، هلك فيه عالم وخلق كثير، فاجعل سفينتك فيه الإيمان بالله، واجعل حشوها تقوى الله وطاعته، واجعل شراعها الدين، به تجري توكلًا على الله، لعلك تنجو ولعلك لا تنجو»[٦٦]

[لا ريب أن الإيمان والعمل الصالح هما أفضل زاد يجب على الإنسان المؤمن أن يتزود بهما في هذه الدنيا التي يسير فيها نحو دار الخلود. غير أن المؤمن الكامل مهما عمل صالحًا، فإنه لا يضمن نجاته ودخوله الجنة باعتماده على الأعمال الصالحة. فمع إيفائه بأعماله على أكمل صورة، يعلِّق المؤمن أمله برحمة الله تعالى ومغفرته فقط، وهذا أدب مهم من آداب العبودية تحفظ المؤمنين من علة الاغترار بالأعمال.

ولهذا تجد أولياء الله يرون أنفسهم خلف الناس كلهم، ويسعون لزيادة عبوديتهم بقلقهم من أن ينجو كل إنسان دونهم، مع أنهم يحيون حياة تقوى لا مثيل لها.

ولنا أن نذكر هنا قول أحد أولياء الله الذي عُرف في عصره باسم «شمس الشموس» لموقعه في العلم والعرفان الذي لم يزاحمه أحد عليه، ألا وهو الشيخ خالد البغدادي الذي وصف لأخيه يومًا

٦٦ البيهقي، الزهد الكبير، بيروت ١٩٩٦، ص١٣٩، رقم: ٢٦٩.

الإحساس النابع من أدب العبودية فقال:

«لا تحتقر أحدًا، ولا تعتقد نفسك فوق أحد، وابذل جهدك في العبادة القلبية والبدنية، واحسب نفسك أنك ما عملت خيرًا أبدًا... وأنا والله لا أعتقد أني عملت خيرًا منذ ولدتني أمي... فإن لم تجدك مفلسًا عن كل خير فهو غاية الجهل، وإن وجدتك مفلسًا فلا تقنط من رحمة الله تعالى، فإن فضل الباري خير للعبد من أن يكون له عمل الثقلين».[٦٧]

ومن ناحية أخرى يجب على العبد مهما اقترف من الذنوب ألَّا يفقد الأمل برحمة الله ومغفرته، وألَّا يرى نفسه في النار، فالله تعالى يقول في الآية الكريمة:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]

ولكي يحظى المرء برحمة الله التي بشَّرت بها هذه الآيةالكريمة، لا بد أن يتوجه إلى الحق ﷻ بتوبة نصوح من خلال عمله بمقتضى الآية الكريمة التي تليها:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]

٦٧ أسعد صاحب، بغية الواجد، رقم: ٢٨.

ويقول نبينا ﷺ:

«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد».[٦٨]

وقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم الذي تربوا وفق تعاليم القرآن والسنة في موضوعات الخوف والرجاء يحيون في روحانية عظيمة ورِقَّة قلبية؛ يقول ابن أبي مليكة رحمة الله عليه:

«أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل».[٦٩]

وحتى سيدنا عمر رضي الله عنه الذي يعدُّ من أعظم شخصيات الإسلام لم يكن يرى نفسه سالمًا من هذا الخوف. وقد كان رسول الله ﷺ

٦٨ مسلم، التوبة، ٢٣/ ٢٧٥٥.
٦٩ البخاري، الإيمان، ٣٦.

ورد في القرآن والأحاديث الشريفة ذكرُ من حلَّ عليه غضب الله عز وجل وكان على بُعدِ شبر من الجنة، ومن تنزَّلت عليه رحمة الله عز وجل وكان على بُعد شبر من النار.
لذلك يجب أن يكون قلب المؤمن دائمًا متيقِّظًا بالخوف من أن يحل غضب الله عز وجل عليه، وفي طمأنينة واتزان بالأمل بأن ينال رحمته سبحانه وتعالى.

يسمِّي لحذيفة المنافقين، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذهب إلى سيدنا حذيفة وفؤاده مضطرب قلق وقال:

«أنشدك الله عز وجل أنا فيمن سمى لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟»

فقال حذيفة رضي الله عنه:

«لا والله، والله لا أبرئ منها رجلًا بعدك».

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه على فضائله كلها يقول انطلاقًا من إيمانه بوجوب توازن الخوف والرجاء في قلبه:



«لو نادى منادٍ من السماء: يا أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلًا واحدًا لخفت أن أكون أنا هو، ولو نادى منادٍ: أيها الناس؟ إنكم داخلون النار إلا رجلًا واحدًا لرجوت أن أكون أنا هو».[٧٠]

وصفوة الكلام هي أنه يجب أن يكون قلب المؤمن دائمًا في تيقظ وحذر خوفًا من الله تعالى، وفي طمأنينة أملًا به سبحانه.]

٧٠ علي المتقي، جـ١٢، ٦٢٠/٣٥٩١٦. انظر أيضًا: ابن رجب الحنبلي، التخويف من النار، دمشق ١٩٧٩، ص١٥.

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، خذ من الدنيا بلاغًا، ولا تدخل فيها دخولًا يضر بآخرتك، ولا ترفضها فتصير عيالًا على الناس، وصم صومًا يقطع شهوتك، ولا تصم صومًا يمنعك عن الصلاة، فإن الصلاة أحب إلى الله من الصيام». [٧١]

[يجب على المؤمن أن يكون معتدلًا في كل أمر، أي يحذر من الإفراط والتفريط؛ وبعبارة أخرى يجب عليه ألا يبالغ البتة في المشاغل الدنيوية، والمساعي والخدمات الأخروية، وحتى في حياته التعبدية، بل يحيا حياة متوازنة ضمن الحدود التي وضعها الله ورسوله، وبهذا كله يرتبط دوامُ حياة العبودية في إطار مقبول.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»

قالوا: يا رسول الله ولا أنت؟

قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**. [٧٢]

إن إهمال العبادات يضع الإنسان في موقف عصيب يوم القيامة، بينما تكون المبالغة في الأمور والتصرف بحرص سببًا للتعب والملل وارتكاب الأخطاء بعد حين، فلا بد في هذه الحال من أن يكون الأساس في كل أمر هو الاستمرارية والاعتدال؛ وتوضح الحادثة التالية هذه الفكرة خير توضيح:

٧١ البيهقي، الزهد الكبير، ص٨٤، رقم:٩١.

٧٢ مسلم، المنافقين، ٧٦،٧٨/ ٢٨١٦؛ انظر أيضًا: البخاري، الرقاق، ١٨، المرضى، ١٩.

وصف النبي ﷺ القيامة فرقَّ له الناس وبكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي، وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا، ويلبسوا المسوح وهو الصوف، ويصوموا الدهر، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلوا اللحم، والودك أي الدسم من السمن، والدهن، ولا يقربوا النساء والطيب، ويسيحوا في الأرض.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فتكلم مع الصحابة العشرة، ثم جمع الناس وخطب بهم فقال:

ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا. إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانًا، فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد، واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وحجوا واعتمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يُستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شدَّدُوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع.

فأنزل الله سبحانه الآية الكريمة التي يقول فيها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧][٧٣]

---

٧٣ انظر: الواحدي، ص٢٠٧-٢٠٨؛ علي القاري، مرقاة المفاتيح، جـ١، ١٨٢-١٨٣.

يقول لقمان عليه السلام:

«يا بني، اتق الله، ولا تُرِ الناس أنك تخشى الله عز وجل ليكرموك بذلك وقلبك فاجر».[٧٤]

[**الرياء** هو أن يكون المرء صاحب وجهَين يستغل المشاعر الدينية ليستميل وجوه الناس إليه، والرياء صفة شديدة القبح لا تتوافق البتة مع أخلاق الإسلام. وحين ترى المرء يبدو كالمؤمن الكامل يقترب من الصالحين من أجل منفعة يأمل بها، ثم يظهر عليه سلوك مخالف لذلك حين يفارقهم، فذلك هو الذي يحق عليه غضب المولى عز وجل العليم بما في الصدور.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم منبِّهًا إيَّانا:

«إن أخوف ما أتخوف على أمتي، الإشراك بالله، أما إني لست أقول يعبدون شمسًا، ولا قمرًا، ولا وثنًا، ولكن أعمالًا لغير الله، وشهوة خفية».[٧٥]

وأما علامات المؤمن الحقيقي التي يتميز بها عن غيره فهي:

- **استقامته.**
- **وإخلاصه.**
- **وصدقه.**

٧٤ أحمد، الزهد، بيروت ١٩٩٩، ص٤٤، رقم: ٢٧٠.

٧٥ ابن ماجه، الزهد، ٢١.

وكان من أقوال مولانا جلال الدين الرومي لمن يريد أن يحافظ على صفاء القلب:

«فلتبدُ كما أنت، أو كن كما تبدو!»]

اللهم أحينا حياة العبودية، وارزقنا الإخلاص والاستقامة والصدق والأدب، ويسِّر لنا تقديم الخدمات بمشاعر إيمانية في سبيل رضاك يا رب العالمين.

آمين!..

أبو الحسن الخرقاني

رحمة الله عليه

-١-

إن أولى ثمار الإيمان الكامل هي الرحمة، وأبرز مظاهر الرحمة خدمة المخلوقات في سبيل رضا الله تعالى. فقلب المؤمن الكامل الذي وصل إلى ذروة محبة الله ﷻ منبعٌ للرحمة والرأفة تطمئن بها المخلوقات كلها.

أبو الحسن الخرقاني رحمة الله عليه -١-

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«إن أي أخ لي في الدين من الشام إلى تركستان إذا ما دخلت إصبعه شوكةٌ، فكأنما دخلت إصبعي؛ وإذا أُصيبت قدمه بحجرة، فستؤلم قدمي؛ وإن كان هناك حزن في قلب ما، فذاك القلب قلبي».[٧٦]

[إن هذا القول مثال واضح يدل على كيفية إدراك الأرواح الطاهرة الكاملة حقَّ الأخوة في الإسلام. قولٌ عظيمٌ يعرض لنا الآفاق التي يصل إليها قلب المؤمن المضحِّي الذي وقف نفسه على خدمة الأمة الإسلامية وسعادتها وسلامتها، وذلك عبر تجاوز الحدود الضيقة للمصالح الشخصية والهموم الدنيوية. ويبيِّن لنا أيضًا حال الروحانية التي يعيش فيها الصالحون الذين فنوا في الله ورسوله من خلال تخلصهم من نفسانيتهم وأنانيتهم، وفوق ذلك كله، توضِّح لنا هذه العبارات أحاسيس القلوب الرقيقة التي مُزِجت بالحكمة الواردة في الحديث الشريف:

«...من لم يهتم للمسلمين عامة فليس منهم».[٧٧]

---

٧٦ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦٠٤.

٧٧ الحاكم، جـ٤، ٣٥٢/ ٧٨٨٩؛ الهيثمي، جـ١، ٨٧.

كان الشيخ عبيد الله أحرار أحد أولياء الله العِظام الذين صارت محبة المخلوقات والرأفة بهم من أجل الخالق ﷻ سليقة أصيلة فيهم. وفي يوم من الأيام أصابه البرد فساءت حاله، فجعل مريدوه يشعلون نارًا كي يستدفئ بها، ولكن دون أي فائدة، فاستمر يرتجف من البرد.

وفي تلك الأثناء دخل عليه أحد مريديه مرتجفًا، إذ بينما كان في طريقه إلى شيخه وقع في خندق مليء بالماء البارد، فهرع الشيخ كي يجفف مريده ويدفِّئه. وحين شعر المريد بالدفء، زال البرد عن الشيخ أحرار.

إذًا يجب على المؤمن أن يكفل- وفق طاقاته وقدرته- كل أخ له في الدين أينما كان، وأن يشعر بآلامه وأوجاعه. فالحياة المثلى لقدوتنا وهادينا رسول الله ﷺ حياة مليئة بأعظم مظاهر هذه الأخلاق، فكم تعرض نبي الرحمة للأذى والبلاء طوال حياته في سبيل نجاة أمته، وما كان لقلبه أن يطمئن ما لم تطمئن القلوب المهمومة.

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] إلى آخر الآية، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] والآية التي في الحشر: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]

«تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره- حتى قال- ولو بشق تمرة»

قال: فجاء رجل من الأنصار بِصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، كأنه مذْهبة.[٧٨]

٧٨ مسلم، الزكاة، ٦٩/ ١٠١٧.

من يحب اللهَ، يحب مخلوقاته. وليس المقصود من المحبة هنا الكلام الفارغ الذي لا طائل وراءه؛ بل المحبة الحقيقية هي مشاركتك الحبيبَ همومه، والنظر في أموره، وإظهارك التضحية بالروح والدم في سبيله، ومقاسمة النعم التي بين يديك معه بكل ودٍّ ورضا.

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

« يا رب إني لأستحي أن يكون في هذه الدنيا من هو أرأف مني بخلقك».[٧٩]

[إن محبة الله ﷻ المتجذرة في قلب المؤمن الكامل تفوق ضروب المحبة الفانية كلها، لهذا تجد أن المحبَّ يحب ما يحبه الحبيبُ؛ أي كلما زادت محبة الله ﷻ في العبد وتقوَّت، تراه يشرع بمحبة كل شيء قريب من الله تعالى على حسب درجة القرب.



وتتسع هذه المحبة في القلوب العاشقة التي تجاوزت المحبة المجازية ووصلت إلى «**العشق المطلق**»، مثلما تتسع الدائرة إلى اللانهاية لتشمل المخلوقات كلها، القريبة من تلك القلوب والبعيدة عنها، وتحتل مركزَ هذه المحبة محبةُ الله تعالى، ويعبِّر يونس أَمْرَه عن هذا العشق في قوله:

«اصفح عن المخلوق من أجل الخالق».

لهذا يستطيع المرء أن يمد جناح الرحمة والرأفة والمحبة ليحتضن المخلوقاتِ كلها- عدا أعداء الله- من أجل الخالق

٧٩ أبو الحسن الخرقاني، نور العلوم، ص٢٤٧.

ﷻ، ومن بعد لا يرى الناسُ- وحتى الحيوانات والنباتات- من يد العاشق لله تعالى ولسانه وحاله ومقاله إلا الحسن والجمال والخير والنفع والفائدة.

لهذا نجد أن قلب المؤمن الكامل الذي وصل إلى ذروة محبة الله قد صار منبعًا للرحمة والرأفة تطمئن بها المخلوقات كلها.]

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«اللهم إني عبدٌ لك وخادمٌ لرسولك وللمؤمنين على كل حال»[٨٠]

«أعظم كرامة خدمة مخلوقات الله دون كلل أو ملل».[٨١]

[إن أولى ثمار الإيمان الكامل هي الرحمة، وأبرز مظاهر الرحمة خدمة المخلوقات في سبيل رضا الله تعالى.

فالله ﷻ خالق المخلوقات كلها وبيده أمرها، ومن يحب اللهَ، يحب مخلوقاته. وليس المقصود من المحبة هنا الكلام الفارغ الذي لا طائل وراءه؛ بل المحبة الحقيقية هي مشاركتك الحبيبَ همومه، والنظر في أموره، وإظهارك التضحية بالروح والدم في سبيله، ومقاسمة النعم التي بين يديك معه بكل ودٍّ ورضا.

وتبقى حقيقة المحبة ودرجتها مجهولة ما لم تتعرض هذه المحبة للشدائد والمشقات، وما لم تُبرهَن بالتضحيات المادية

---

٨٠ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦١٦.

٨١ نامي دانشفيران ناصري، جـ١، ٢٩٧.

والمعنوية. لهذا فإن التضحية وبذل الخدمات للمخلوقات ابتغاء رضا الله تعالى هي خير دليل على محبة الله سبحانه.

وقد جعل المولى ﷻ في كتابه الكريم الأنصارَ والمهاجرين أسوةً لنا، فقد انطلق الصحابة الكرام في أرجاء المعمورة في ظل تلك الظروف الصعبة التي كانوا يحيون فيها، وكابدوا عناء السفر الذي كان يستمر شهورًا آنذاك، فوصلوا إلى الصين وسمرقند من أجل خدمة دين الله سبحانه، فما تعبوا، ولا ملُّوا، ولا استكانوا. وكلما قدموا الخدمات في سبيل الله، أكرم الله قلوبَهم بالانشراح والسعة والبهجة والحماسة والطمأنينة، ولأنهم خدموا الأمة بمكابدتهم المشقات ابتغاء علاج همومها، أنزل المولى ﷻ رحماته عليهم، ووهبهم السعادة والسكينة في الدارَين.

وسنجد أن ما نبحث عنه في الواقع هو وصول أرواحنا إلى مثل هذه الطمأنينة والسكينة سواء أأدركنا ذلك أم لم ندرك، وهو كنز لا يمكن الفوز به إلا بالخدمات التي نؤديها مدركين أننا نتعبد بها المولى سبحانه.

والحق أنه ثمة سر عظيم في الخدمات الخالصة لوجه الله تعالى؛ إذ يتكفل سبحانه وتعالى بهموم من يخدم هذا الدين المبين، وينشغل بهموم العباد أجمعين. أما الأنانيُّون الذين جلُّ اهتمامهم قائم على همومهم ومصالحهم الشخصية فيتركهم المولى سبحانه يكابدون تلك الهموم وحدهم لا ناصر لهم ولا معين.]

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«كل صباح يطلع يود العالِم لو يزيد من علمه، ويتمنى الزاهد لو يشتد زهده؛ أما أبو الحسن فهمُّه إدخال السعادة والفرح على قلب أخيه».[٨٢]

[عن ابن عمر ﭭ، أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إلى الله، وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ:

«أحب الناس إلى الله ﷻ أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهرًا - أي في المسجد النبوي - **ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له ثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام».**[٨٣]

ويقول النبي ﷺ في حديث آخر:

«إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله على قضاء حوائج الناس».[٨٤]

يجب ألا ننسى أن القلوب محل نظر الله تعالى، وإحياؤها برعايتها والاهتمام بها وسيلةٌ لتنزل رحمات الله والفوز بمحبته، وفي كثير من الأحايين تكون مواساة قلب مكسور عند الله تعالى أفضل من كثير من النوافل.

---

٨٢ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦١١.

٨٣ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٨، ١٩١.

٨٤ البيهقي، شعب الإيمان، ١٠، ١١٦، رقم: ٧٢٥٣.

ويلخص لنا يونس أَمْرَه القيمة العظيمة لإحياء القلوب عند الله تعالى في عبارات جميلة يقول فيها:

«يا حاج» يقول يونس أَمْرَه
اذهب إلى الحج ألف مرَّة
لكن ما هو أكثر من ذاك خيرًا
إدخالك على القلب سرورًا

ويوضح الشيخ شاه نقشبند أن لإحياء القلوب مكانة لا مثيل لها في القرب من الله تعالى، فيقول:

«إن أولياء الله يتحمَّلون الناس وأعباءهم من أجل تحسين أخلاقهم. والقلوب كلها تحت نظر الله دون استثناء، سواء علِمَ صاحب القلب أم لم يعلم. ولهذا يتحمل الأولياء الناسَ كي يفوزوا بقلوبهم، فتكون وسيلة لنيل الفيوضات من النظر الإلهي في تلك القلوب».[٨٥]

ونخلص من هذا كله أن الإسلام يعلِّمنا- عبر التغلب على الهموم النفسانية- الطريقةَ التي نكون بها اجتماعيين نتحلى بالإيثار، ونحمل هموم الأمة، ونقدم الخدمات التي توصل القلوب إلى الطمأنينة؛ ويذكِّرنا بأن تفريج كربةٍ من كرب أخيك في الدين هو عبادة عظيمة تجعلك مستحقًّا لرضا الله تعالى. ولهذا يجب على المؤمن أن يضع في الحسبان دائمًا أنه محتاجٌ إلى أدعية خالصة صادقة من قلوب تبعث الطمأنينة والسكينة.

٨٥ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص١٠٠.

وتوضح هذه الحقيقة الحادثةُ التالية التي جرت مع الشيخ معروف الكرخي:

مرَّ معروف الكرخي يومًا بسقَّاء يقول: «رحم الله من يشرب»، وكان صائمًا صيام نافلة فتقدم، فشرب، فقيل له: «ألم تكن صائمًا؟» فقال: «بلى، ولكني رجوت دعاءه».

ورُئي في المنام بعد وفاته فقيل له: «كيف عاملك الله؟» فأجاب: «لقد غفر ربي لي ببركة الدعاء الخالص الذي دعاه السقاء، فعاملني برحمته».]

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«إن المؤمن الذي يخرج من بيته منذ الصباح حتى المساء دون أن يؤذي أي أخ له في الدين هو كمن يحيا بصحبة رسول الله ﷺ في ذلك اليوم، فإن آذى مؤمنًا فلا يقبل الله تعالى عبادته في يومه ذاك».[٨٦]

[يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]

نفهم من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا في كتابه الكريم أن نبينا ﷺ **«رؤوف رحيم»** بأمته. ولا ريب أنه ﷺ حريص أشد

٨٦ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦٢٨.

الحرص على أمته، فقد كان يهتم لأمرهم، ويشعر بألم عميق حين تصاب أمته بِشدَّة.

من أجل ذلك كله، يرى العارفون أن إيذاء فرد من أفراد أمة محمد هو جرم عظيم كإيذائه ﷺ.

وقد ورد في الحديث الشريف[٨٧] أن أعمال أمة محمد ﷺ تُعرض عليه بعد وفاته، فيُسرُّ حين يرى أعمال الخير ويحمد الله على ذلك، ويحزن حين يرى الذنوب فيستغفر الله تعالى لهم.

لهذا ينبغي عدم إيذاء أحد من أمة محمد ﷺ، والحرص على اجتناب الذنوب كي لا يحزن نبينا ﷺ.

ومن نصائح الشيخ (محمد لطفي ألوارلي أفا) وهو أحد العارفين الذين مُزِجت أفئدتهم بهذه الحقائق قوله:

٨٧ انظر: الهيثمي، جـ٩، ٢٤.

انطلق الصحابة الكرام في أرجاء المعمورة في ظل تلك الظروف الصعبة التي كانوا يحيون فيها، وكابدوا عناء السفر الذي كان يستمر شهورًا آنذاك، فوصلوا إلى الصين وسمرقند من أجل خدمة دين الله سبحانه، فما تعبوا، ولا ملُّوا، ولا استكانوا. وكلما قدموا الخدمات في سبيل الله، أكرم الله قلوبَهم بالانشراح والسعة والبهجة والحماسة والطمأنينة، فذلك الجيل المبارك كالمرآة البراقة الصافية التي يجب أن ننظر إليها دائمًا كي نقيس بها حالنا ونرى أين صرنا.

احذر، لا تؤذِ قلب أحد.

لا تؤذِ إنسانًا أسيرًا غريبًا باكيًا.

لا تؤذِ مهاجرًا لا حيلة له في طريق العشق.

لا تؤذِ قلبًا هو بيت الرحمن، واصبر على البلايا.

فإن كنت إنسانًا في الدنيا، فلا تؤذِ حيًّا.

لا تكن مذنبًا، لا تؤذِ فخر الكائنات...

والخلاصة هي أن المؤمن الكامل يحمل قلبًا هو محل نظر الله تعالى، ولا يمكن البتة أن يؤذي أو يضر أحدًا وهو مدرك لهذا الأمر، بل يسعى ليفيد كل امرئ وكل شيء على حسب استطاعته وقدرته المادية والمعنوية. ولا يكون حِملًا على أحد، بل يخفِّف حِمل الناس، وينشر الطمأنينة والرحمة حوله كل حين.]

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«يا رب، إني إن أسأتُ إلى الناس يبدِّلون طريقهم ما إن يروني، لكنك (صاحب الرحمة المطلقة) مهما أسأتُ إليك تبقى معي».[٨٨]

[إن الله سبحانه وتعالى يعفو عن أخطاء عباده الكثيرة وعيوبهم لأنه رحيم رؤوف غفور. ومع أنه قادر على إهلاكهم في اللحظة التي يعصونه فيها، إلا أنه يكرمهم بالتوبة، ويمهلهم كي يصلحوا من أنفسهم ولكن لا يهملهم.

٨٨ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦١٦.

ويعلِّمنا ربنا ﷻ في قرآنه الكريم أن نتخلَّق بأخلاقه عبر عرضه لنا صفاته الجمالية مثل: الرحمن، والرحيم، والستار، والغفار.

ويجب علينا نحن- المؤمنين- أن نسعى للتقرب من الله تعالى عبر أخذنا حظًّا وافيًا من تلك الأخلاق الإلهية على حسب طاقتنا وقدرتنا، وحياة رسول الله ﷺ- أسوتنا وهادينا- مليئة بالأمثلة التي لا تعد ولا تحصى في هذا الموضوع:

فها هو نبي الرحمة بدلَ أن يدعو بالهلاك على أهل الطائف الذين رجموه، دعا الله أن يشرِّفهم بالهداية.

كما أنه عفا حتى عن وحشي الذي قتل عمه حمزة، وهند التي دفعت به لقتله.

وقد عفا أيضًا عن هَبَّار بن الأسود حين أتاه مؤمنًا به، هَبَّار الذي كان ألد أعداء الإسلام، وهو الذي أوقع سيدتنا زينب بنت الرسول ﷺ عن الناقة حين كانت حاملًا، فمات جنينها، وكانت تلك الحادثة سببًا في وفاتها هي أيضًا بعد مدة من الزمان.

وأعلن العفو العام عن مشركي مكة الذين بالغوا في أذى المسلمين لسنوات طوال، مع أنه كان قادرًا أن يقتص منهم بالسيف أثناء فتح مكة.

وثمة الكثير الكثير من الأمثلة والصور الرائعة التي تبرز لنا عفوه ورحمته.

ويجب علينا نحن- عبادَ الله الذي يخبرنا عن ذاته في كثير من الأحيان باسمَيه الرحمن والرحيم، وأمةَ محمد ﷺ نبي الرحمة- أن نسعى لنحيا هذه الأخلاق الإلهية والنبوية، وأن نتحلى بالمسامحة والعفو كي يرضى الله عنا، ونغضَّ الطرفَ عن العيوب والأخطاء التي تقع علينا، ونكظم غيظنا، ونعدَّ كل واحدة من هذه الأخطاء امتحانًا من عند الله تعالى، ونحاول جاهدين أن ننال رضاه ﷻ عبر إظهار فضيلتَي الصبر والعفو.



ولكم هي حادثة معبرة في هذا الشأن الحادثة التالية التي جرت في عصر الرسول ﷺ:

فقد كان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره، ولكن حين كان مسطح من بين الذين افتروا على ابنته السيدة عائشة في حادثة الإفك، أقسم ألا ينفق على مسطح وأسرته شيئًا أبدًا، فساءت حال مسطح وأسرته، فأنزل الله تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤]

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي. ثم دفع كفارة اليمين واستمر في الإنفاق على مسطح.[٨٩]

ويقول ربنا عز وجل في آية أخرى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

وهذا يعني أن العفو عن عباد الله سبب لننعم بعفو الله عنا، لهذا السبب يجب علينا أن نجتهد كي لا نؤذي أحدًا، ولا نتأذى من أحد أملًا برضا الله تعالى عنا.

وما أعظم الحِكم الموجودة في الحادثة التالية التي كانت سببًا في تولية الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو وجهه شطر العرفان في سنوات شبابه:

كان الشيخ سامي أفندي قد أنهى دراسته بدرجة عالية جدًا في كلية الحقوق في دار الفنون، وكان في تلك الآونة يفكِّر في العودة إلى مدينته أضنة. وفي يوم من الأيام التقى بأحد أولياء الله في ميدان

٨٩ انظر: البخاري، المغازي، 34؛ مسلم، التوبة، 56؛ الطبري، تفسير، جـ2، 546.

بايزيد، فقال له الولي بعد أن تعرَّف عليه وأعجبه كثيرًا حال سامي أفندي:

« أتأذن لي أن أرشدك لتتعلم علمًا جديدًا؟» ثم أخذه إلى تكية «كلامي» في حي كوجا مصطفى باشا، وفي الطريق قال ولي الله ذاك:

«يا بني، إن علمك الظاهري الذي نلته لا يكفيك، فأوصيك بتحصيل العلم الأساسي الذي يوصلك إلى السعادة في الدارَين. وأول درس في مدرسة العرفان التي ستدخلها هو أن لا تؤذي أحدًا، وآخر درس من دروسها أن لا تتأذى من أحد البتة... أي لا تستاء من أحد أبدًا- مهما كانت الحال- وذلك بالنظر بنظرة الرأفة التي ينظر بها الخالق إلى مخلوقاته؛ وأن تصل إلى ذروة القدرة على العفو...»]

اللهم أكرم أفئدتنا بنصيب من هذا النضج المعنوي، واجعل سعادة قلوبنا وطمأنينتها في الرأفة بالمخلوقات والرحمة بهم ومحبتهم وخدمتهم من أجلك يا ذا الجلال والإكرام.

آمين!

أبو الحسن الخرقاني

رحمة الله عليه

-٢-

العلم المُقدَّم من جانب واحد وبصورة تنعدم فيها الروحانية هو علم ناقص، لأن توازن المادية والروحانية شرط في التعليم، ودون ذلك يمسي الإنسان كالطير يحاول أن يطير بجناح واحد، ويغدو لقمة سائغة أمام كل مفترس جائع.

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«لا يقدر الشيطان نفسه أن يسبب فتنة في الدين كتلك التي يسببها رجلان:

١. عالِم حريص على الدنيا.

٢. ومتزمت محروم من العلم»[90]

[من الضروري تكامل العلم والعمل والتقوى، كي يحيا الإنسان حياة عبودية صادقة عند الله تعالى. ومن العسير الحفاظ على الاستقامة في العبودية دون معرفة القرآن والسنة، ولكن المعرفة وحدها لا تكفي، بل من الواجب الوصول إلى التقوى بتطبيق القرآن والسنة.

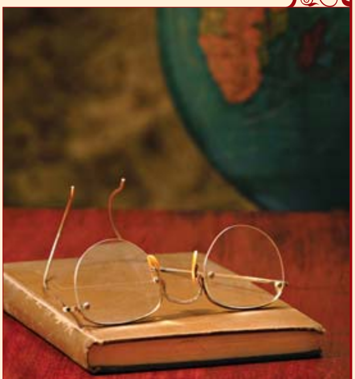
فالتقوى أشد القلاع تحصينًا وأقوى الدروع المعنوية التي تصون استقامة القلب من حيل النفس والشيطان ودسائسهما. وهي شعور إيماني يُلزِم الحذرَ من المحرمات وحتى المتشابهات خوفًا من فقدان رضا الله تعالى ومحبته، وفي الوقت ذاته يدفع العبد إلى أخذ الحلال بقدر الحاجة قلقًا من الحساب يوم توضع الموازين القسط.

٩٠ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦٢٤.

إن غاية العلم وذروته معرفة الله، أي «إدراك الله بالقلب». فالعبد الذي يدرك الله بالقلب تراه في الوقت ذاته يخشاه خشية تليق بعظمة المولى ﷻ الذي يقول في كتابه:

﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ [فاطر: ٢٨]

فهؤلاء العلماء الذين ورد ذكرهم في هذه الآية هم العلماء الأتقياء الذين وعوا وأدركوا «فناءهم» و«محويتهم» و«عجزهم» أمام الله تعالى بإدراكهم قدرته وعظمته ﷻ.



لهذا فإن علم العالِم الذي لا تجد مظاهر التقوى في أحواله وسلوكه لا يختلف البتة من حيث جوهره عن علم إبليس، فقد كان إبليس إيضًا ذا علم واسع، لكنه لم يستطع أن يحافظ على المكانة السامية التي كان يحظى بها عند المولى ﷻ بهذا العلم البعيد أشد البعد عن التقوى؛ بل على العكس تمامًا، فقد زادت أنانيته بأن دفعه علمه إلى الغرور والكِبر، فكان سببًا في حلول لعنة الله سبحانه عليه بعد أن وقع في الضلالة؛ أي إن إبليس جعل علمه رأسماله في الإفساد والإضلال. وهذا يعني أن العلم كالسيف ذو حدين، قد يجلب الفائدة أو الضرر على حسب حال صاحبه القلبية، وقد يكون أداة تُستعمل في الخير أو الشر.

والإنسان الذي لم يترقَّ قلبه في درجات الكمال بتقوى الله ومحبته ومعرفته وإخلاص العبادة له سيبقى ناقصًا مهما كان علمه؛ فالطبيب مثلًا قد يغدو- بدل أن يقدم العلاج للناس- جزَّارًا يتاجر بأعضاء الناس من أجل مصالحه الشخصية، وقد يمسي رجل القانون- بدل أن يحرص على العدل- زعيمًا لعصابة أو مدافعًا عن الظلم والظالمين. لذا فإن التحصيل الحقيقي للعلم لا يعني مجرد تخزين المعلومات في الذهن، فلكي يقدم العلمُ الفائدةَ للمرء في دنياه وعاقبة أمره، فمن الضروري أن يفوز قلبه بالدرجات العليا بعد التربية المعنوية، وينضج وجدانه وأخلاقه.

وغاية التصوف إنما هي الرقي بالاستعدادت القلبية عبر تزكية النفس، فصاحب النفس الأسيرة للشهوات يستسهل جعل العلم أداة لمصالحه الخاصة، والظلم الذي لا يستطيع الجاهل أن يرتكبه بجهله، يرتكبه بسهولة حين يعرف حيل العلم وألاعيبه.

وقد ذكر القرآن الكريم قصصاً معبرة كقصة قارون وبلعام بن باعوراء وأمثالهما ممن حادوا عن الطريق الحق، ولم يكن علة ذلك نقص علومهم، فقد كان هؤلاء أصحاب علم وافر، لكنهم لم يكونوا أصحاب «**تقوى**» في ما يعلمون.

وعن يزيد بن سلمة الجعفي رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إني قد سمعت منك حديثًا كثيرًا أخاف أن ينسيني أوله آخره، فحدثني بكلمة تكون جماعًا قال: «**اتق الله فيما تعلم**».[٩١]

٩١ الترمذي، العلم، ١٩/ ٢٦٨٣.

ولا يمكن للعبد أن يعلم كل شيء، لكنه حين يكون صاحب تقوى فيما يعلم، فإن ذلك سيكون وسيلة لميل فؤاده إلى الحق والخير بالكرم الإلهي في ما لا يعلمه، أو وسيلة ليعلم علمًا جديدًا. يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿... **وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**...﴾ [البقرة: ٢٨٢]

يقول المفسر القرطبي في تفسيره هذه الآية:

«وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علَّمه، أي يجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يُلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداءً فرقانًا، أي فيصلًا يفصل به بين الحق والباطل».[٩٢]

أي إن الله ﷻ يجعل نسمات الإلهام من الحكمة والحقيقة تهب على القلوب الطاهرة لعباده المؤمنين الذين يحيون حياة تقوى بمقتضى علمهم. أما من يجعل قلبه أسيرًا لشهوات الدنيا وأهواء النفس وملذات الحياة بابتعاده عن التقوى، فلا يمكن له أن ينجو بنفسه من الانجرار إلى الهاوية حتى لو كان من أرباب العلم.

يقول مولانا جلال الدين: «ثمة الكثير من العلماء ولكن لا عرفان عندهم، فقد حفظوا العلوم ولكنهم لم يكونوا من أولياء الله».

أي إن العلم الذي يُفتَرض أن يقرِّبهم من الله تعالى تحول إلى حجاب غفلة يزيد من بعدهم عنه سبحانه.

٩٢ القرطبي، جـ٣، ٤٠٦.

ولنا أن نوضح هنا أن من الأفكار الخاطئة التي تنتشر في مجتمعاتنا هذه الأيام فقدان مفهوم «العلم» لمعناه الحقيقي في الأذهان.

فالعلم من صفات المولى الثبوتية، فهو سبحانه وتعالى صاحب العلم المطلق الكلي، أي إن علمه يحيط بكل شيء كائن وسيكون، ولا يوجد شيء خارج عن علمه.

فأما العلوم الموهوبة للبشر، المادية منها والمعنوية، فما هي إلا جزء يسير من تجلي صفة الحق تعالى. والغاية الأساسية من تجلي هذه الصفة على الناس إنما هي إدراك العبد قدرة الله وعظمته على الوجه الصحيح، وبهذا يغدو لديه نظرة عبرة في كل شيء يراه أمامه، ويطَّلع على الحكمة في العلوم التي يقرؤها ويتعلمها.

وأما العلم اليوم فهو يقتصر على كشف القوانين المادية والظاهرية التي وضعها الله سبحانه في هذا الكون وإثباتها، فيتجاهل المرء أهم نقطة في الموضوع ألا وهي معرفة الله واضع هذه القوانين، فلا يرى المجتمع مظاهر الإبداع الإلهي، ولا يبلغ العلم في سعيه الحثيث إلى المبدع الحقيقي سبحانه وتعالى، وبهذا ينشأ مفهوم العلم الناقص.

يقتصر العلم اليوم- مع الأسف- على كشف القوانين المادية والظاهرية التي وضعها الله سبحانه في هذا الكون وإثباتها، فيتجاهل المرء أهم نقطة في الموضوع ألا وهي معرفة الله واضع هذه القوانين.

فالعلم المُقدَّم من جانب واحد وبصورة تنعدم فيها الروحانية هو علم ناقص، لأن توازن المادية والروحانية شرط في التعليم، ودون ذلك يمسي الإنسان كالطير يحاول أن يطير بجناح واحد، ويغدو لقمة سائغة أمام كل مفترس جائع.

من أجل هذا كله، يجب أن نربي أولادنا الذين هم أمانة كبيرة أودعها الله تعالى عندنا تربية متوازنة، وأن نزودهم بجناحَين لا



بجناح واحد؛ أي نربيهم ونعلمهم الأمور الدنيوية والأخروية في إطار توازن المادة والمعنى، والبدن والروح، والعقل والقلب. فمع تعلُّم أولادنا لمهنهم على أفضل صورة، يجب عليهم أن يفوزوا بالقيم الروحانية أيضًا، وينبغي أن يكون في المجتمع أطباء ومهندسون ومعلمون وعمال وأصحاب عمل وموظفون وإداريون يتحلون بالفضيلة، والتقوى، والصلاح، والأدب، والوجدان، والأخلاق.

وقد ترى آباءً وأمهاتٍ يقولون: «فليتعلم ولدي كي ينجو بنفسه» ولكنهم- مع الأسف- لا يبذلون الجهدَ في تعليم أولادهم المعنى الحقيقي للنجاة الذي هو النجاة في دار الخلود. فكَم من أسرة

متدينة تظن أن تحصيل العلم هو مجرد الحصول على شهادة دنيوية، وتفهم المعنى الحقيقي للأقوال المشهورة التي حثنا بها الإسلام على العلم كما تبغي، أقوالٌ وأحاديث وآيات مثل: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، «اطلبوا العلم ولو في الصين»، «موت العالِم موت العالَم»، (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)؛ لا بل تفهم مثل هذه الأسر العلم بصورة خاطئة حين تجدهم يرددون قولهم:

«فليتعلم ولدي، ولينهِ جامعته، ثم ليدرس الدراسات العليا، وليذهب إلى الخارج ليتعلم لغة أجنبية ويتعمق في اختصاصه، وليكن صاحب مهنة، وليجد عملًا براتب وفير، وبذلك يؤسس أسرته».

وحتى إنهم قد يتباطؤون عن التفكير في تعليمهم العلم الذي ينجيهم في الآخرة، وفي بعض الأحيان لا يفكرون به أبدًا.

وكان الشيخ سامي أفندي يوضِّح في مجالسه أن العلم الحقيقي هو إحساس القلب بقدرة الله تعالى وعظمته، ويذكِّر- بكل الوسائل- عِظم وشرف الوصول إلى هذا العلم. وفي يوم من الأيام أراد أحد الزائرين له أن يطلب الدعاء، والتعريف بأبناء أخيه، فدخل عليه وقبَّل يديه، وقدَّم أبناء أخيه قائلًا:

«يا شيخنا، هؤلاء هم أبناء أخي قد درسوا في الولايات المتحدة وصاروا مهندسين، ونودُّ منك أن تدعو لنا».

فقال له الشيخ سامي أفندي وعلى وجهه ابتسامة مليئة بالمعاني:

«والعبد الفقير أمامك قد تخرَّج في دار الفنون، لكن العلم الحقيقي هو معرفة الله».[٩٣]

ولأن الهموم المادية في مجتمعنا هذه الأيام تأتي على قائمة جدول الأعمال، فإننا نجد تجاهلاً للسموم التي تنتشر فتصيب روحانية أبنائنا.

ولا نجد اليوم أحدًا يتساءل: «هل سيأخذ ابني وابنتي العلم في جوٍّ يرضى عنه الله سبحانه، أم سيدخل وَسطًا يختلط فيه الجنسان فتتعكر أحاسيسهم المعنوية وتفسد؟» ولَكَم يؤسفنا أن نجد أُسَرًا مسلمة كثيرة في أيامنا تسدر في غفلتها هذه، إنما هذه الأُسَرُ كجذوع الأشجار التي يجرفها السيل حين يصطدم بها.

وتخضع أغلب الأجيال لتربية يجهل نتيجتها الكثير، فهم لا يتساءلون لمَ أتينا إلى هذه الدنيا؟ ولماذا سنتركها بعد حين؟ وكيف سيكون حالنا في القبر وما بعده؟ وهذي الأدمغة الشابة التي تعتقد أنها تؤدي عملًا ذا قيمة عند الله تعالى بانشغالها بالعلم تبقى غافلة عن فحوى العلم الحقيقي الذي مدحه القرآن الكريم.

نعم، حثَّنا القرآن على أن نكون من «العالِمين» حين قال ﷻ:

﴿...هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...﴾ [الزمر: ٩]

٩٣ مصطفى أريش، ذكريات مع محمود سامي أفندي، جـ١، ٢٠-٢١.

لكنه سبحانه وتعالى ذكَر لنا في بداية الآية نفسها ثلاث خصال للعالِمين بالمعنى المقصود، أي أصحاب «العلم» الحقيقي الأصيل، وتلكم الخصال هي:

١. القنوت آناء الليل سجودًا وقيامًا.

٢. الحذر من الآخرة. (السعي للنجاة في دار الخلود، إذ لا أحد يضمن إيمانه لحظة خروج نَفَسه الأخير سوى الأنبياء والمُبشَّرين).

٣. رجاء رحمة الله تعالى. (الحياة في حال يستمر فيها الدعاء والالتجاء، فأدعيتنا كأعمالنا الصالحة كلها بحاجة إلى قَبول الله سبحانه وتعالى).

ولا ريب أننا ما جئنا إلى الدنيا إلا كي نفوز بالآخرة، ويُعلِمنا المولى ﷻ أن العلم وسيلةٌ نعرف بها ربنا العلي القدير، وإعدادٌ للآخرة التي هي حياتنا الحقيقية. والغاية الأساسية للعلم التي يكون للعبد بها قيمة عند مولاه هي معرفة هذه الحقائق والعيش بمقتضاها؛ أي إن غاية العلم ليست مجرد كسب منصب دنيوي أو جني منفعة مادية، أو نيل راحة وسلطة، لأن حياة الدنيا الفانية هي مرحلة قصيرة في رحلتنا نحو الحياة الأبدية. فمع عدم نسيان نصيبنا من هذه الدنيا، يجب علينا أن لا ننسى أننا هنا من أجل الفوز في الآخرة، وأن لا نبقى غافلين عن العلم الذي يضمن لنا سعادتنا وسلامتنا في دار الخلود.

وكم من شابٍّ متعلم مثقف نراه اليوم قد تخرج وأنهى الدراسات العليا، لكنه- مع الأسف- لا يعلم شيئًا عن القرآن والسنة؛ بل تراه يظن أن علمه الذي بين يديه هو العلم نفسه الذي أثنى الله عليه ورسوله. لذا فإن العلوم التي لا ترتقي بتفكير الإنسان وقلبه إلى الله تعالى ولا توصله إلى إدراك قدرته سبحانه وعظمته الإلهية قد تجعل منه صاحب منصب وهيبة في الدنيا، لكنها لا تنجيه في موقف عصيب في دار القرار.

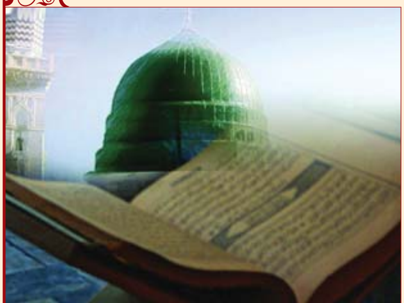
ومثل هذه الجهود المبذولة في سبيل تحصيل مثل هذه العلوم الدنيوية هي كحال المرء حين يلقي جوهرة في القمامة، حال مؤسفة يكابد فيها الحزن والأسى. لذا من الضروري فهم هذه الحقيقة قبل فوات الأوان، والسعي لتحصيل العلم بالصورة المقبولة عند الله تعالى.

ومن الواجب حين نتعلم العلوم الدينية أن نهتم قبل أي شيء بالتقوى والتربية المعنوية التي توصل القلب إلى درجة روحية سامية ، فما يجعل العبد مقبولًا عند الله تعالى هو التقوى في قلبه، لا العلوم التي يتبارى بها أمام أقرانه ولا الشهادات أو الإجازات التي يتفاخر بها على من حوله.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«ثمة الكثير من العلماء ولكن لا عرفان عندهم، فقد حفظوا العلوم ولكنهم لم يكونوا من أولياء الله».

إن العلم المجرد عن التقوى هو علَّة ظهور «مخربي الدين ومحرِّفيه» تحت اسم «علماء الدين»، فأمثال هؤلاء يرون الأحكام والحقائق الإلهية بناءً على همومهم الدنيوية والنفسانية، ويطمعون في النفسانيات مثل الثروة والشهوة والشهرة، فيفتقدون في فتاويهم «مراعاة الكتاب والسنة» فتجدهم أقرب إلى منافعهم ومصالحهم الخاصة. ويجدون فرصة في انتشار الجهل الناتج عن نقص العلوم الدينية في المجتمع، فيضعون حكمًا دينيًا خاطئًا في كل عشرة أحكام صحيحة، وهذا ما يُخرِّب الأحكام الدينية. وفوق ذلك كله يفسدون إيمان المجتمع باسم خدمة العلم.



ويشهد التاريخ أن علماء الدين البعيدين عن التقوى لم يترددوا في تأويل أحكام الدين وفقًا لمصالحهم. فلكي ينالوا رضا أولئك الذين يأملون منهم المنافع والمصالح، انحطوا إلى درجةٍ جعلت رضا هؤلاء قبل رضا الله تعالى. ولا يخفى على أحد حين ينظر إلى تاريخ الأديان أن تحريف اليهودية والنصرانية كان على هذه الصورة.

لكننا نرى في التاريخ أيضًا علماء أتقياء حموا الدين وذادوا عن حياضه، ولم يقدموا أي تنازلات في الأحكام الدينية حتى لو كان ثمن ذلك أرواحهم.

فلقد كُلِّف الإمام أبو حنيفة وهو من كبار فقهاء الإسلام بقضاء بغداد الذي كان يعد أعلى منصب بعد الخلافة آنذاك، لكنه رفضه لأنه كان يعلم أن ذاك سيكون وسيلة لإصدار الفتاوى التي يرغب بها الظلمة ممن في يدهم مقاليد الحكم. فكان جزاء رفضه منصب القضاء أن سُجِن وجُلِد، ومع ذلك كان الإمام أبو حنيفة راضيًا بذلك كي لا يكون وسيلة للتلاعب بالأحكام الدينية. واليوم نجد أن أولئك الذين ظلموا الإمامَ قد هلكوا، لا بل أغرق أسماءَهم لجُّ النسيان، أما الإمام أبو حنيفة فهو اليوم حيٌّ في الأفئدة إمامًا أعظمَ لأهل السنة والجماعة، وما زال يُذكَر بالخير ويُدعى له.

من أجل ذلك كله، نجد أن سلامة الدين والدنيا وأمنهما منوط بعدم تقديم العلماء الذين يرشدون الناس أي تنازلات في الحقائق الإلهية، وبعملهم بعلمهم، وعيشهم على أساس التقوى حتى لو كلَّفهم ذلك حياتهم. أما نحن، فيجب علينا أن نراعي بدقة المصدرَ الذي نأخذ منه علومنا الدينية، فنسعى جاهدين كي نأخذ الفيوضات والمعارف عمَّن استقام من العلماء الصالحين العارفين.

فعن القاضي شُريح، أنه كتب إلى عمر ﵁ يسأله، فكتب إليه:

«أن اقضِ بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله، فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم يكن في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ، فاقض بما قضى به الصالحون...»[٩٤]

٩٤ النسائي، القضاة، ١١/ ٣.

ويجب أن لا ننسى البتة أن العاقبة هي الخسران لمن لديه علم دون عمل، أو لمن لديه علم وعمل لكن ينقصه الإخلاص والتقوى.

ويصف المولى ﷻ في القرآن الكريم أولئك العلماء الذين لا يعملون بعلمهم بل يجعلونه وسيلة لكسب منافعهم النفسانية بقوله ﷻ:

﴿...**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**...﴾[الجمعة: ٥]

ويتوعد الذين يعملون بغفلة ويبتعدون عن الإخلاص والتقوى بـ «**الويل**».[٩٥]

وحين نرجع إلى قول الشيخ أبي الحسن الخرقاني في البداية- عندما ذكرَ أن سبب الفتنة في الدين هم «**المتزمتون الجهَّال**»- لا بد أن نذكر بادئ ذي بدء أن التصوف الحقيقي تربية معنوية لا مناص منها إذا أراد العبد تطهير قلبه وجعله مقصورًا على الله ﷻ وحده.

والتصوف هو مجاهدة النفس مجاهدةً لا هوادة فيها كي يتطهر العبد من السلوك والأحوال التي تُبعِده عن ربه سبحانه، وهو السعي للعيش وفق تعاليم القرآن والسنة في إطار التقوى.

وقد يلحق الضرر ببعض الذين لديهم علوم دينية ضعيفة بتأثرهم بأولئك المتزمتين الذين يظنون أنهم يحيون في إطار «التقوى» وهم

٩٥ انظر: الماعون، ٤-٦.

بعيدون أشد البعد عن معنى التصوف. فأثناء السير والسلوك- أي رحلة التربية المعنوية- تبدأ الكشوفات والإلهامات والأحاسيس بالظهور في القلب نتيجة الرياضات والمجاهدات وبعض الممارسات الروحية التي يؤديها المرء في رحلته هذه، ولكن هذا كله ليس المقصود الأساسي؛ بل هي أوهام وخيالات لا بد من تجاوزها، حينها تظهر الحاجة إلى مرشد كفء كي يميز للمريد أرحمانية هي أم غير رحمانية. فالمرشد الكامل هو من يوصي المريدين ويحافظ على استقامتهم بتحليله مثل هذه الكشوفات في إطار ما يراه في القرآن والسنة.

ولكن قد يقع بعض المتزمتين دون علم في مصيدة النفس والشيطان حين يصادفون مثل هذه الكشوفات، لا سيما إن لم يكونوا قد أدركوا معايير الاستقامة في الكتاب والسنة إدراكًا تامًّا، أو كانوا محرومين من مرشد كامل يرشدهم بالمعايير الشرعية. وقد

إن العلم المجرد عن التقوى هو علَّة ظهور «مخربي الدين ومحرِّفيه» تحت اسم «علماء الدين»، فأمثال هؤلاء يرون الأحكام والحقائق الإلهية بناءً على همومهم الدنيوية والنفسانية، ويطمعون في النفسانيات مثل الثروة والشهوة والشهرة، فيفتقدون في فتاويهم «مراعاة الكتاب والسنة» فتجدهم أقرب إلى منافعهم ومصالحهم الخاصة.

لهذا السبب نجد أن العاقبة هي الخسران للعالِم الذي لديه علم ولكنه يخلو من العَمل والتقوى.

يبدؤون بتلقين من حولهم ما يحتمل الصواب والخطأ، وقد يؤوِّلون الآيات والأحاديث ويفسرونها وفقًا لعلمهم الناقص، وذلك بظنهم أنهم قد وصلوا إلى الكمال حين رأوا بعض الإشارات المعنوية. إن أمثال هؤلاء الجهَّال قد يُخرِجون- دون أن يدركوا- أتباعهم عن الصراط المستقيم بظنهم أنهم يرشدونهم.

وانطلاقًا من هذه الحقيقة كانت من إحدى نصائح الشيخ عبد الخالق الغجدواني لمريده:

«لا تبتعد أبدًا عن العلم، وتعلَّم الفقه والحديث، وتجنب المتزمتين الجهَّال فأولاء هم الذين يفسدون طريق الدين ويقطعون الطريق إلى الإسلام».

وقد تجد عند بعض المتزمتين الجهال استعدادات وإمكانات تخرق العادات، إذ يكون بعضهم قادرًا مثلًا على قراءة الأفكار التي تدور في ذهنك، وقد يطَّلع بعضهم الآخر على أسرار كثيرة باستعمالهم الخدَّام من الجن، ويمكنهم أن يجعلوا المخاطَب يعتقد أن ذلك جزء من التصرف المعنوي، وقد يقول الجهال من الناس:

«إن لدى هذا الإنسان كشفًا، لقد علِمَ ما في صدري».

وقد تأخذ هذه الأحوال الغريبة- مثل الإحساس بالشي قبل وقوعه أو معرفته- شكلَ امتحان إلهي لبعض العباد، ومثل هذه الأحاسيس قد تكون صائبة أو كاذبة خاطئة.

ويروي لنا القرطبي حادثة في موضوع الغيب فيقول:

روي أنه دخل على الحجاج[٩٦] منجِّمٌ فاعتقله الحجاج، ثم أخذ حصيات فعدهن، ثم قال: كم في يدي من حصاة؟ فحسب المنجم ثم قال: كذا، فأصاب. ثم اعتقله فأخذ حصيات لم يعدهن فقال: كم في يدي؟ فحسب فأخطأ ثم حسب فأخطأ، ثم قال: أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها، قال: لا. قال: فإني لا أصيب. قال: فما الفرق؟ قال: إن ذلك أحصيته فخرج عن حد الغيب، وهذا لم تحصه فهو غيب:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].[٩٧]

إن هذه الحادثة خير مثال لقدرة بعض الناس على قراءة ما يجول في الأذهان، وهذا يعني أنه ليس من الضروري أن يكون صاحب مثل هذه القدرة ذا مقام معنوي، فالروحانيون من الهنود يستطيعون عرض بعض من خوارق العادات مثل السير على النار بعد تطبيق مجموعة من الممارسات الروحية.

ويقول الشيخ أبو يزيد البسطامي في هذا الموضوع: «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى تربع في الهواء فلا تغتروا به

٩٦ توفي سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م.

٩٧ انظر: القرطبي، الجامع، جـ١٣، ٢٢٦.

حتى تنظروا كيف تجدوه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة. [وإلا فإن حاله ليست كرامة بل استدراج[٩٨]]»[٩٩]

ولكن مع الأسف يبقى الكثير من الناس تحت تأثير مثل هؤلاء الأشخاص لأنهم ليسوا على درجة كافية من العلم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ولهذا تنتشر الخرافات والبدع والأفكار والممارسات الخاطئة من المنظور الشرعي بين الجاهلين، وتبدو مقبولة لديهم وكأنها من لوازم الدين. وهذا هو السبب أيضًا في فساد بعض الطرق عبر التاريخ وخروجها عن الاستقامة.

من أجل هذا كله، يجب أن نضع في أذهاننا دائمًا وصية الرسول ﷺ حين قال:

«إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».[١٠٠]

٩٨ **الاستدراج** هو عكس الكرامة، وهو الخوارق للعادات التي تظهر من الكافر والفاسق والمتمشيخ، أي الشخص الذي يتظاهر بالولاية. وهذه الأحوال إنما هي امتحان إلهي يأخذهم شيئاً فشيئاً إلى الهلاك.

٩٩ البيهقي، شعب، جـ٣، ٣٠٤؛ القشيري، الرسالة، ص٥٨.

١٠٠ أبو داوود، سنن، ٥/ ٤٦٠٧؛ الترمذي، العلم، ١٦.

وهذا يعني أنه لا يمكن للمرء أن يحيا حياة تصوف دون القرآن والسنة، فحين يكون علمه الديني ناقصًا ويظن أنه يعيش حياة ملؤها التقوى، فقد ينطق بكلام مخالف للكتاب والسنة، وينجر إلى سلوك وأحوال خاطئة، ويعطي فتاوى ضالة، وهذا ما يحمله ومن يتبعه إلى الهلاك الأبدي. ويلخص هذه الحقيقة القول الشائع على ألسنة الناس: «نصف العلم أخطر من الجهل».

ويجب علينا أن نعلم جيدًا أنه حتى كشوفات أولياء الله العظام وكراماتهم لا يمكن أن تكون صحيحة مطلقة قطعية كالوحي، بل تأخذ مكانة عندنا بعد أن تمر من مصفاة القرآن والسنة.

وكان الشيخ سامي أفندي كثيرًا ما يذكر في مجالسه النفس المُلهَمة التي تعد مرحلة مهمة في طريق التقوى، وكان يقول:

«النفس المُلهَمة مرحلة يبدأ فيها المرء التفريق بين الخير والشر، بيد أنه لا يضمن حاله حتى يصل إلى النفس المطمئنة، فالإلهامات في النفس المُلهَمة قد تكون ربانية تارة، وقد لا تكون تارة أخرى».

ويقول الإمام الرباني في هذا الأمر:

«الأحوال المعنوية منوطة بالشريعة، لا بأحوال الشريعة. لأن الشريعة قطعية سالمة، وصحتها بالوحي ثابتة، أما الأحوال فهي ظنية ثابتة بالكشف والإلهام».[١٠١]

---

١٠١ انظر: الكشمي، بركات، ص١٩٧-٢١٢؛ أب الحسن الندوي، الإمام الرباني، ص١٨٢-١٨٨.

لهذا السبب نرى أن الوظيفة الأساسية الملقاة على عاتقنا هي السعي للعيش باستقامة وفق منهج القرآن والسنة في الضرورات واللوازم الدينية على أقل تقدير، وهذه الوظيفة واضحة في الآية الكريمة التي يقول فيها المولى ﷻ:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

ولا ننسى أن رسول الله ﷺ هو «**الأسوة الحسنة**» لنا في كل أمر، فيجب علينا إذًا أن نجعله قدوتنا في كل صفحة من صفحات حياتنا، وينبغي- بأخذ نصيبنا من نسيج فؤاده- أن نستمع بأذن صاغية إلى مواعظ أولياء الله والعلماء والعارفين من أهل التقوى الذين يسيرون على خطاه ﷺ بمنتهى الدقة.



﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]

ويجب علينا أيضًا أن نصون أنفسنا من الآراء الخاطئة والفتاوى الضالة المضِلَّة لأولئك الذين لا يعلمون القرآن والسنة، أو يعلمونهما ولكنهم لا يحيونهما.

وعلينا أن لا نتَّبع من لا يتَّبع في أحواله ومعاشه رسولَنا الكريم ﷺ، وأصحابه الكرام، والسلف الصالح، وأولياء الله.]

اللهم اجعلنا ممن ترضى عنهم في العبودية ويسِّر لنا ذلك، واجعل أفكارنا وأحاسيسنا وأعمالنا وأحوالنا وسلوكنا موافقة لرضاك عنا يا ذا الجلال والكمال.

آمين!

أبو الحسن الخرقاني

رحمة الله عليه

-٣-

إن نغمات البلبل الصادرة من قلبه الصغير، وزقزقة العصافير، ولقلقة اللقالق هي بالنسبة لعباد الله العارفين مظاهر «ذِكرٍ» مليئة بالمشاعر والأحاسيس.

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«أحسن الأشياء وأعظمها قلب يذكر الله تعالى على كل حال».[١٠٢]

[إن كل مخلوق في هذه الدنيا- أكان في السماوات أو الأرض- يذكر الله تعالى، وهذه حقيقة يوضحها المولى ﷻ في الآية الكريمة التي يقول فيها:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]

لذلك فإن نغمات البلبل الصادرة من قلبه الصغير، وزقزقة العصافير، ولقلقة اللقالق هي بالنسبة لعباد الله العارفين مظاهر «ذِكرٍ» مليئة بالمشاعر والأحاسيس.

وخير دليل على هذه الحقيقة قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أحد كبار الصحابة والذي تربى في ظل التربية النبوية:

«ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل».[١٠٣]

---

١٠٢ ملاّ جامي، نفحات الأنس، ص٤٤٤.

١٠٣ انظر: البخاري، المناقب، ٢٥.

وذات يوم خرج الشيخ عزيز محمود هُدائي- وهو أحد أولياء الله- ليقطف وردة لمعلِّمه، فسمع تسبيح تلك الورود، فما جرؤَ على قطفها، ولم يجد إلا وردة مكسورة الساق قد انتهى ذكرها لله تعالى فأخذها كي يقدمها. أي إن النظام الإلهي في الكون يُوجِب نهاية عمر الكائنات التي تتوقف عن الذكر، ما عدا الإنس والجن. وهذا يعني أن الحياة الحقيقية للأحياء التي خلقها المولى ﷻ هي الحياة المليئة بفيوضات الذكر وبركاته، لذا فإن القلب الغافل عن الله تعالى قلب ميت في الحقيقة ولو كان في الظاهر حيًّا.



ويقول الشيخ سامي أفندي عن الأهمية الحياتية للذكر في القلوب:

«صاحب الحياة الحقيقية هو صاحب القلب الحي، لأن القلب بيت الله تعالى (أي محل نظره سبحانه). فإن لم تفض من ذلك القلب محبة الله وذكره ، فذاك قلب ميت...»[١٠٤]

إن «ذكر الله» هو خير علاج لقلب ابتُلي بالغفلة والقسوة، يقول المولى ﷻ في الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]

١٠٤ محمود سامي أفندي، سيدنا يوسف، ص٢٦.

ولا بد لنا أن نذكر من جانب آخر أنه من السهل الذكر باللسان فقط، غير أن ما يريده ربنا ﷻ من عباده هو القلب الرقيق الحساس العارف الممتلئ بفيوضات الذكر الذي يحيا شاعرًا ومدركًا أن الله معه كل حين.

وكان الشيخ أسعد أربيلي يوصي أبناءه المريدين بأن يكونوا في مثل هذه الحال من الذكر، وأن ينتشر الذكر في كل ذرة من ذرات البدن ولا ينحصر في القلب واللسان فقط، ويقول في هذا الأمر:

«كما أنه من الضروري على الإنسان حين يتطهر أن يغسل كل جزء من بدنه، فكذلك الحال مع من يريد تطهير قلبه، إذ يجب عليه أن يذكر الله بكل لطائفه وبكل ذرة من ذرات بدنه».[١٠٥]

«كم أرجو الله أن يُنير عيون قلوبكم! وكما أنه في كل ذرة من الوردة يوجد ماء الورد، أدعو الله سبحانه أن يزيِّن كل ذرة من أبدانكم برائحة المحبة والذكر الدائم؛ آمين...»[١٠٦]

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم مبيِّنًا أنه معنا كل حين:

﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾ [الحديد: ٤]

﴿...وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]

﴿...وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ...﴾ [الأنفال: ٢٤]

١٠٥ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٤٠، رقم: ١١٢.
١٠٦ محمد أسعد أفندي، مكتوبات، ص١٠٠، رقم:٦٩.

لذا لا يمكن لمؤمن أدرك هذه الحقيقة أن يبقى البتة غافلًا عن ربه ﷻ.

ولَكَم هي مليئة بالحِكم الحادثة التالية التي جرت مع الشيخ شبلي:

فقد كان أحد الواعظين واقفًا على المنبر يوضِّح للناس أحوال الآخرة، وكان بين الجالسين الشيخ شبلي، فتكلم الواعظ عن الأسئلة التي سيوجِّهها المولى ﷻ لعباده في الآخرة قائلًا:

«يُسأل المرء عن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن عمره فيمَ أفناه، وعن عباداته كيف أدَّاها، وعن مراعاته للحلال والحرام...»

ثم قال: «وسيُسأل عن كذا وعن وكذا...» وعدَّ أمورًا مهمة جدًا. ولكن مع كل هذه الإيضاحات والتفصيلات، لم ينبِّه الناس إلى جوهر المسألة كلها، فقال له الشيخ شبلي بأسلوب لطيف:

«يا شيخي الواعظ، لقد نسيت سؤالًا في غاية الأهمية؛ إن الله تعالى- باختصار- سيسأل عبده:

(يا عبدي، لقد كنتُ معك، وكنتُ أقرب إليك من حبل الوريد، فمعَ من كنت؟)»

يقول الشيخ شبلي:

إن الله تعالى- باختصار- سيسأل عبده [يوم الحساب]:

«يا عبدي، لقد كنتُ معك، وكنتُ أقرب إليك من حبل الوريد، فمعَ من كنت؟»

لذلك فإن من الأمور المهمة في العبودية الصادقة أن يجتهد العبد للترقي إلى المعية القلبية مع ربه ﷻ، فالمُحب لا ينسى حبيبه، بل يذكره كثيرًا. ونحن نرى أن الإنسان في حياته الدنيوية النفسانية أكثر ما يذكره هو ما يحبه حبًّا جمًّا، مثل الأولاد والمال والتجارة وما إلى ذلك. وهذا المعيار كالمرآة التي يرى فيها المؤمن محبته لله سبحانه.

ويجب أن نسأل أنفسنا:

كم هي نسبة تعلق قلوبنا بالمُمتِعات المؤقتة في هذه الحياة الفانية؟ وكم هي نسبة شوقنا ومحبتنا للمولى ﷻ الذي خلقنا من عدم، وجعلنا أشرف مخلوقاته ورفعنا إلى القمم، ورزقنا بما لا يعد ولا يحصى من النِعم؟

وما أعظم المعاني في قول المفسِّر إسماعيل حقِّي بورصوي في هذا الموضوع:

« فيربي الإنسان، تارةً بأطواره وفيض قوى أنواره في أعضائه، فسبحان من أسمع بعظم، وبصَّر بشحم، وأنطقَ بلحم، وأُخْرَى بترتيب غذائه، في النبات بحبوبه وثماره، وفي الحيوان بلحومه وشحومه، وفي الأراضي بأشجاره وأنهاره، وفي الأفلاك بكواكبه وأنواره، وفي الزمان بسكونك، وتسكين الحشرات والحركات المؤذية في الليالي، وحفظك وتمكينك من ابتغاء فضله بالنهار، فيا

هذا يربيك كأنه ليس له عبد سواك، وأنت لا تخدمه أو تخدمه كأن لك ربًّا غيره».[١٠٧]

إن الفؤاد المفعم بمحبة الله تعالى لا يحب إلا ما يحبه الله، ولا يميل إلا لمراد الله، فيتمسك بما يقربه من الله ويهجر ما يجافيه عن رضاه سبحانه، حتى يرى فيوضات معيةالله سبحانه عيانًا. وكما أن العدسة تجمع حزم الضوء من الشمس في نقطة فتحرق بها القشة وتحولها إلى رماد، فكذلك هو حال القلب الذاكر لله تعالى دائمًا، إذ يصونه الذكر من أنواع الفسق والفجور التي تبعده عن المولى وتصونه مما سواه ﷻ.

وليس للمرء قدرة الوصول إلى هذه النتيجة بسهولة، بل هي منوطة بعبودية عظيمة يقدر بها على مراعاة أوامر الله كلها الظاهرة منها والباطنة، والحذر أشد الحذر من نواهيه سبحانه الظاهرة والباطنة؛ وحين يصل المرء إلى مثل هذا النضج في العبودية، تغدو مرضاة الله تعالى سلوكًا وحالًا دائمة له.

من أجل ذلك كله، نجد أن نسبة استقامة القلب مرتبطة بنسبة معيته لربه ﷻ، والعكس هو الصحيح، أي إن نسبة ابتعاده عن سبيل الحق والحقيقة متعلقة بنسبة نسيانه ربه. فالغاية والأساس إذًا هو الوصول إلى درجة قلبية سامية بذكر الله ومحبته.

---

١٠٧ روح البيان، جـ1، 13.

عن أبي الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**كان من دعاء داود** ﵇: **اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد**».[١٠٨]

إن الله سبحانه وتعالى هو من يُكرِم قلوب عباده بمحبته، فهو الواهبُ عشقَه ومحبته لقلوب عباده الذين يحبهم.

لذلك يجب علينا أن نسعى جاهدين كي نصل إلى حال يحبنا فيها الله تعالى وذلك بالسعي إلى الاقتراب مما يحبه ﷻ، وبالأعمال الصالحة، وبحمده وشكره وذكره دائمًا؛ لا بل يحب علينا أن ندعوه ونلتجئ إليه كي نصل إلى هذه الحال.



وما الأوقات التي نمضيها في حياتنا بغفلة ونحن بعيدون عن مثل هذه النية والسعي والاشتياق إلا صفحات ذهبية من صفحات عمرنا نضيِّعها ونرميها. وتلك الأزمنة التي نمر بها ولا نذكر الله تعالى هي بمثابة نيران الندامة التي ستحرق أفئدتنا في دار الخلود...]

١٠٨ الترمذي، الدعوات، ٧٢/ ٣٤٩٠.

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«يغمر قلوب أولياء الله تعالى حزن عميق حين لا يجدون أنفسهم عاجزين عن ذكر الله تعالى على الحال التي تليق به سبحانه».[١٠٩]

[إن القدرة على إدراك عظمة مقام الحق سبحانه وتعالى واستشفاف كماله الذي يفوق الخيال، ثم القدرة على أداء العبودية بصورة تليق بعظمته ومجده أمران يفوقان طاقة البشر. لهذا السبب يجب على المؤمن، إضافة إلى بذل جهده في سبيل معرفة الله وعبادته، أن يرى أعماله دائمًا ناقصة قاصرة، ويجب أن يبتهل إلى الله سبحانه كي يعفو عن نقص هذه العبادات ويقبلَها بلطفه وكرمه، وهذا ما يقتضيه أدب العبودية أمام المولى جل شأنه.

فرسول الله ﷺ الذي خلقه المولى ﷻ إبداعًا تجلى في البشر، وجعله هدية للبشرية بأن جعله أسوة حسنة ، كان يستغفر ربه في اليوم سبعين مرة- وفي رواية أخرى مئة مرة- مُقِرًّا بعجزه وقصوره دائمًا أمام المولى، فيقوم الليل حتى تتورم قدماه، ويبكي في صلاته رهبة من الله تعالى؛ كل ذلك وهو الذي غفر الله له ذنوبه كلها ما تقدم منها وما تأخر.

يقول الله سبحانه في كتابه الكريم دون أن يضع حدًّا للذكر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]

---

١٠٩ الخرقاني، نور العلوم، ص٢٤٨.

لذلك فإن أولياء الله- امتثالًا لأمر الله تعالى وتأسيًّا برسول الله ﷺ- يذكرون الله ذكرًا كثيرًا ولكنهم يعلمون- مهما ذكروه سبحانه- أن هذا الذكر كله كأنه «لا شيء» أمام عظمته وجلاله سبحانه، فيسعون لزيادة بذلهم في الدين.

لأنه كلما زادت مشاعر العبد القلبية وأحاسيسه، زاد إدراكه لعظمة ربه. لذلك فإن من علامات الغفلة أن يرى العبد الذكر والعبادة القليلة عظيمةً وكثيرةً.]

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«لا تجالسوا أهل الدنيا وأنتم تذكرون اسم الله ﷻ حتى لا يختلط ذكره بكلام الدنيا».[١١٠]

[إن المقصود من ذكر الله تعالى هو أن يكون الله سبحانه حاضرًا في قلب العبد؛ أي حين ينشغل اللسان بلفظ أسماء الله، يجب على الفؤاد أن يوجه تركيزه كله نحو الله تعالى. فلكي ينال المرء فيوضات الذكر وبركاته، لا بد له أن يكون في حال يدرك فيها دائمًا ما يقوله اللسان الذي يصدِّقه الفؤاد.

و حينئذ لا يمكن لأي عمل فانٍ أو نفساني أو دنيوي أن يشغل العبد العاشق عن مولاه ﷻ؛ لهذا السبب يجب أن لا يقتصر الهدف الأسمى في قلب كل مؤمن على عدم الغفلة عن الله تعالى أثناء

١١٠ ملاّ جامي، نفحات الأنس، ص٤٤٤.

الذكر، بل يجب أن يبقى القلب مع الله حتى خارج مجلس الذكر ولو كان العبد في مشاغل دنيوية، ومعه سبحانه قلبًا حتى لو كان يتعامل مع الناس.

ولَكم هي قصة غنية بالعِبر القصة التالية مع الشيخ الكبير الإمام البركوي الذي عاش في عهد العثمانيين:

فذات يوم رأى الإمام البركوي أن الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام آنذاك لم تكن صوابًا، فأتلف الورقة التي كُتبَت عليها الفتوى. وحين علِم شيخ الإسلام بالأمر، دعا الإمام البركوي.

وحين دخل الإمامُ دار الفتوى، كان شيخ الإسلام قائمًا يصلي، لكن الإمام ألقى السلام على شيخ الإسلام وهو في صلاته، ثم جلس في أحد أركان الدار. وبعد أن أنهى شيخ الإسلام صلاته قال للإمام وقد زادت دهشته وحيرته:

«يا أخي، لم يكفك إتلاف فتوانا، لا بل إنك في غفلةٍ جعلتك تلقي السلام على مُصلٍّ دون أن تُفكِّر أنه لا يجوز ذلك».

فأجابه الإمام البركوي بهدوء:

«كلامك صواب، ولكنني لم أُسلِّم على المصلي». فقال شيخ الإسلام: «وكيف ذلك؟ وقد كنتُ أنا من يصلي أمامك». فأجابه الإمام: «كلا، لم تكن تصلي».

فزادت دهشة شيخ الإسلام وحيرته أكثر وأكثر وقال:

«فإن لم أكن أصلي، فماذا كنت أفعل إذًا؟»

فأجابه الإمام البركوي قاصدًا إرشاده- وكانت كرامةً منه-:

«لم تكن تصلي صلاتك بالمعنى الحقيقي، فقد كنت مشغولًا حينها وتقول في نفسك: (أأفتح نافذة في هذا الحائط أم لا؟)»

فوقف شيخ الإسلام حائرًا أمام هذا الجواب، فقد كان بالفعل يفكر في خلال ذلك بفتح نافذة في الحائط. وبعد ذلك علِم شيخ الإسلام علو مقام الإمام البركوي وأنه عالِمٌ روحاني كبير، ثم أكبَّ عليه طالبًا العفو.[111]

إن الصلاة هي المعية مع الله تعالى، وهي أعظم أحوال الذكر.



وينزل غضب الله ﷻ على من يضيع هذا الذكر بالغفلة، ولا يأخذ نصيبًا من فيوضاته وروحانياته. لذلك يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥]

ويأمرنا ربنا ﷻ أن تكون أفئدتنا في ذكر دائم، لا أثناء العبادة فحسب، بل أن تبقى قلوبنا واعية مستيقظة حتى لو نامت عيوننا. يقول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ...﴾ [آل عمران: ١٩١]

١١١ انظر: نعيم أردوغان، حكايات دينية، ص٢٦٧-٢٦٨، منشورات شيلا، إسطنبول، ١٩٧٩.

ومن يصل إلى هذا النضج في قلبه فهو يحيا في عبادة طوال عمره، إذ ينال أجر العبادة في قيامه وقعوده، وأكله وشربه، وحتى في استراحاته.

ويوضِّح الإمام الرباني هذه الحقيقة بقوله:

«ينبغي صرف الأوقات في ذكر الله جل شأنه على الدوام، وكل عمل يصدر على وفق الشريعة الغرَّاء فهو داخل في الذكر، وإن كان بيعًا أو شراءً فينبغي مراعاة الأحكام الشرعية في جميع الحركات والسكنات لتصير كلها ذكرًا، فإن الذكر عبارة عن طرد الغفلة، ومتى حصلت مراعاة الأوامر والنواهي في جميع الأفعال فقد تيسرت النجاة من أسر الغفلة عن الآمر بالأوامر والناهي عن المناهي، وحصل دوام ذكره تعالى.»[112]

ويبشِّر المولى ﷻ عباده الذين وفِّقوا لذلك بقوله:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ. لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٧-٣٨]

١١٢ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٢، ٥٤٠، رقم: ٢٥.

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«كثيرًا ما يدعو الناس بهذه الدعوات: اللهم أعنَّا على الموت وسكراته، والقبر وظلماته، ويوم القيامة وكرباته.أما أنا فأدعو: (اللهم أعنِّي كلَّ آن وحين)»[١١٣]

[ثمة فرق دقيق بين العبادة والعبودية لا يدركه إلا القليل، فالعبادة تؤدَّى وتنتهي في وقت محدد، أما العبودية فهي دائمة لا تنقطع. والإنسان الغافل عن هذه الحقيقة حين يكون قويًا ذا صحة وراحة وأمن- يبدأ بالتكبر والاستغناء عمن حوله فيرى أنه ليس في حاجة لغيره، وتراه يهمل وظائفه في الدعاء والعبادة، ويتجاوز كل حدٍّ من حدوده بنسيانه ربه في نهاية المطاف. أما حين تضيق به الأمور، فلا يبقى أي أثر من آثار غروره، بل تجده ضعيفًا عاجزًا كورقة صفراء في مهب الرياح.

١١٣ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦٣٨.

لايمكن لأحدٍ البتة أن يشارك المولى جل جلاله بصفته «المتكبر». فمن يسعى لينافس الله تعالى في صفة العظمة والكبرياء يحل عليه غضب الله تعالى، وهاهم أولئك الظَّلَمة الذين تستعر فيهم كلمة «أنا»، والأقوام كعاد وثمود [الذين طغوا في البلاد] الذين تجاوزوا الحدود في غرورهم وتكبرهم بجعلهم القوة والسلطة، التي هي هبة من الله تعالى، أداةً لغاياتهم النفسانية، قد جعل الله الهلاك دائمًا وأبدًا مصيرهم. فترى الشمس التي كانت تشرق على القصور الفخمة لأولئك الظلمة المغرورين، هي اليوم تشرق على أطلالها وخرابها.

ويبيِّن المولى ﷻ في القرآن الكريم ضعف الإنسان بتجليته الفطرة البشرية في قوله:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا. أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلا﴾ [الإسراء: ٦٧- ٦٨]

إن الإنسان في حاجة ماسة إلى قوة يثق بها ويتوكل عليها كل حين، والله ﷻ هو وحده صاحب القوة التي لا يحدها حد، فإليه يلجأ العباد و به يستنجدون.

وأما الغافلون الذين لا يعون هذه الحقيقة، فيرون أنفسهم- باستنادهم إلى ما حققوه من نجاحات دنيوية وما وصلوا إليه من أيدٍ وسلطة- وكأنهم لا يُهزَمون ولا ينهارون ولا يموتون، أو حتى إنك تجدهم يتحدون القدرة الإلهية بعبادتهم لرغباتهم النفسانية. ويعرض لنا التاريخ أمثلة كثيرة عن مثل هؤلاء:

ففي سنة ١٩١٢ بُنيت السفينة العملاقة «تايتانك» لتعبر المحيط كله، ووصفوها بكل غرور وكِبر قائلين: «إنها السفينة التي لا

تغرق!». وما هي إلا الرحلة الأولى لهذه السفينة في المحيط حتى غرقت بعد أن اصطدمت بجبل جليدي.

وفي سنة ١٩٨٦ أُطلق إلى الفضاء المكوك المُسمى بـ«تشالنجر» أي «المُتحدِّي»، لكن هذا المكوك انفجر في السماء وتحول إلى قطع صغيرة بعد ٧٣ ثانية من إطلاقه.

وأما نمرود الذي أصابه الكبر والغرور بعد أن ادَّعى الربوبية معتمدًا على قوته وسلطانه فقد أهلكه الله بذبابة هزيلة ضعيفة استهزاءً به.

وأما المتغطرس أبرهة الذي خرج من اليمن قاصدًا هدم الكعبة الشريفة فقد كان رأسماله جيشه العرمرم الذي دعمه بفيلته الضخمة، وظن أن لا قوة في الكون يمكن أن تقف في وجهه. وقد أراد أبرهة آنذاك أن يهدم الكعبة ويحوِّل الناس إلى اليمن من أجل العبادة والتجارة، وبذلك تزدهر الحياة الاقتصادية في اليمن. ولكن ما إن وصل إلى أطراف مكة بجيشه الذي ظن أنه لن يُهزَم حتى أُرسل الله سبحانه عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، لا أُسدًا ونمورًا وحيوانات وحشية- استهزاءً بهم- فصار جيشه كالعصف المأكول.

وما أعظم العِبر حين لم يتوفَّ ربنا ﷻ الظالمَ أبرهة هناك؛ فقد خرج أبرهة من اليمن بغرور وكِبر وعظمة، لكن الله تعالى أرجعه إليها جريحًا بائسًا، وبعد أن جعل سبحانه أهلَ اليمن يرون عاقبته

الذليلة المُهينة، دفنه في مزبلة التاريخ بأن صيَّره مثالًا معبرًا يرى فيه الناس القهرَ الإلهي.

وثمة الكثير الكثير من هذه الأمثلة التي تدل على أنه لايمكن لأحدٍ البتة أن يشارك المولى ﷻ بصفته «المتكبر». فمن يسعى لينافس الله تعالى في صفة العظمة والكبرياء يحل عليه غضب الله تعالى، وهاهم أولئك الظَّلَمة الذين تستعر فيهم كلمة «أنا»، والأقوام كعاد وثمود (الذين طغوا في البلاد)، الذين تجاوزوا الحدود في غرورهم وتكبرهم بجعلهم القوة والسلطة، التي هي هبة من الله تعالى، أداةً لغاياتهم النفسانية، قد جعل الله الهلاك دائمًا وأبدًا مصيرهم. فترى الشمس التي كانت تشرق على القصور الفخمة لأولئك الظلمة المغرورين، هي اليوم تشرق على أطلالها وخرابها.

والخلاصة أن الله سبحانه وتعالى يمتحن الإنسان في هذه الدنيا في يسره وعسره. وإنه لجحودٌ عظيم أن يبتهل العبد إلى ربه حين تضيق به الدنيا، ثم ينسى عبوديته له سبحانه في حال الراحة والسعة. ومن هذا المنطلق يجب على المؤمن أن يكون دائمًا في حال أدب وتواضع وحمد وشكر ورضا ودعاء مهما تغيرت ظروف الحياة.

وإن كنا نريد عون ربنا ومدده حين تدهمنا المصائب والمشقات ونلقى الألاقي في رحلتنا نحو الخلود، أي لحظة خروج نَفَسنا الأخير، والقبر، والقيامة، والميزان، والصراط المستقيم؛ فيجب أن نبذل الجهد كي نكون في حال يليق بنا عونه سبحانه وذلك من

خلال مراعاتنا لأوامر الله ونواهيه بدقة في هذه الدنيا، وأن نذكر الله كثيرًا لا سيما في أيام الراحة، وأن نؤدي ما علينا من وظائف على أفضل صورة متحلِّين بأدب العبودية، حتى إذا صادفتنا المصاعب والمشقات، تذكرنا ربُّنا ولم يحرمنا من نصرته وعنايته.]

اللهم أقمنا بذل العبودية بين يديك وألبسنا لباس طاعتك على كل حال، وارزقنا الشكرَ في الرخاء دون بطر، والصبرَ في الشقاء دون شكوى، والرضا بقضائك وقدرك ، ونيل رضاك يا ذا الجلال والإكرام.

آمين!

أبو الحسن الخرقاني

رحمة الله عليه

-٤-

إن كل ما لدينا من طاقة وقوة وأيدٍ وإن عظمت، فإنما هي منه سبحانه وتعالى، لهذا السبب يجب أن لا تكون كلمة «أنا» في قاموس المسلم، ولا «الأنانية» في فؤاده. ويجب عليه أن لا ينسى أنه عبد، وأن كل النعم التي بين يديه هي من الله عز وجل، وبدل أن يقول: «فعلت كذا، وربحت كذا»، لا بد أن يقول: «هذا من كرمك يا رب، وهذا من فضلك يا رب».

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«لقد خلقكم الله أطهارًا، فلا ترجعوا إليه أقذارًا»[١١٤]

[حين يُولَد الإنسان تكون رائحته عطرة، يبعث النور في العيون ويُدخِل السعادة إلى القلوب مع أنه قد جاء من مكان قذر. وإنما ذلك أثرٌ من آثار لطافته وطهاراته النابعة من فطرته السليمة وبراءته وخلوه من الذنوب. وكما أننا قدِمنا إلى هذه الدنيا أطهارًا، يريد الله سبحانه منا أن نعود إليه كذلك، ونحيا حياة نزيهة، ويخلوَ دفتر أعمالنا من العيوب. ولهذا يقول سبحانه في الآية الكريمة:

﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]

وبذلك يبيِّن الله لنا أن «**القلب السليم**» هو أعظم الهدايا قيمةً من تلك التي يقبلها منا نحن عباده.

والقلب السليم هو ذلك القلب الطاهر المطهَّر المزكَّى الرقيق المصفَّى... وكيف يكون ذلك؟ لا جرم أنه يكون بحفظ القلب من أوضار المعاصي، وحمايته من القسوة الناتجة عن الشهوات

١١٤ الخرقاني، نور العلوم، ص٢٥٨.

النفسانية؛ ويكون أيضًا بمسح أدران الذنوب التي وقعنا فيها- بسبب طبيعتنا البشرية- بدموع الندامة، والتوبة والاستغفار لا سيما في الأسحار؛ ويكون كذلك حين نغدو عبادًا من أهل التقوى بسعينا للوقوف أمام حضرته سبحانه بوجوه مبيضة، وقلوب مطمئنة، وضمائر مرتاحة. فالله ﷻ يدعو عباده إلى الجنة، إلى دار السعادة والسلامة. والجنةُ دار اللطافة والرقة، ولا يُقبَل فيها إلا من تخلص من قسوته، أي من وصل إلى اللطافة بتطهره من أدران الذنوب. وتشير الآية الكريمة التالية إلى هذه الحقيقة:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]

لهذا يجب علينا أن نتطهر من أوضار الذنوب والمعاصي، ما دمنا قادرين على ذلك اليوم. وما تأجيلنا للتوبة والاستغفار ونحن مخدوعون بشبابنا وصحتنا إلا سبب هلاكنا المعنوي، ويشير إلى هذه الحقيقة الشيخ محمد معصوم السرهندي رحمة الله عليه في نصيحته لأحد طلابه الشباب:

«يا بني، إن أكثر أوقات عمرك قيمةً أيامُ شبابك. وهذه الأيام التي يكون فيها الإنسان قويًا سليمًا في أعضائه أيامٌ عابرة، وسيأتي ذاك اليوم الذي يضعف فيه. وما أشقى مَن يرجئ معرفة الله، التي هي أشرف وأعظم ربح، إلى شيخوخته التي قد لا يبلغها، فتراه يصرف

أفضل أوقات عمره في الهوى والنزوات التي هي أرذل الأمور. ولتذكرْ دائمًا أنه قد (هلك المسوفون)».[١١٥]

لهذا السبب يأمرنا الله سبحانه بالتوبة والاستغفار دائمًا ما دُمنا قادرين على ذلك في الدنيا، لأن كل ذنب من الذنوب هو بقعة تلطِّخ القلب، وكلما كثرت هذه البقع، وقع القلب في ظلام القسوة والمعصية. ولأنه لا يمكن لأي عبد أن يكون معصومًا عن الخطأ، فلا بد إذًا أن يبذل الجهد دائمًا في سبيل التطهر المعنوي.

يقول ربنا العلي القدير في الآية الكريمة:

﴿...إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. فالله تعالى يحب عباده الذين يُطهِّرون ظاهرهم وباطنهم بالتوبة والاستغفار.]

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«إنما يترقى أهل الله وأولياؤه في مقامات العرفان بتزكية النفوس وإخلاص الطاعات».

[إن الأعمال التي يؤديها العبد بنفسٍ لم تخضع لتربية معنوية تبقى أعمالًا صورية شكلية بعيدة عن الخشوع والطمأنينة وفيوضات القلب مهما ظنَّ أنها بإخلاص وصدق.

١١٥ محمد معصوم، المكتوبات، جـ١، ٦٣، رقم: ٦٥.

يقول الإمام الرباني:

«إن العبودية والعبادات تقليديَّةٌ ما لم تصل إلى النفس المطمئنة، ثم تص ير تحقيقية [كاملةً] حين تصل إليها».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن أردت أن تبعث النور كالنهار، فعليك إذًا أن تحرق رغباتك النفسانية التي تشبه الليل!»

وهذا يعني إحراق رغبات النفس التي تتجاوز الحدود بنارِ الرياضة والمجاهدة، وجعل هذه النار طاقة للروح. والحق أنه حين تُكبَح النفس بالتربية، تغدو وسيلةً توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات. أما إن تُركت هذه النفس على حالها، وعظُم عند صاحبها قدرها، فتكون سببًا للإفلاس المعنوي الذي يهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين. وما لم تُزكَّى وتُخرَج من طيات الأنانية، فسيخالط العبادات والمعاملات والخدمات غرورٌ وكِبرٌ وأنانية، لا بل قد تصيبها الغايات النفسانية.

وقد وضَّح مولانا جلال الدين أن السعي لملء جراب دون سد الثقب في أسفله ما هو إلا جهد يضيع سدى، فقبول الأعمال الصالحة عند الله ﷻ يقتضي أولًا تخليص النفس من صفاتها السيئة.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن أردت أن تبعث النور كالنهار، فعليك إذًا أن تحرق رغباتك النفسانية التي تشبه الليل!»

وعلى هذا الأساس يجب على كل إنسان أن يسعى للوصول إلى مرتبة النفس «المطمئنة» والمراتب التي تعلوها بإخضاعه النفسَ للتربية. وارتقاءُ الإنسان بإيمانه وأخلاقه نتيجة هذه التربية ما هو إلا الخطوة الأولى لقَبول العبادات.

ويقول الشيخ سامي أفندي في هذا الموضوع:

«إن دخول الإسلام بمعناه الحقيقي منوط بمحو النفس الأمارة واتباع الأوامر الإلهية. وبناءً على هذا، يُطلق مصطلح (الإسلام المجازي) على الإسلام الذي يصدِّقه قلبُ العبد دون وصوله إلى مرتبة النفس المطمئنة، ويُطلَق مصطلح (الإيمان الحقيقي) على الإيمان الذي يظهر بعد وصول النفس إلى مقام النفس المطمئنة».[116]



لذلك يعد لزامًا على كل عبد أن يرتقي بروحه عبر تخليص نفسه من أوضارها الخلقية وصفاتها السيئة بالتربية المعنوية.]

١١٦ محمود سامي أفندي، المصاحبة، إسطنبول ٢٠٠٨، جـ١، ١٢٧-١٢٩.

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«كما أن الصلاة والصوم فروض يجب أداؤها، فكذلك تزكية النفس عن أمراضها وتطهير الفؤاد من أدوائه فروض يجب القيام بها».[١١٧]

«إذا ما أصاب ثوبَك شررٌ من التنور، فإنك تهرع لإطفائه! فكيف تأذن للنيران التي تحرق دينك مثل الكبر والحسد والرياء أن تفتك بقلبك».[١١٨]

[يصل المؤمن إلى الكمال حين يراعي أحكام الدين الظاهرة منها والباطنة. فكما أن للدين فروضًا ظاهرة مثل الوضوء، والصلاة، والصيام، والزكاة؛ فإنه ثمة فروض باطنة مثل: الأخلاق الحميدة، والوجدان الصافي، والرحمة، والرأفة، والتضحية، والإخلاص، والتقوى.

وكما أن في الدين محرمات ظاهرة مثل الخمر، والزنا، والقمار، والربا؛ فإنه ثمة محرمات باطنة مثل: الغرور، والكبر، والرياء، والعجب، والبخل، والحسد، وسوء الظن.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿**وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ...**﴾ [الأنعام: ١٢٠]

وهذا يعني أنه كما هو ضروري ابتعاد المؤمن عن المحرمات الظاهرة، فكذلك من الضروري أيضًا حذره من المحرمات الباطنة

---

١١٧ فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، ص٦٢٩.

١١٨ الخرقاني، نور العلوم، ص٢٣٩.

التي تعكر صفو روحه وتنشر السموم فيه، حتى إن الكثير من المحرمات الباطنة أكثر خطرًا وأشد فتكًا من المحرمات الظاهرة إذا نظرنا إلى تأثيرها على الحياة المعنوية.

يقول رسول الله ﷺ في هذا الموضوع:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر».[119]

ونفهم من هذا كله أن اجتثاث جذور الذنوب الباطنة من القلب وتطهيره منها أمرٌ ذو بال مهمٌّ أهمية الحذر من الذنوب الظاهرة على أقل تقدير. ويزداد ارتكاب المحرمات الباطنة مثل الحرص والحسد والكبر والعجب والرياء نتيجة الاستخفاف بأغلبها. فمن اللازم إذًا أن يصون الإنسان نفسه عن هذه الطبائع الرذيلة التي هي سرطان حياته المعنوية.]

119 مسلم، الإيمان، ١٤٧/ ٩١.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ...﴾ [الأنعام: ١٢٠]

وهذا يعني أنه كما هو ضروري ابتعاد المؤمن عن المحرمات الظاهرة، فكذلك من الضروري أيضًا حذره من المحرمات الباطنة التي تعكر صفو روحه وتنشر السموم فيه، حتى إن الكثير من المحرمات الباطنة أكثر خطرًا وأشد فتكًا من المحرمات الظاهرة إذا نظرنا إلى تأثيرها في الحياة المعنوية.

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«ابكوا كثيرًا واضحكوا قليلًا، اصمتوا كثيرًا وتكلموا قليلًا، أنفقوا كثيرًا وكلوا قليلاً، واهجروا طيب المنام!»[١٢٠]

[ثمة بعض الأصول التي لا بد من تطبيقها في التربية الصوفية للوصول إلى النضج المعنوي، منها: الرياضة، أي النأي عن الأمور التي تُسعد النفس؛ والمجاهدة، أي تربية النفس ببعض المشقات التي لا تسرُّها. وهذه الأصول في الوقت ذاته أصول إلهية نبوية في تربية النفس.

فعن عبد الرحمن بن عوف ﵁ قال: «نزل الإسلام بالكره والشدة، فوجدنا خير الخير في الكراهة، فخرجنا مع رسول الله ﷺ من مكة، فجعل لنا في ذلك العلاء والظفر، وخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى بدر على الحال التي ذكر الله ﷻ تبارك وتعالى:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٥-٧]

١٢٠ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦٣٠.

والشوكة قريش، فجعل الله ﷻ لنا في ذلك العلاء والظفر، فوجدنا خير الخير في الكره».[121]

إن الأمور التي أكَّدها الشيخ أبو الحسن الخرقاني هي أصول تربوية تُطبَّق للرقي بروحانية العبد بكسر شهواته النفسانية. وإذا أردنا أن نسردها ونعلق عليها باختصار، نجد أنها ما يلي:

ابكوا كثيرًا واضحكوا قليلًا:



إن السعادة والضحك الذي يجاوز الحدود باللهو الدنيوي، وإطلاق القهقهات كلَّ حين يُنسي الإنسانَ المنازل العصيبة التي سيمرُّ بها مثل: الموت، والقبر، والبعث، والحساب، والصراط؛ ويزيل الرقة والحساسية من القلوب، ويمحو فيوضات الفؤاد، لهذا يقول المولى ﷻ:

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٦٠-٦١]

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]

ويقول رسول الله ﷺ:

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا».[122]

---

١٢١ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٧، ٢٦-٢٧.

١٢٢ البخاري، تفسير، ٥/ ١٢.

وعن عبد الله بن الزبير: أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يضحكون فقال:

«**تضحكون وذكر الجنة والنار بين أظهركم؟!**». قال: فما رُئي أحد منهم ضاحكًا حتى مات.[١٢٣]

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي:

«ادعُ الله وتُب إليه بفؤاد مليء بنار الندامة وعيون دامعة! فالورود لا تتفتح إلا في الأماكن المشمسة الندية».

اصمتوا كثيرًا وتكلموا قليلًا:

يجب علينا أن ننتبه إلى كل كلمة تخرج من أفواهنا كانتباهنا إلى كل لقمة تدخلها، فالإنسان مسؤول عن كل ما ينطق به.

وقد ذكر معاذ بن جبل رضي الله عنه يومًا كل خير يعمله ابن آدم، فقال رسول الله ﷺ:

«**وعاد بالناس خير من ذلك**»

قال: فماذا بأبي أنت وأمي عاد بالناس خير من ذلك؟ قال: فأشار رسول الله ﷺ إلى فيه قال:

«**الصمت إلا من خير**»

قال: وهل نؤاخذ بما تكلمت به ألسنتنا؟ قال: فضرب رسول الله ﷺ فخذ معاذ، ثم قال:

١٢٣ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ٣٠٧.

«يا معاذ ثكلتك أمك، وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا ما نطقت به ألسنتهم، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت عن شر، قولوا خيًرا تغنموا واسكتوا عن شر تسلموا».[١٢٤]

ويقول رسول الله ﷺ في حديث آخر:

«أمرني ربي بتسع...وأن يكون صمتي فِكراً»[١٢٥]. وبهذا يشير النبي ﷺ إلى لزوم جعل الصمت كالعبادة.

ولا ريب أنه كلما روَّض المرء نفسه وألجمها وارتقى بروحه، اتسعت آفاق فؤاده. فينظر بعد ذلك إلى كل شيء بنظرة مليئة بالعبر، وبسرِّ آية ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [العلق: ١]. ويحقق الوصال مع الله تعالى بالقلب عَبر رؤيته تجليات القدرة الإلهية في كل شيء ينظر إليه.

ولقد وضعنا ربنا ﷻ في هذه الدنيا التي هي مكان نُمتَحَن فيه، ويذكِّرنا كل شيء فيه به ﷻ، ومن الضروري أن نرفع حجاب الغفلة عن قلوبنا كي ندرك هذا الأمر، ولنذكر هنا هذه الحادثة المعبرة:

فعن أبي وائل، وهو من كبار التابعين، أنه قال: خرجنا مع عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه ومعنا الربيع بن خثيم، فمررنا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، فنظر الربيع إليها

١٢٤ انظر: الحاكم، جـ٤، ٣١٩/ ٧٧٧٤.

١٢٥ انظر: الجزري، جامع الأصول، جـ١١ ، ص٦٨٧، رقم: ٩٣١٧.

فتمايل ليسقط. ثم إن عبد الله مضى كما هو حتى أتينا على شاطئ الفرات على أتون، فلما رآه عبد الله، والنار تلتهب في جوفه قرأ قوله تعالى:

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٢-١٣]

قال: فصعق الربيع، فاحتملناه، فجئنا به إلى أهله، قال: ورابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق، فرابطه إلى المغرب فأفاق، ورجع عبد الله إلى أهله.[126]

ويدعونا ربنا ﷻ إلى التفكر في يوم القيامة كثيرًا، ويذكر القرآن الكريم أحوال ذلك اليوم لا سيما في أجزائه الثلاثة الأخيرة: كيف ستغدو الأرض والسماوات، وكيف سيكون حال الناس؟ إذًا يجب علينا أن نبذل جهدًا كي نكون أتقياء عبر الإكثار من التفكر في هذه الحقائق.

أنفقوا كثيرًا وكلوا قليلًا:

يجب على المؤمن الاكتفاء بما يكفيه وإنفاق ما يزيد على حاجته، وأن يكون منصفًا حين يحدِّد مقدار كفايته. وعليه أن يتخذ

١٢٦ أبو عبيد، فضائل القرآن، ص٢٣.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«ادعُ الله وتُب إليه بفؤاد مليء بنار الندامة وعيون دامعة! فالورود لا تتفتح إلا في الأماكن المشمسة الندية».

رسول الله وصحابته الكرام وعظماء الإسلام أسوةً له في هذا الأمر كما يتخذهم أسوة في الأمور الأخرى. ولا بد أن يتّزن في أحواله بالنظر إلى مجتمع عصر السعادة[١٢٧] لا بما يرضى عنه عامة مجتمعه.

وما أجمل تشبيه الشيخ عبد الله دهلوي حين تحدث عن الطعام القليل: «إن الحياة الدنيا يوم واحد، فمن اللازم أن نصومه».[١٢٨]



أي يجب أن نخلِّص أنفسنا من الذنوب والإفراط. وإظهار محبتنا لله تضحية في سبيله، ويشير المولى ﷻ إلى التضحية الحقيقية في قوله:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾ [آل عمران: ٩٢]

اهجروا طيب المنام:

أي لا تكونوا أسرى النوم فتفسدوا روحانياتكم!

يقول الله تعالى في عباده السعداء الذين بشَّرهم ببشارات إلهية:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]

---

١٢٧ عصر رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين. [المترجم]

١٢٨ رؤوف أحمد مجددي، درُّ المعارف، إسطنبول ١٩٩٨، ص١٤٣.

وكان من نصائح أم سليمان بن داود لسليمان عليه السلام:

«يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرًا يوم القيامة».[١٢٩]

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«لا أقول: (ليس من الضروري أن تعمل). لكن يجب أن تتساءل: هل تؤدي العمل بنفسك، أم أن أحدًا ما يحملك عليه؟ هذا ما يجب أن تعلمه. إن العبد في الأصل يتاجر بما عند الله تعالى، فحين يقدِّم بضاعته لله تعالى، يكون الله في أوله وآخره ووسطه. فتربح تجارتك بفضله تعالى لا بفضلك! ومن يدعي أن له سهمًا في هذا السوق فلن ينال القرب من الله عز وجل».[١٣٠]

[يقتضي أدب العبودية معرفة العبد أن الأخطاء والعيوب من نفسه، والنجاح والتوفيق من ربه تعالى.

ولا بد أن نتذكر دائمًا أننا خُلقنا من عدم، وما قدَّمنا أي مقابل، وقد خُلقنا في هذا الوجود فكنَّا من جنس «الإنسان» الذي يعد أشرف المخلوقات بين ملايين المخلوقات. وقد أحسن الله إلينا- كرمًا وجودًا منه- بنعم لا تعد ولا تحصى، عَلِمنا منها ما علمنا وجهلنا منها الكثير.

---

١٢٩ ابن ماجه، إقامة، ١٧٤.

١٣٠ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦٢٥.

ومن ألطافه ﷻ أن جعلنا نشكره بالعبادة والطاعة والخدمة والأعمال الصالحة، فنحن إنما ننجح في هذه الأمور لأنه سبحانه وتعالى قد أمدَّنا بقوة وطاقة في هذا الطريق. لذا لن تجد بين أيدينا أي بضاعة تعود لنا، فنحن نسعى لرضاه سبحانه لِما قدَّمَهُ لنا من عطايا.

ودعونا نتفكر هنا قليلا:

كيف كان لنا أن نبصر لو لم يهبنا الله ﷷ نعمة العين؟

وكيف كان لنا أن ندبِّر أمورنا لو لم يضع سبحانه وتعالى القوة والطاقة في أبداننا؟

وكيف كان لنا أن نفكر لولا ملَكَة التفكر التي أعطانا إياها ﷻ؟

ونخلص من هذا كله أن كل ما لدينا من طاقة وقوة وأيدٍ وإن عظمت، فإنما هي منه سبحانه وتعالى، لهذا السبب يجب أن لا تكون كلمة «أنا» في قاموس المسلم، ولا «الأنانية» في فؤاده. ويجب عليه أن لا ينسى أنه عبد، وأن كل النعم التي بين يديه هي من الله ﷷ، وبدل أن يقول: «فعلت كذا، وربحت كذا»، لا بد أن يقول: «هذا من كرمك يا رب، وهذا من فضلك يا رب».

وروي أن الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام:

﴿**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**﴾ [طه: ٢٤].

فقال: «يا رب، أهلي وغنمي».

قال الله تعالى مذكِّرًا أنه خير الحافظين:

«إذا وجدتني فأي شيء تصنع بغيري؟ يا موسى! اذهب واعتصم، واستسلم لي، وفوِّض الأمور إلي، فإني جعلت الذئب راعيًا لغنمك، والملائكة حافظين لأهلك.

يا موسى! من أنجاك من اليم حين ألقتك أمك فيه؟ ومن ردَّك إلى أمك بعده؟ ومن أنجاك من عدوك فرعون حين قتلت نفسًا؟ ومن أنجاك من المفازة حين فررت من فرعون؟»

وهو يقول في ذلك كله: «أنت، أنت».[١٣١]]

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني:

«يخاطب الله تعالى عبدَه في أمور أربعة: بدنه، ولسانه، وقلبه، وماله. ولا يكفي جعل البدن مقتصرًا على الخدمة، واللسان على الذكر؛ فما لم تكن مع الله سبحانه بقلبك وتنفق مالَك بكرمٍ وَجودٍ في سبيله، فلن تخطو إلى الأمام في طريق الوصال معه».[١٣٢]

[إن ما يريده الله تعالى منَّا- نحن عباده- هو القلب السليم الذي يكون معه دائمًا. لذا نجد أنه من اللازم أن تنشغل أبداننا بالخدمة في سبيل الله، وألسنتنا بالذكر، ولكن هذا غير كافٍ. ذلك أنه من

١٣١ أحمد الرفاعي، حالة أهل الحقيقة مع الله، ص١٧٨.
١٣٢ عطار، تذكرة الأولياء، ص٦٣١.

الضروري بقاء أفئدتنا مع الله تعالى دائمًا، والتعمق في إدراك أن الله سبحانه هو المالك الحقيقي لكل شيء، بالتخلص من الأنانية وإدراك أننا مخلوقات فانية. ولا بد أن ننفق مما آتانا الله تعالى في سبيل رضاه لأن القرب منه ﷻ يُلزِم التضحية.

فالزكاة مثلًا تعد المعيار الأصغر للتضحية بالنسبة لكل مؤمن ثري من منظور الدين، لكن الإنسان يضحي بمقدار محبته لحبيبه. والحادثة التالية المليئة بالحِكم خير مثلٍ في هذا الموضوع:

سأل أحد الفقهاء الشيخ شبلي- قاصدًا امتحانه- عن مقدار المال الواجب إخراجه في الزكاة، فقال له الشيخ:

«أتريد الجواب من مذهب الفقهاء، أم مشرب عشّاق الله ذي الجلال والكبرياء؟»

فقال الفقيه: «من الاثنين».

فقال الشيخ: «في مذهب الفقهاء، إن كان معك مِئتا درهم مثلًا، ومرَّ عليهما حول، فيجب أن تعطي خمسة دراهم، فنصاب زكاة المال ٢,٥ لكل مئة درهم. أما في مشرب العشاق، فيجب التصدق بالمئتي درهم كلها، وأن تشكر الله تعالى بقولك: (اعتقت رقبتي من هذا المال)».

فقال الفقيه: «تعلمنا مذهبنا هذا من علمائنا، فمن أين تعلمتم مذهبكم هذا؟».

فقال له الشيخ شبلي: «وتعلمنا نحن مشربنا من سيدنا أبي بكر الصديق، فقد وضع أمام رسول الله ﷺ كل ما يملك...»

من أجل ذلك كله، يجب علينا السعي للإنفاق على عباد الله والإحسان إليهم وفق طاقتنا، متفكِّرين دائمًا في ألطافه ﷻ التي لا تحصى ولا تستقصى، وسِعة رحمته، وعِظم إحسانه وكرمه.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ...**﴾ [القصص: ٧٧]

اللهم اجعلنا من عبادك من أهل الخدمة والتضحية والكرم الذين ينفقون في سبيل رضاك من جميع إمكاناتهم المادية منها والمعنوية؛ بأيديهم، وألسنتهم، وأحوالهم، وأقوالهم.

آمين!

مولانا

جلال الدين الرومي

رحمة الله عليه

-١-

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"استعمل عقلك واستمع إلى نصائح الأولياء بعقل واع، استمع كي تتخلص من الخوف والجزن، وتصل إلى اليقين والراحة المعنوية".

مولانا جلال الدين الرومي (رحمة الله عليه) -١-

مولانا جلال الدين الرومي هو أحد أولياء الله الذين أكرمهم الله سبحانه بالعلم والعرفان والأسرار والحِكم، وكان قادرًا على رسمها وتجليتها بالكلمات على نحو لا يدانيه فيه أحد، فكان بذلك مترجمًا لفيوضات القلب النابعة من أولياء الله كلهم.

وسنذكر فيما يلي بعضًا من حكم هذا الولي الكبير التي جاءت شرحًا للقرآن والسنة:

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«يوم القيامة عيد أضحى مخيف للثيران المبرقشة، أي للكفار والفسَّاق. ذاك اليوم يوم موت للثيران، ويوم عيد للمؤمنين!»

[من اللازم لمن يريد استقبال الموت بفرح العيد أن يجود بروحه وماله في هذه الدنيا في سبيل الله. فيوم القيامة سيكون يومًا ترتعد منه فرائص الغافلين الذين لم يستطيعوا التضحية بأرواحهم وأموالهم في سبيل الله، أي لم يخضعوا للحقائق الإلهية، وأظهروا التراخي في أداء وظائف العبودية، ولم يقدروا على ضرب عنق النفس التي تسارع إلى المحرمات.

فالموت سيظهر أمام كل عبد بصورة تناسب شكل الحياة التي قضاها: فمنهم من سيكون الموت بالنسبة له كالفرح صباح العيد، ومنهم من سيكون الموت بالنسبة له كرحلة عذاب مليئة بالكوابيس...

لهذا السبب دعونا نبذل جهدًا كي نحيا بأدب العبودية حتى تكون آخرتنا كيوم عيد أبدي. وبعبارة أخرى، العيد الحقيقي هو ذلك اليوم الذي يقف فيه المؤمن أمام ربه وقد أفلح في امتحان التقوى الذي مرَّ به في هذه الدنيا الفانية.

يقول أولياء الله:

«ليس العيد لمن لبس الجديد، ولكنه لمن رضي عنه ربُّ العبيد، وأعتقه من العذاب الشديد».]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«صار القمر مضيئًا منيرًا لصبره على الليل».

«وصارت الوردة فوَّاحة الرائحة زاهية اللون لصبرها على صداقة الأشواك».

[يأتي «الصبر» على رأس الحكمة التي تُعلِّم الإنسان التغلب على المحن. فالمحن من لوازم طريق العشق وأدواته، وما يجعل الإنسان ناضجًا هو الصبر على المحن والابتلاءات.]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«علَّمني شمس الدين قدس الله سره أدبًا عظيمًا حين قال:

(إذا كان في الدنيا مؤمن واحد يشعر بالبرد، فليس لك حق أن تتدفَّأ)

ولأنني أعلم أنه ثمة مؤمنون في الأرض يشعرون بالبرد، فلن أشعر بالدفء ما حييت».

[لا يشعر بحال المصاب إلا من يكابد مثل ألمه ولا يحس بألم الصابر على البلاء إلا صابر مثله على البلوى. ولذلك على المؤمن أن يكون دائمًا حول المآتم، ويجنب من لا سند لهم ولا عون حتى يحس بهم ويشعر بألمهم فيكون أقدر على مواساتهم.

وقد جاء في الأحاديث الشريفة:

«مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».[١٣٣]

«ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه».[١٣٤]]

١٣٣ البخاري، الأدب، ٢٧؛ مسلم، البر، ٦٦/ ٢٥٨٦.
١٣٤ الحاكم، جـ٢، ١٥/ ٢١٦٦.

أولياء الله- الذين هم ورثة الأنبياء- كالمرآة الجلية التي تعكس نور الحِكم النبوية على الأزمنة والأمكنة كلها؛ وينبغي لنا أن ندرك أن الأنبياء وأولياء الله، الذين يُكملون وظيفة الأنبياء في الإرشاد، هم كاللجة الواسعة لا يمكن لأحد أن أولياء يطَّلع على حجمها وعمقها، وكل إنسان يغوض ويتعمق في هذا البحر ويأخذ نصيبه منه على حسب استعداده وقدرته.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«أكثروا من زيارة أصحابكم ولا تهجروهم، فالطريق التي لا يسير فيها أحد تمتلئ بالأشواك».

[عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائبًا دعا له، وإن كان شاهدًا زاره، وإن كان مريضًا عاده.[135]

ومن الوسائل التي تزيد من رضا الله على العبد وتقوِّي روابط الصداقة والصحبة والمحبة: زيارة المرء أخاه في الإسلام، والسؤال عن أحواله، وإهداؤه ولو شيئًا بسيطًا، ومشاركته همومه وأفراحه.

أما حين يهمل العبد أخاه ولا يكترث به، فيغدو بستان الأخوة أرضًا قفرًا، وتبدأ أشواك الخلاف والفرقة والخصومة تحجز بين الناس.]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«كل امرئ صديق لك في صحتك وسلامتك وعافيتك وأمنك، ولكن أين الخليل والحبيب حين تكون مهمومًا مغمومًا؟ الله وحده من يكون معك!»

[الصديق وقت الضيق، ولكن الكثير من الناس هم أصدقاء لك في أيام اليسر.

١٣٥ الهيثمي، جـ٢، ٢٩٥.

إن الصديق الحقيقي هو الذي يختار طوعًا مشاركة صديقه سعادته، وبالمثل مشاركته همومه أثناء المحن التي تمر عليه.

والصديق الحقيقي هو الذي يشاركك في حِملك، ولا يكون حِملًا عليك. ولَكَم هو خطأ كبير أن تظن أن الصداقة الحقيقية هي الصداقة في أوقات السعة والراحة، فكثير من الناس هم أصدقاء لمصالحهم لا غير. لهذا السبب لا يمكن ضمان الصداقة إلا بعد اختبارها في أوقات الشدة والعسرة.]



يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«صاحِب الناس، فكلما كانت القافلة مليئة مزدحمة بالناس، انكسرت شوكة قطّاع الطرق».

[من أعظم حظوظ المؤمن أن يكون بصحبة الصالحين، فالنْفس والشيطان يكيدان ويوسوسان بيسر حين يكون المرء وحيدًا، أما حين يكون بصحبة الصالحين، فلا يقتربان منه بسهولة.

ولهذا جاء في الحديث الشريف:

«**الجماعة رحمة، والفرقة عذاب**».[١٣٦]

فأفضل وسيلة للوقاية من الانحلال وانعدام الروحانية في المجتمعات هي صحبة الصالحين، واجتماع الصالحين فيما بينهم.

١٣٦ المناوي، جـ٣، ٤٧٠.

في حين نجد أن الابتعاد عنهم وألفة الفاسقين هي بمثابة نشر السموم في الحياة المعنوية. يقول الإمام الغزالي:

«إن صحبة الفاسقين والغافلين الظاهرية تتحول إلى صحبة ذهنية مع مرور الوقت، وهذه الأخيرة تتحول إلى صحبة قلبية فيما بعد، وهو ما يعني انجرار الإنسان تلقاء الهلاك تدريجيًا».

ولهذا جاء في حديث آخر:

«الوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة».[١٣٧]]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«انقطع الإلهام عني في هذا السَّحر، فعلمتُ أن بعض اللقيمات المشبوهة قد دخلت بدني. إن اللقمة الحلال يصدر عنها العُلم والحكمة، ومحصولها العشق والرحمة. وإذا ما ظهرت الغفلة من إحدى اللقيمات، فاعلم أن تلك اللقمة إما لقمة مشبوهة أو حرام».

«إن اللقمة التي تزيد من النور والكمال هي اللقمة الناتجة من كسب حلال».

يقول سفيان الثوري قدس الله سره:

«إنما يكون دين المرء بقدر مراعاته الحلال والحرام في مطعمه ومشربه».

---

١٣٧ الحاكم، جـ3، 343؛ البيهقي، شعب، 256/ 4993.

وذات يوم قيل له:

«يا إمامنا، هلَّا تشرح لنا فضيلة الصلاة في الصف الأول؟»

فأشار سفيان إلى اللقمة الحلال بقوله:

«يا أخي، انظر من أين تكسب رزقك! فحين يكون كسبك حلالًا فلا يضيرك في أي صفٍّ صليت».]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«اعلمْ أن الكلام الحكيم دون عمل كالثوب المزيَّن أخذه صاحبه عارية».

«الواعظ بحاله خير من الواعظ بكلامه».

[لقد كان رسول الله ﷺ أسوة حسنة وقدوة عظيمة للناس بتطبيقه هو نفسه الحقائقَ التي كان يبلِّغها. وقد كان لكلامه بركة التأثير في الأفئدة لأن أحواله كانت مطابقة لأقواله، وجوهره لكلامه.

فالكلام الصادر عن القلب هو وحده الذي ينفذ إلى قلب المخاطب. أما الكلام الذي لا يصدر عن القلب ولا يُطبَّق، بل يقتصر على اللسان فحسب، فإنه يدخل من أذن ويخرج من الأخرى، ولا يكون له أي تأثير خيرٍ في الأحوال والسلوك.

يقول المولى جل جلاله في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«توضأ وضوءًا لا ينتقض أبدًا».

[لقد أتينا إلى هذه الدنيا كي نعبدَ الله تعالى. ولا يخفى على أحد أن مظاهر العبودية، مثل قراءة القرآن والصلاة لا يمكن أن تؤدَّى دون وضوء، أما الوضوء الذي لا ينقض أبدًا فهو احتفاظ المؤمن بـ«شعور العبودية» حتى خروج نَفَسه الأخير.]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«صلِّ صلاةً لا تنقطع أبدًا».

[يؤدي العبد صلاته خلال عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، لكن من اللازم المحافظة على الحال القلبية التي كانت في الصلاة بعد الانتهاء من أدائها؛ فإن لم يكن ذلك ممكنًا، يقع القلب في الغفلة، ويوشك بعد مدة أن ينزلق إلى الفحشاء والمنكر. فالصلاة التي يؤديها العبد بحق تُبعِده عن الفحشاء والمنكر.

وهذا يعني أن علامة قبول العبادات أن تستمر الحال التي تكون أثناء العبادة بعد الفراغ منها. ولهذا ترى أن صلاة عشاق المولى ﷻ صلاةٌ دائمة، فهم يسعون للعيش بشعور أنهم في حضرة المولى مع كل نَفَس يتنفسونه.]

التفكر في أقوال أهل الحكمة وأفعالهم وسلوكهم يحيي الأرواح، كأمطار نيسان الخيرة حين تبعث الحياة في الأرض القاحلة فتجعل منها جنات غناء.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن العاشق لا تكفيه خمس صلوات في اليوم، بل يحتاج إلى خمسمئة ألف صلاة».

«أيودُّ العاشق الحقيقي أن ينتهي وصاله مع الله تعالى؟»

[إن أعظم لذات الصلاة هي الاقتراب من المولى ﷻ والبقاء معه، يقول ﷻ:

﴿... **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق: ١٩]



ولا يمكن قياس اللذة المعنوية للعبادات باللذات المادية، يقول الشيخ إبراهيم بن أدهم الذي ترك المال والملك واكتوى بنار العشق الإلهي:

«لو يعلم الملوك ما نحن عليه من السعادة لجالدونا عليه بالسيوف».

إن علامة اللذة النفسانية هي انتهاء النزوة والرغبة حين يتذوق المرء تلك اللذة. أما حين تُذاق اللذات المعنوية فإن الرغبة فيها تزداد وتزداد. لذا، لا يشبع العبد من الصلاة التي يصليها وهو في حال يلقى فيها الله تعالى. ولهذا لا يود عشاق المولى ﷻ أن تنتهي حال الوصال تلك.]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«يا أخي، أحي نفسك بالتفكر، فكما يكون تفكرك تكون حياتك، فإن شغلت فكرك بالطاعة فأنت في رياض الجنة، وإن شغلت فكرك بالمعاصي فأنت في واد من أودية جهنم».

[إن العقل والقلب دائمًا ما يكونان في حال تفكر في أمر ما، لكن من الضروري جعلهما متفكِّرَين بالأمور التي يرضى عنها المولى ﷻ. فالتفكر المقبول ليس التفكر الذي يتسمَّم بمستنقع النفسانية، بل ذلك التفكر الذي يستفيد ويأخذ عن روضة الروحانية.

إن التفكر في الأمور النفسانية والشيطانية يجرُّ الإنسان إلى الغفلة، ويجعله عبدًا لنفسه وهواه. أما التفكر في الأمور الرحمانية والروحانيات، فيجعل القلوب رقيقة، ويزيد من الخشوع في العبادات، ويحفظ العبد من الشهوات، ويجعله يسوح في روضة الأسرار والحِكم والتأملات.

فكما أن ملء خزان السيارة بالماء بدل البنزين يُفسِد محركها، فمن الواجب إشغال العقل والقلب بالحِكم لا بما لا يعينهما، كي يدخل الإنسان في حال تفكر تُحيي الأرواح. وكيف للمرء أن ينتظر طعامًا لذيذًا من قِدرٍ قد ملأه بمكونات فاسدة غير طازجة؟ لهذا السبب يجب علينا أن نفرِّق بين ما يلزمنا وما لا يلزمنا في تفكرنا.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة عن المؤمنين الذين أفلحوا:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]

وجاء في الحديث الشريف:

«من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».[١٣٨]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«حتى لو امتلأت الدنيا بالنعم، لبقيت الفئران والأفاعي تستلذ بأكل التراب. ولقالت سوسة الخشب: (هل في الدنيا من لديه حلوى أطيب وألذ مما لدي!)».

«ولو صار للحمار مال وأراد أن يبتاع شيئًا، لابتاعَ قشر البطيخ لا محالة».

«فقيمة الإنسان من قيمة ما يسعى وراءه».

[إن ميول الإنسان وتوجهاته هي مرآته. فالإنسان يفكر فيما يبحث عنه ويحلم به، فيغدو دائمًا في بحث عن ذلك الشيء.

فلنكن واعين إذًا:

عمَّ نبحث؟

أقِبلة بحثنا دنيوية أم أخروية؟

أمَسيرُ رحلة خيالنا في خط النفسانية أم تلقاء الروحانية؟

ولا ننسى أبدًا أن أكبر حماقة هي البحث عن السعادة في سوق التعاسة.]

---

١٣٨ الترمذي، الزهد، ١١/ ٢٣١٧.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«هل يقول عاقل عن البذرة إذا دفنت في التراب أنها ماتت؟»

«فإذا حُملت في التابوت يوم وفاتي فلا تظننَّ أني ميت، أنا فارقت حياة الغم والهم في الدنيا لألج حياة من نوع جديد!»

«إياك وأن تبكي عليَّ حين أموت! وإياك أن تقول: (وا حسرتاه، وا حسرتاه!) فزمان الحسرة علي هوحين أستسلم للنفس وأقع في مكائد الشيطان في حياتي الدنيوية».

«حين ترى جنازتي لا تقل: (الفراق، الفراق!) بل اعلمْ أن ذلك الوقت ليس وقت فراق بالنسبة لي، بل وقت وصال (مع ربي)».

«حين يواروني الثرى إياك أن تقول: (الوداع، الوداع!) فالقبر حجاب لعالَم الآخرة؛ لرياض الجنة».

«لقد رأيتَ غروب الشمس واختفاءها، ولترَ شروقها أيضًا! تفكَّر معي: أيضير نور الشمس والقمر شيء حين يغربان ويختفيان؟»

«إن كانت هذه الحال تبدو لك كالغروب والاختفاء، فاعلم أنها شروق في الأصل، أي حياة من جديد!»

[والحق أن الإنسان من ناحية تركيبته المادية يسير في رحلة على النحو التالي: في البداية يكون من التراب عنصرًا من عناصر الطبيعة، ثم يكون في صلب الأب لمدة، ثم في رحم الأم، ثم في النهاية في

أحضان الأب والأم، ويقضي مدة في قلب الأبوَين، وبعد ذلك يُنقَل من مهد الدنيا إلى اللحد، وبذلك يبدأ رحلته مارًّا بالقبر، ثم القيامة، ثم إلى الجنة أو النار.

فالموت ليس فناء إذًا، إنما هو أول خطوة في البعث. وتخلص الروح من هذا العالم الفاني وولادته في حياة أبدية كانقطاع رابطة الوليد من رحم الأم وولادته في هذه الدنيا.

وسيُحاسب الإنسان على ما فعله في حياته الدنيا، وبعد الحساب سيكون إما إلى سعادة أبدية أو- والعياذ بالله- سيخلد في العذاب مهانًا.

ونخلص من هذا كله أن وظيفة المؤمن ليست الخوف من الموت في الدنيا والهرب منه، بل الإعداد له والسعي لتحسين الخاتمة.

ويجب علينا أن نتفكر في أن حوالي مئة وأربعة وعشرين ألف نبي، والصحابة الكرام، وأولياء الله الذين لا يُعدون ولا يُحصون كلهم قد حسَّنوا الموت في نظرهم، وهم الآن يرتقبون قيام الساعة في قبورهم التي هي روضة من رياض الجنة.

يقول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكم».

ويجب علينا أن نقضي أيامنا الفانية بصورة يرضى عنها الحق تعالى كي نحظى بالسعادة السرمدية، وأن نسعى لإعداد أنفسنا بصورة حسنة للقبر، لا أن نُعدَّ قبرًا حسنًا لأجسادنا.]

اللهم أفض على أفئدتنا نصيبًا من تجليات حكمتك، واجعلنا من عبادك المؤمنين الصالحين الذين يتعمقون في حكمة مجيئنا إلى هذه الدنيا ومغادرتها نحو دار القرار.

آمين!

مولانا

جلال الدين الرومي

رحمة الله عليه

-٢-

ثمة أناس صاروا من الماضي وهم ما زالوا أحياء، وثمة أناس عاشوا في الماضي غير أن أنفاسهم ما زالت عطرة تبعث الحياة في الأرواح. يقول مولانا جلال الدين الرومي: "إن كلمات أولياء الله كنهر ماؤه عذب حلو، فحين تسنح لك الفرصة، اشرب من هذا الماء حتى الارتواء، لعلَّ الأزهار المعنوية تتفتح في قلبك".

مولانا جلال الدين الرومي (رحمة الله عليه) -٢-

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«حين يلعب الأطفال يصنعون حانوتًا، ويتظاهرون أنهم يشترون، ولكن دون أن يكون لديهم أي ربح، إنما ليسلُّوا عن أنفسهم. وذاك الطفل الذي يتظاهر أنه قد فتح حانوتًا، يرجع إلى بيته مساءً وهو جائع. وما هذه الدنيا إلا كذلك المكان الذي يلعب فيه الأطفال».

[ذات يوم رأى الشيخ أبو بكر شبلي رحمة الله عليه طفلَين يتنازعان من أجل حبة جوز وجداها في الطريق، فأخذها الشيخ شبلي وقال:

«اصبرا قليلًا حتى أقسمها بينكما».

ثم كسر حبة الجوز، فكانت فارغة، فسمع نداءً يقول:

«إن كنت بحق مقسِّمًا، فقسِّم هذه إذًا!»

فاستحيا الشيخ شبلي وقال:

«أكان هذا النزاع من أجل حبة جوز فارغة وهي (لا شيء)!»[١٣٩]

١٣٩ فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، ص ٦٦١، منشورات العلم والثقافة، بورصا، ١٩٨٤.

إن الكثير الكثير من النعم الدنيوية التي يتنازع من أجلها الناس ما هي في الحقيقة إلا مثل حبة الجوز الفارغة. وحين يوقظ الأجلُ الإنسانَ من سبات الحياة الفانية، سيفهم كم هي قصيرة هذه الحياة، وسيدرك أنها زائلة فارغة، وسيندم على مكابدته هذه المشقات الفانية في هذا العالم الفاني. ولَكَم هو اغترار كبير أن يتنافس الناس في الدنيا، وكأنهم يأكلون بعضهم بعضًا، من أجل أشياءٍ سيندمون عليها في القبر.]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن الحياة الدنيا كلها مثل حلمٌ، وإن كنت ذا مال فيها فأنت كمن يجد كنزًا في أحلامه. فمال الدنيا يبقى في الدنيا متنقلًا من جيل إلى آخر».

«وما قيمة الذهب والروح؟والياقوت والمرجان؟ وكل هذه النفائس إن لم تُصرَف على المحبة أو على المحبوب؟!»

[إن القيمة الوحيدة لهذه الدنيا هي بالإعداد لعالم الآخرة وإعماره. ويكون لروح الإنسان وماله قيمة حين يجود بهماَ في سبيل الله تعالى. وكذلك تكون للنعم الدنيوية قيمة حين تكون وسيلةً تجد بها القلوب المضطربة، التي هي محل نظر الله، الطمأنينةَ والأمن والمواساة، وإن لم تكن هذه النعم كذلك فما هي إلا حِملٌ لا نفع منه وسوف يُحاسب عليه الإنسان حسابًا عسيرًا في الآخرة. والحياة الدنيا التي يعيشها المرء بغفلة عن الآخرة هي صحراء مهلكة ليس فيها إلا السراب.

لهذا السبب يجب على المؤمن أن يسعى كي يحوِّل النعم الدنيوية إلى وسيلة سعادة في دار الخلود، وأفضل طريقة لذلك بجعله «إدخال السرور في القلوب» شعارًا له في حياته.

وما أجمل قول يونس أَمْرَه:

لم آتي لأدَّعي

فعملي هو المحبة

وبيت الله الأفئدة

ها قد أتيت لإحيائها!



إن المؤمن الكامل الذي يسعى لرضا الرفيق الأعلى يعلم أن الصحبة الحقيقية لا تختلط بالملك والمال، لذلك تراه لا يتهرب من أي تضحية في سبيل الله مدركًا وشاعرًا بأن وجوده كله في الدنيا أمانة إلهية.

أما المقتِّرون والبخلاء الذين يتهربون من الإنفاق في سبيل الله الذي أكرمهم بالنعم، فحقَّ عليهم قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: ٣٤]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«كن منصفًا، فالعشق إكسير الحياة الجميلة، لكن من يفسده [يسمِّمه] هو طبائعك السيئة [والنفسانية]. إنك تسمي الشهوة عشقًا؛ آه، لو تعلم الفرق الكبير بين الشهوة والعشق!»

«إن الوجد والعشق الإلهي يجعلان المؤمن يقظًا عاقلًا ، أما العشق الدنيوي الشهواني فيجعل الإنسان أسيرًا أحمقًا».

[إن منبع المحبة هو الله تعالى، فقد وضع في قلب كل إنسان خلقه بذرة المحبة الإلهية. وأكثر الوسائل أهمية للمؤمن في رحلة وصاله مع الحق تعالى هو هذا الاستعداد للمحبة الموجود في فطرته.

لكن المحبة قد تكون حقيقية أو مجازية؛ أما الحقيقية فهي محبة الله تعالى، وأما المجازية فهي محبة ما سواه. ولعمري إن المحبة المجازية التي تكون في إطار رضا الله تعالى هي خطوة نحو المحبة الحقيقية، ما لم تكن المحبَّات المجازية آخر محطة يصل إليها القلب! والخطر كل الخطر أن يشعر المرء بالمحبة تجاه من لا يستحقها، فكل إنسان يصل إلى درجة معنوية تعتمد على من يشعر تجاهه بالمحبة في الحياة.

لهذا السبب يجب الحذر أشد الحذر من أن يصيب المحبةَ ضررٌ حين تقصد عناوين خاطئة، فالمحبة حين لا تجد من يليق بها تكون

من أشد ضروب التبذير في الحياة. والمحبة التي تكون محصورة بين فكَّي المصالح النفسانية والدنيوية تشبه تلك الزهور التي تتفتح على قارعة الطريق، ثم لا تلبث أن تذوي أو تدوسها الأقدام، طال الزمان أو قصُر. فما أسوء أن تُرمى ألماسة في سلة القمامة، وما أسوء أن يكون الشيء في يد من لا يستحقه.

إن العبد الذي يحصر المحبة في الله تعالى، الذي لا تليق المحبة إلا به، يفتحُ باب المحبة في قلبه أولًا لله تعالى ثم لكل مخلوق، وذلك على حسب قرب ذلك العبد من ربه.

وهذا ما يعبِّر عنه يونس أَمْرَه في قوله: «اصفح عن المخلوقات لأجل الخالق»؛ وهي حال يفتح فيها المرء ذراعَيه بالمحبة والرحمة للمخلوقات جميعًا، مهما كانت صفاتها وماهيتها من أجل الخالق سبحانه وتعالى.

وأولياء الله هم أولئك الذين جعلوا بذرة العشق والمحبة الإلهية الموجودة في قلوبهم دوحةً باسقةً مثمرةً باهتمامهم بها، ولهذا يحيون دائمًا مُكرِمين المخلوقات من أجل الخالق، وقربُهم من الله تعالى جعلهم قريبين من المخلوقات كلها دون استثناء.

ويعبِّر الشيخ إسماعيل عطا عن هذا المظهر من مظاهر الولاية بقوله:

«كن ظلًّا في الشمس، وقفطانًا في البرد، وخبزًا في الجوع».]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«تبعث نفحات الأنبياء الروحَ في كل شيء حتى الحجارة، وتخضع كلماتهم كل شيء حتى الجبال الشامخة، ولكن الأحمق فقط هو من لا يستطيع أن ينال ولو لؤلؤة واحدة من لآلئ الحكمة التي ينثرونها!»

«إن إلقاء موعظة على جاهل يعيش في سبات الغفلة، هو كزرع بذرة في أرض قاحلة، أو كإرواء صحراء واسعة. والشيء الذي تمزِّقه الحماقة والجهل لا يمكن لأي رقعة أن تنفعه! فلا تزرعنَّ، يا واعظ، بذرة الحكمة هناك!»

[إن تقديم الحكمة لمن ليس أهلا لها ظلم للحكمة نفسها، كذلك حرمانها من أهلها هو ظلمٌ لها.

ويُروى عن النبي ﷺ أنه قال:

«قام أخي عيسى عليه السلام في بني إسرائيل خطيبًا فقال: (يا بني إسرائيل، لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم)»[١٤٠].

ولهذا السبب يجب على المؤمن أن يجعل كلماته تناسب مستوى إدراك مخاطَبه، وأن يدقق في كيفية إلقائه الكلام، ويتكلم

١٤٠ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ١، ٤٥٠، رقم: ٧٠٤. قارن: الدارمي، المقدمة، ٣٤.

في المواقف التي تفيد فيها النصيحة والتذكرة، ويصمت في غيرها.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩]

إن الصمت أولى من الكلام في المواقف التي لا تنفع فيها الموعظة والنصيحة والتنبيه والتذكرة، وهذا ما يوضحه مولانا جلال الدين الرومي في قوله:

«لا تبع المرآة في سوق العميان، ولا تقرأ الغَزَل في سوق الصم».

أي إن أخذ الموعظة والنصيحة هو حظ من الحظوظ، فمن لا حظَّ له فلن يستطيع أن يستفيد حتى من أكثر النصائح قيمة، فيجب عدم تبذير الوقت مع أمثال هؤلاء بوجود من يمكن أن تعمَّهم الفائدة.

وتلخِّص لنا القصة التالية هذه الحقيقة تلخيصًا جميلًا:

كان سيدنا عيسى عليه السلام يركض بسرعة وكأن أسدًا يطارده، فتبِعَه رجل وسأله ممَّن يهرب.

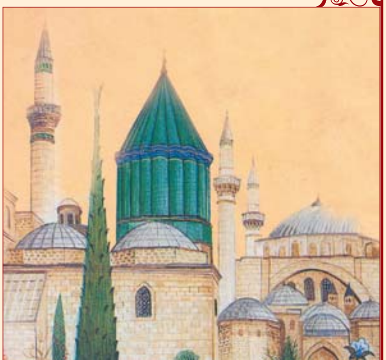
فقال له عيسى عليه السلام: «من الأحمق!»،

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«ما أشد تعاسة الإنسان الذي لا يمتلأ بالمحبة والعشق الإلهي، وما أضلَّه إن فاق ضلاله ضلال الحيوان، فكلبُ أصحاب الكهف قد بحث عن أهل العشق ووجدهم، وبلغ الصفاء الروحاني، وفاز بالجنة بالفيوضات والروحانيات التي أخذها من أهل الله عز وجل».

فقال الرجل: «ألست أنت (المسيح) الذي تبرئ بنَفَسك الأكمه والأبرص، وتحيي الموتى بدعائك؟ فلمَ تهرب وأنت قادر على فعل ما تريد؟»

فأجابه عيسى عليه السلام: «واللهِ لقد قرأت اسم الله الأعظم على الأصم والأعمى فبرئَا، وقرأته على الميت فرجع إلى الحياة، وقرأته على الفقير فاغتنى؛ لكنني قرأت هذا الدعاء على قلب الأحمق آلاف المرات فلم ينتفع، لقد صار قلبه كالحجارة الصماء ولم يتخلص من حماقته!»



فازدادت حيرة الرجل، ثم سأل سيدنا عيسى عليه السلام: «لماذا لا يؤثِّر الاسم الأعظم في الحماقة مع أنه وسيلة لشفاء كل مريض؟ ما الحكمة من ذلك؟»

فأجابه عيسى عليه السلام: «إن الحماقة مرض من القهر الإلهي، أما ما سواها فهي ابتلاءات لم تمر من هذا القهر. والابتلاء مرض، لكنه لا يصيب إلا المُبتلى به؛ والحماقة مرض، لكنها غالبًا ما تجرح الآخرين وتضرهم».

لهذا كان من أقوال العارفين:

«لا يمكن لثلاثة أن يكونوا مقرَّبين من الله تعالى: المتكبِّر، والبخيل، والأحمق».]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن الخنفساء التي تحمل دائمًا القذارة لا تطيق ماء الورد، فعلاجها يكون أيضًا بالرائحة الكريهة، لأنها قد ألِفتها.

والناصحون الناسَ لوجه الله تعالى يودُّون أن يعالجوا بكلام جميل حكيم كالعنبر وماء الورد أصحابَ القلوب القاسية كي يفتحوا الآفاق أمامهم ويقدموا العلاج.

من لا تفيده رائحة الموعظة الجميلة فقد ألِف أنفه الروائح الكريهة لا محالة.

خذ أنت أيضًا نصيبك من النور والموعظة والحسن والجمال! ولا ترم بأنفك في القذارة فتكن كتلك الخنفساء! كن إنسانًا، كن إنسانًا!»

[ثمة قانون جذب في العالم بين الأنواع والأوساط التي يحيون فيها، فالبلبل مثلًا يفرح حين يكون في المروج وبين الأعشاب والينابيع ذات المياه العذبة الرقراقة؛ أي يفرح بالمناظر الطبيعية اللطيفة التي تشرح الصدور. أما من يكون في داخله كالخنفساء التي تعيش على القذارة فإنه يتلذذ بالنجاسة، أي بالدناءة وانعدام الأخلاق، والفساد والنفاق.

والسفهاء من الناس يظنون أن السعادة تؤخذ من الدناءة، كما هو حال الجرذ الذي يعيش في القاذورات ويأخذ طعامه من هناك.

ولأنهم اعتادوا الدناءة تراهم يتهربون من الوسائل التي توصلهم إلى السعادة الحقيقية.

ويشير مولانا جلال الدين الرومي إلى هذه الحقيقة بقوله:

«يا حشرة النجاسة، إنكِ تهربين من بستان الورود، لكن هربك هذا يجعلك تضلين عن الكمال الحقيقي!»

لهذا كله، لا يمكن للحمقى أن يدركوا الحكمة، فتعليم الحكمة لهؤلاء ظلم للحكمة نفسها، وإسراف في الجهد والوقت. إنه سعي لا طائل وراءه، وحِملٌ بلا فائدة كحال قطرات نيسان المباركة حين تُهدَر بسقوطها على الصحراء أو الصخور الصلدة.]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«كن صامتًا كالكتاب حين تكون عند الجهَّال».

[أي لا تناقش الجهَّال كي يستفيدوا من علمك، ومعرفتك، وأخلاقك الحسنة، والمواعظ التي تقدمها بأحوالك وسلوكك، لأن المناقشة والجدل والتنافس والمجادلة سعيًا للأفضلية تزرع الغرور والأنانية في النفوس التي لم تخضع لتربية، وبذلك تكون سببًا في صعوبة الإدراك لديها، وهذا ما يعسِّر كثيرًا قبول الصواب.

إن العارفين يحملون قلوبًا ناضجة تستطيع قبول الحقيقة من أي امرئ كان، وكيفما سمعوها، لكن الإنسان الفظ الغليظ الجاهل ليس كذا. لهذا السبب يجب الاقتراب منه بطريقة أدق، ونقل الحقائق له

بلغة مناسبة. فالنظرة العميقة والصمت لغرض ما قد تعطي دروسًا لا تعطيها الكثير من الكلمات.]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن كنت تريد أن تكون مقرَّبًا من الله تعالى، فاعلم جيدًا أنه لا يمكنك الذهاب إلى حبيبك بيدَين فارغتين، فالذهاب إلى الحبيب بيدَين فارغتين هو كذهابك إلى المطحنة بلا قمح. يسأل الله تعالى عباده يوم الحشر:

(ماذا أعددتم من هدايا ليوم القيامة؟)، ثم يقول:

(اليوم نرجعكم إلينا كما خلقناكم أول مرة؛ صِفر اليدين، محتاجين، فرادى. هيا أروني ماذا أعددتم من هدايا ليوم القيامة؟ أم حسبتم أنكم لن ترجعوا إلينا من الدنيا إلى الآخرة ولن تقفوا أمام ربكم؟ أما كنتم تؤمنون بما ذكره القرآن من أخبار يوم القيامة؟)

يا من خُلِقتَ في أحسن تقويم، كيف لك أن تخطو خطوة إلى باب الحق تعالى بمثل هذا الفؤاد الفارغ؟

فَنَمْ قليلًا في هذا العالم الفاني، وأقلل من طعامك وشرابك، وجهِّز هدية ليوم لقائك مع المولى ﷻ!»

يقول الشيخ إبراهيم بن أدهم الذي ترك المال والملك واكتوى بنار العشق الإلهي:

«لو يعلم الملوك ما نحن عليه من السعادة لجالدونا عليه بالسيوف».

[إن كل إنسان يأتي إلى هذه الدنيا ما هو إلا مسافر نحو دار الخلود. فكما أن الذين يسافرون في رحلة طويلة يجهِّزون زادهم، كذلك يجب على الإنسان الذي سيرجع إلى ربه ﷻ أن يستعد لهذه الرحلة نحو الخلود ويأخذ معه زاد الآخرة.

يقول ربنا ﷻ:

﴿... وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]

لهذا السبب، ترى أن التسلي بالرغبات النفسانية والسعي وراءها في هذه الحياة الفانية إضاعة للوقت، الذي يعد خير بضاعة لدى الإنسان، إضاعةً تحرمه من الفوز في الآخرة؛ والنتيجة هي غفلة عظيمة توقِع الإنسان في ندامة ما بعدها ندامة.]

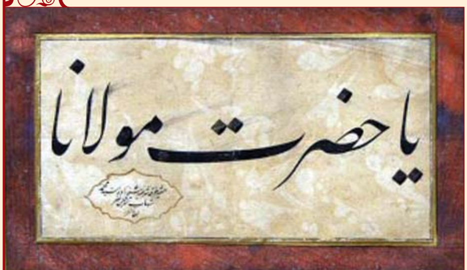
يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«حين تسعى لملء جراب يجب أن لا يتسرَّب شيء من الثقب في أسفله».

[إن زاد الآخرة الذي يحتاجه كل إنسان هو الإيمان في البداية ثم العبادات، والخير والحسنات، والأعمال الصالحات. لكن إفساد هذه الأمور بالنفسانيات والطبائع السيئة هو بمثابة ثقب جراب زاد الآخرة.

ومن الضروري أن يتحلى المؤمن بالأخلاق الفاضلة كي يصل إلى الكمال، لهذا يجب أن يكون متواضعًا، ومنصفًا، وعادلًا، وأمينًا، وصادقًا، ومؤدبًّا، وحييًّا، وكريمًا، ورؤوفًا، ورحيمًا، وعفوًّا، وصبورًا، وقانعًا، ومخلصًا.

وعلى النقيض تمامًا، يجب أن يهرب المرء من الخلائق السيئة مثل الكذب، والغيبة، والظلم، والحقد، والحسد، والطمع، والبخل، والغرور، والكبر، والرياء، كي لا تذهب أعماله الحسنة سدى.



لهذا من الضروري الحذر من أداء الصلاة بغفلة، وإضاعة أجر الصوم بالسلوك السيء مثل الغيبة والنميمة، وإحباط الصدقة والزكاة والإنفاق بالمن والأذى، وإضاعة ثواب العبادات وأعمال الخير بالافتخار والرياء. ويجب أيضًا إبعاد الإخلاص عن السلوك والأحوال التي تُفسده؛ أي عدم إشراك الأمور الدنيوية في النية لدى أداء العبادات. وما لم يكن الحال كذلك، فإن أجور الأعمال كلها ستكون هباءً منثورًا.]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

سأل يوسف عليه السلام يومًا أحد أصحابه:

«ما الهدية التي أحضرتها لي؟»

فأجابه صاحبه:

«وما الذي لا يوجد عندك؟ أحضرت لك مرآة كي تشاهد فيها كل حين تجليات الجمال الموجودة فيك لأنه لا شيء أجمل منك!»

[إن ربنا جل جلاله هو خالق كل شيء ومليكه، لذلك فهو سبحانه مستغنٍ عن كل شيء. ولأنه لا توجد أي هدية نعبر بها عن عبوديتنا وشكرنا له، فلن نجد ما هو أجمل في خزائنه التي لا تعد ولا تحصى.

فحُسنه جل جلاله حسن مطلق، وهو منبع الجمال كله. لذلك ترى أن الشيء الأكثر جمالًا وقيمة لدى المخلوقات هو ذلك «القلب» الصافي البرَّاق الذي هو انعكاس لجمال الله تعالى. وخير هدية يمكن أن تُعرض أمام الله تعالى هي مرآة الفؤاد المنوَّر المصفَّى المجلَّى النقي اللطيف الذي تتجلى عليه أسماء الله الجمالية؛ أي إن ما يريده منا ربنا عز وجل هو: القلب السليم، والقلب المنيب، والنفس المطمئنة.

ويحب الله تعالى عبده ويرضى عنه حين يرى في قلبه تجليات صفاته الجمالية. يقول سبحانه وتعالى في الآية الكريمة:

﴿**واللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ...**﴾ [يونس: ٢٥]

ولا ريب أنه ثمة شرطٌ لقبول كل دعوة، ومقابلٌ لكل نعمة. لهذا السبب يجب على العبد في هذه الدنيا الفانية التي تعد مزرعة الآخرة أن يسعى للفوز بأعظم الأشياء قيمة عند الله تعالى؛ أي بالقلب السليم، من أجل فلاحه في دار القرار.

يقول ربنا ﷻ:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[الشعراء: ٨٨-٨٩]

إن القلب السليم يُطهِّر العبد من كل شيء يُبعده عن الله تعالى، وهو بوصلة الحقائق التي لا تخطئ أبدًا وتوجهه نحو ربه، وهو الفانوس البرَّاق الذي يشع بنور الإيمان. والمؤمن بهذا النور في قلبه يفرِّق بين الصواب والخطأ، والخير والشر، والحق والباطل، والحلال والحرام.

وترتبط فضيلة الأعمال، التي هي من مظاهر العبودية، وما تحملها من قيمة بصفاء القلب، لأن القلب محلُّ نظر الله تعالى.

ويبيِّن نبينا ﷺ هذه الحقيقة بقوله:

«إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم». [١٤١]

---

١٤١ مسلم، البر، ٣٣/ ٢٥٦٤.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«كان رجل يذكر الله تعالى كل حين بقوله: (الله الله)، وكان يشعر بحلاوة هذا الذكر وكأنه العسل المصفَّى. فأتاه الشيطان يومًا وقال له:

(لِمَ لا تتوقف عن قولك «الله الله». إنك تذكر الله كثيرًا، فهل قال لك ربك ولو مرةً واحدةً: «لبيك عبدي». أَلَمْ تمل وتيأس من ذلك؟ إلى متى ستذكر الله؟)

ثم يئس الرجل الذي ما كان يتوقف عن ذكر الله بلسانه وترك الذكر، فعاش حياته مكسور الفؤاد. وذات يوم رأى في رؤياه سيدنا الخضر يسأله:

(لمَ تركت هذا العمل الحسن، لمَ تركت ذكر الله؟) فأجابه الرجل:

(لم أرَ أي أجر للذكر الكثير، ولم أسمع من الله تعالى: «لبيك عبدي»، فخشيت أن أطرد من بابه).

فأجابه سيدنا الخضر إجابة مليئة بالحِكم:

(يا عبد الله، قولك «الله» هو قول الله لك «لبيك». أَيمنح الله تعالى كل عبد من عباده شرف ذكر اسمه العلي؟ إن قدرتك على قول «الله» هي إشارة تدل على محبة الله سبحانه لك).

فاستيقظ الرجل وما عاد يترك ذكر الله تعالى».

[إن القدرة على ذكر الله تعالى وشكره وإظهار الطاعة والعبودية هي لطف إلهي مميز يقتضي الشكر.

ولا يمكن أن تزيد عبودية المخلوقات كلها لله تعالى من شأنه وعظمته سبحانه ولو مثقال ذرة، ولن يُنقِص عصيانها من شأنه وعظمته سبحانه ولو مثقال ذرة. وهو سبحانه لا يحتاج لأي شيء في الكون، فكيف يحتاج إلى عباداتنا وهو المستغني عن كل شيء؟ أما نحن فإننا نحتاج إلى العبادات بنيَّة خالصة، وإلى الأعمال الصالحة، والاقتراب منه سبحانه كي يرضى عنَّا وينزِّل شآبيب رحمته علينا.

ويلجأ كلٌّ من النفس والشيطان إلى آلاف المكائد والحيل كي يُبعِدا الإنسان عن عبادة الله تعالى وطاعته. وابتعادُ المرء عن العبادة باعتقاده أن عباداته لن تُقبل يعني وقوعه في أخطر مصائد الشيطان.

إن وظيفة العبد هي قدرته على أداء العبادات على أفضل صورة، وعدم الحُكم بعقله على قبولها عند المولى ﷻ، بل ترك هذا الأمر له سبحانه، فالمرجع الوحيد لقبول العبادات هو الله وحده. لذلك فإن حُكمَ العبد على قبول العبادات وعدم قبولها يعني تجاوزه لحدوده، وهو أمر منافٍ لأدب العبودية.

والذي يجب علينا نحن- عبادَ الله- هو التالي: إظهار السعي وبذل الجهد وفق طاقاتنا، وأداء أعمالنا حتى ولو كانت بأخطائها وقصورها ونقصانها، وطلب العفو منه سبحانه وتعالى، والالتجاء

إلى فضله وكرمه وعفوه ومغفرته، وعدم فقدان الأمل أبدًا برحمته، والمحافظة على حال روحانية متوازنة بين الخوف والرجاء في أفئدتنا.

لهذا فإنه لخطأ كبير أن يعتمد المرء على أعماله معتقدًا قبول عباداته بصورة قطعية، وخطأ أكبر وأعظم من هذا الخطأ هو أن يترك المرء عباداته يائسًا معتقدًا أن الله سبحانه لن يقبلها البتة.

إن وظيفتنا في هذه الدنيا تتلخص في دوام عبوديتنا بمشاعر التواضع والمحوية بكل ما أوتينا من قوة، إضافة إلى إدراكنا بأنه مهما كانت عبادتنا، فلن نوفي بدَيننا لله تعالى بأن جعلنا من عباده الشاكرين؛ ثم الأملُ بعفوه سبحانه ومغفرته وفضله وكرمه.]

اللهم أحينا حياة عبودية ترضى عنها يا رب العالمين.

آمين!..

مولانا
جلال الدين الرومي
رحمة الله عليه
ـ٣ـ

يقول الإمام الشافعي:

الدنيا سراب

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها
وسيق إلينا عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورًا وباطلا
كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة
عليها كلاب همُّهن اجتذابها
فإن تجنَّبتها كنت سلمًا لأهلها
وإن تجتذبها نازعتك كلابها

مولانا جلال الدين الرومي (رحمة الله عليه) -٣-

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«حين ترى النهر أفرِغ ماء الكأس فيه، أترى الماء يهرب من النهر أو ينزوي عنه؟»

«وحين يختلط ماء الكأس بماء النهر، يفقد خصائصه السابقة ليصير جزءًا من ماء النهر».

«وحين يكون الحال هكذا، تختفي صفة ماء الكأس ويبقى ذاته، فلا ينقص بعده، ولا يتعكر، ولا تفوح منه رائحة كريهة».

[يقول شُرَّاح المثنوي إن المقصود من النهر هنا هو الحياة الأبدية في الآخرة، أما ماء الكأس فهو حياة الإنسان الفانية. وأما إفراغ كأس العمر في نهر الخلود فيعني العمل بمقتضى قولهم: «موتوا قبل أن تموتوا»؛ أي أن يكون المرء كالميت أمام المغريات بتخلصه من الرغبات النفسانية والشهوات الدنيوية قبل مجيِّء الأجل المحتوم على كل فان، وأن يتوكل على الله ويطيعه، ويسلِّم أمره له سبحانه، ويجعل النعم الفانية كلها رأسمال السعادة الأبدية.

والحق أن العمر كنهر يتدفق بسرعة، وهو بضاعة محدودة يظنها الغافل لا تنفد، وإذا ما قارَن المرء عمره بالخلود في عالم الآخرة، سيجده لا شيء أبدًا.

جاء في الحديث الشريف:

«ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم إلى اليم فأدخل إصبعه فيه فما خرج منه فهي الدنيا».[١٤٢]

ونعمة العمر كالنِعم الأخرى، محض فضل ولطفٌ من المولى ﷻ، وهي البضاعة الوحيدة بين يدَي العبد كي يفوز بالسعادة الأبدية. فخير تجارة في هذه الدنيا هي الفوز بالباقي بإعطاء الفاني، وبالكلي بإعطاء الجزئي، وبالبحر بإعطاء القطرة؛ فالموطن الأصلي للقطرة هو البحر، ولا يمكن أن يعدَّ إرجاع ما يأتي من البحر إليه تضحيةً، فكل قطرة- طوعًا أو كرهًا- سترجع يومًا إلى ذلك البحر لا محالة.

وهذا ما جاء في القرآن الكريم في الآية الكريمة:

﴿... **إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٦]

فابتهال العارفين إلى الله تعالى بكل وسيلة حين يقولون: «يا رب، إنَّا لك وإنا إليك راجعون» يعكس مشاعرهم وأحاسيس أفئدتهم التي تعمَّقت في هذه الحقيقة الإلهية.

١٤٢ الحاكم، المستدرك، 4/ 319.

فهذه إذًا هي المعرفة والمهارة الحقيقية، فليُفرغ العبد بإرادته عمرَه الفاني، الذي هو كماء الكأس، في بحر الخلود بكل كرم وسخاء، ليدرك على هذا الأساس بعضًا من سر عبارة:

«موتوا قبل أن تموتوا».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«ما أسعد ذلك الإنسان الذي مات قبل أن يموت، فقد عرفت روحه رباط الحقيقة».

وحين ننظر إلى فكرة الماء من جانب آخر، نجد أن ماء الكأس بين يدَي العبد هو موقع الإنسان ومقامه الذي يستند إليه، وقوته وطاقته. أما سلطان الله تعالى فهو قدرة وعظمة مطلَقتين تفوقان الإدراك وتحيطان بالكون الذي هو مجرد ذرة غبار أمامهما.

وأما ماء الكأس فهو العلوم كلها التي يمكن للبشرية أن تصل إليها، أما العلم الإلهي فهو بحر لا حدَّ له. ويبيِّن الحديث الشريف التالي هذه الحقيقة خير تبيين، وذلك حين صحب سيدُنا موسى سيدنا عليه السلام الخضر إذ:

«وقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره».[١٤٣]

١٤٣ البخاري، التفسير، 18/ 4.

وماء الكأس الذي بين يدَي الإنسان هو المال والملك والثروة التي أودعها الله أمانةً بقصد امتحانه بها. أما مُلك الله وسلطانه فأبديَّان مطلقَان، يقول ﷻ في كتابه العزيز:

﴿ولله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[آل عمران: ١٨٩]

﴿... وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

[إبراهيم: ٣٤]

إن جميع ما أكلَته المخلوقات وشربته واستعملته منذ بدء الخلق إلى يومنا هذا ما نقص من خزائن الله تعالى ذرة واحدة.

وصفوة الكلام هي أن ماء الكأس بيد الإنسان هو بمثابة النعم والإمكانيات والاستعدادات التي أكرم الله بها عبده، أما نهر الحياة فهو الجري نحو بحر الخلود لدى الله تعالى. وكلما استطاع الإنسان أن يضع بإرادته روحَه وماله وعلمه ومعرفته وإمكاناته كلها في هذا النهر، غدا فانيًا في بحر الخلود، وهنالك ينال نصيبه من سر الفناء في الله تعالى.]

يقول الإمام الشافعي:

«من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب».

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«أيتخلى الطفل عن البصلة قبل أن يرى التفاحة؟»

[يفرح الأطفال بالألعاب الصغيرة البسيطة لأنهم يجدون أنفسهم في وسط يتعلمون منه. ولكن ما إن يكتمل البدن حتى يصل الطفل إلى درجة معينة في استعداداته الذهنية والقلبية، فتمسي تلك الألعاب البسيطة بمرور الوقت مملة في نظره، ويبدو من الغريب أن يلعب الإنسان الناضج بتلك الألعاب.



ويأمر الله تعالى الإنسانَ أن ينضج من الناحية المعنوية وينأى عن اللذات البسيطة السفلية في الدنيا، وأن يتوجه تلقاء سعادة الآخرة التي هي السعادة الحقيقية السرمدية، لهذا يقول في الآية الكريمة:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

فالدنيا من هذا المنظور بالنسبة للنفوس التي لـمَّا تنضج بعد إنما هي محض سراب خدَّاع يلوح للرائي من بعيد ماءً. والدنيا كحلوى التفاح التي يتوق إليها الأطفال، ترى لونها من الخارج فاقعًا مثيرًا، أما داخلها فحامض أو فاسد.

والدنيا عند الله سبحانه كجناح بعوضة لا قيمة لها، لذا فإنه لا قيمة عند الله تعالى لمن ينسى الآخرة وينبهر بهذه الدنيا التي هي ليست شيئًا عنده سبحانه. فَرِضا الله تعالى وأصغر نعمة من نعمه التي لا تعد ولا تحصى خيرٌ من مُلك الدنيا كلها.

ومع هذا كله نجد أنه لا اختلاف بين إدراك الذي يسعى وراء الدنيا وإدراك الطفل الذي يظن أن البصلة التي بيده ألذ الطعام لأنه لا يعرف آلاف الأنواع من الأطعمة اللذيذة التي تفتح الشهية.

ويسعى مولانا جلال الدين الرومي عبر التشبيه التالي إلى إيقاظ الإنسان الذي يعلِّق فؤادَه بالزخارف الفانية في الدنيا، والمغريات الدنيئة، والوله بالأمور المؤقتة بتجاهله السعادة الأبدية والنعم العظيمة التي تنتظره، فيقول:

«الإنسان [الغافل] باع نفسه رخيصًا. لقد كان كقعطة قماش فاخرة، فصار في خرقة مرقعة».

فما أشنعها من حماقة أن لا يتوجه الإنسان إلى مولاه العلي القدير الذي وعده بنعم عظيمة مثل الجنة والنظر إلى جماله سبحانه، وأن يطمع بدلًا من ذلك في الرغبات النفسانية الزائلة ويلهث وراءها، ويظن أن الدناءة هي السعادة، ويخرِّب دار خلوده في سبيل إعمار دنياه التي ما هي إلا بضعة أيام.

يقول مالك بن دينار:

«سألت الحسن البصري يومًا:

– ما أسوء شيء في الدنيا؟

فقال الحسن رحمة الله عليه:

– موت القلب.

فسألته:

– وكيف يموت القلب؟

فقال:

– بحب الدنيا [أي بتعلقه بالشهوات المؤقتة والرغبات النفسانية في الدنيا].»

ويصف أحد أولياء الله هذه الحال بعبارة وجيزة مليئة بالحِكم فيقول:

«من أحب الدين لم يخرج من الدنيا، ومن أحب الدنيا خرج من الدين».

أي إن التدين والزهد والتقوى لا تعني التجرد من الدنيا والابتعاد عنها، بل أن لا نجعل محبتها في القلب، كما كان حال سيدنا سليمان عليه السلام؛ وتعني أيضًا عدم الارتباط بها حين يركض الإنسان وراء حظه منها. فإذا انهمك القلب في ملذات الدنيا ومحبتها انهماك الأنعام، فمن العسير أن يولي وجهه شطر الدين، ويدرك الحقائق الإلهية، ويتلذذ بالعبادات والطاعات.

لهذا السبب من الضروري أن تتعمق قلوبنا في الزهد والتقوى كي لا يصيبها مرض حب الدنيا.]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«لا يتعكر صفو البحر إذا مسَّه لسان كلب».

[إن من يهاجم القيم المعنوية ويتطاول بلسانه على المقدسات والقيم الساميات والأنبياء والأولياء، لا يعرف نفسه، ولا يستطيع أن يعيب البتة شرف هؤلاء العظماء. إنما يزيد من رذالته ودناءته بهذا السلوك المعيب، ويُضاعَف له عذاب جهنم في الآخرة، ويخلد فيه مهانًا.

أما المؤمنون في هذه الأحوال فتراهم مجبَرين على إظهار سلوك يقتضيه بغضهم لهؤلاء الظالمين من أجل الله تعالى، وبهذه الصورة يمتحنهم الله في أمور تتعلق بالمحافظة على شخصية الإسلام ووقاره ليرى غيرتهم على الدين.

وكمال الدين هو محبةُ من يليق بالمحبة؛ أي حب الله وحب من يحبهم سبحانه، وكرهُ من يستحق الكره؛ أي بغض أعداء الله ورسوله، الجلي في سورة المسد.]

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«يا من تلوث جوهر إيمانك من أجل قطعة خبز، يا أيها المسكين الذي تتخلى عن كنوزك من أجل حفنة من شعير، اِعلم أن نمرود ما آمنَ قلبُه بإبراهيم، ولكنه سلَّم روحه لبعوضة».

[كم هو انخداع كبير وحماقة ما بعدها حماقة أن يبيع المرء آخرته التي هي سعادته الأبدية كي ينال المال والملك في هذه الدنيا الفانية.

ويقول أبو حازم رحمة الله عليه وهو من علماء السلف:

«كل نعمة [من مال كثير، أو ملك عظيم، أو مقام رفيع وموقع شريف أو ما سوى ذلك] لا تقرِّب من الله ﷻ فهي بلية».

ويقول جعفر الصادق وهو من كبار أولياء الله:

«أوحى الله تعالى إلى الدنيا أن اخدمي مَنْ خدمني، وأتعبي مَنْ خدمك».[١٤٤]

إن البخلاء الذين يتهربون من الإنفاق لأنهم جعلوا ثروات الدنيا تأسر قلوبهم، والكسالى الذين زايلوا الطاعة والسعي لأنهم لم يستطيعوا ترك راحة أبدانهم، والغافلين الذين يتجنبون الخدمة والتضحية في سبيل الله لأنهم لم يتغلبوا على رغبات أنفسهم، سيأتي عليهم جميعًا يومٌ يضيعون فيه ثرواتهم وأموالهم التي كانوا متعلقين بها من أجل غايات بسيطة دنيئة؛ أي إن أولئك الذين لا يجرؤون على الغوص في بحر المصائب الكبرى في سبيل الله تعالى، قد يهلكون باختناقهم في بركة ماء صغيرة.

فنمرود- على سبيل المثال- حين اخترمته المنيَّةُ عجزَ عن القضاء على بعوضةٍ ضعيفة، وحقَّ عليه غضب الله تعالى، وهو الذي

١٤٤ أبو نعيم، الحلية، جـ3، 194.

يقول الإمام أحمد بن حنبل:

«بحسب الإنسان مال قليل، فالكثير لا يكفيه».

كان قد رفض الإيمان بالله وطاعته وساير نفسه المغرورة، ولم يكفه ملك الأرض بل ادَّعى- لتكبره وغروره- الألوهيةَ.

وقد كانت العاقبة المفجعة لهذا الغافل مثل عاقبة غيره من الظالمين المتكبرين، فحين هبَّت رياح الموت على محصول عمره، لم تبكِ عليه سلطنته التي خلَّفها وراءه، وما استقبلته بوجهٍ طلقٍ حياةُ الآخرة التي تنتظره. وقد غدت العواقب المفجعة للظالمين أمثال نمرود- وهي كالسفاهات التي يقع فيها الحمقى- أمثلةً معبرة تعرضها لنا صفحات التاريخ.

فالسعادة الحقيقية إذًا هي بإدراك المرء حدوده وعبوديته وعجزه وفناءه، والتخلي عن نفسه طوعًا في سبيل الله ما دامت الفرصة متاحة له.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله».[١٤٥]

ويجب علينا أن لا ننسى أن الطمأنينة والسعادة الحقيقية تتحققان بترك السعي وراء رغبات النفس وشهواتها التي لا حد لها وكبحها، وبجعل النفس مطيةً في طريق الوصال مع الله تعالى، والركوب عليها وإلجامها حتى خروج النَفَس الأخير.

١٤٥ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩.

ويلخص الإمام الغزالي هذه الحقيقة على أجمل صورة في قوله:

«النفس مطية الروح. فإذا ما أطلق الإنسان لجام النفس وتبِعها، فالهلاك قدَرُه... فعليك أن تمسك لجام النفس، وتستفيد من هذه المطية! [فالعبودية لله تؤدَّى بالبدن، أي فوق مطية النفس]».

إن روح المؤمن الذي استطاع تزكية نفسه تكون دائمًا قوية مطمئنة تنعم بالصحة.

وقد كان الأنبياء والصحابة الكرام وأولياء الله والصالحون بين سندان امتحانات الحياة ومطرقة المشقات العظيمة، فأصابهم التعب، ولكن مع كلِّ هذه الهموم المادية، عاشوا في قمة السعادة القلبية، وسكينة الفؤاد، وراحة الضمير.

فَسِرُّ السعادة والطمأنينة بالنسبة للمؤمن لا يكمن في السعي لإشباع النفس التي لا تعرف الشبع، إنما هو في تخليصها من الأنانية وتربيتها.

وما أعظم الحكمة في النصيحة التالية ليوسف خاص حاجب في كتابه «حكمٌ تجلب السعادة»:

«يا صاحب العلم العظيم، لا تكن أسير نفسك! فالنفس إن أسرَتك، تطلب الدِين فديةً لخلاصك!»]

يقول الشيخ محي الدين بن عربي:

«إن الدنيا لمن يميل إليها كماء البحر، كلما ازددت منه شرباً ازددت عطشاً».

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«اعلم جيدًا أن الجوع خير الأدوية، فأقبِلْ على الجوع بروحك ولا تحتقره! فكم من مريض شُفي بالجوع، حتى إن المرء لا يجد الأطعمة اللذيذة لذيذةً ما لم يكن جائعًا!

وكان أحدهم يأكل خبزًا غير طازج بشهية، فجاءه رجل وسأله: (لِمَ تأكل هذا الخبز بشهية؟)

فأجابه: (ازداد جوعي ضعفَين حين فرغ صبري، فغدت قطعة الخبز هذه بالنسبة لي لذيذة كالحلوى! فحين أصبر على الجوع آكل الحلوى دائمًا!)»



[الجوع يرقِّق القلب وينيره، أما التخمة فتجعل القلب قاسيًا والفؤاد مظلمًا. والجوع يمنع تفلت النفس، ويُيسِّر توجهها تلقاء الحق والخير؛ أما الشبع فيميت الأحاسيس المعنوية، ويضيِّق الروح، ويسد أوردة الحكمة في الإدرك والشعور.

ويؤكد الشيخ شبلي هذه الحقيقة بقوله:

«حين أجوع، أجد بابًا مفتوحًا لقلبي نحو الحكمة!»

ويقول أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه:

«لكل شيء صدأ، وصدأ القلوب كثرة الطعام. فمن يأكل كثيرًا يجد هذه الضروب الستة من البلايا:

١. لا يجد لذة في صلاته.

٢. يكثر نسيانه.

٣. تقل رأفته، فيظن غيره شبعانًا لأنه شبعان.

٤. يتكاسل في طاعاته وعباداته.

٥. تغلبه شهوته.

٦. يذهب إلى بيت الخلاء والمسلمون ذاهبون إلى المسجد.

وعلى هذا الأساس يجب الحذر من الإفراط في إشباع النفس من أجل الحصول على الراحة المادية والمعنوية، فكم من أناس في أيامنا هذه يعيشون في رخاء مادي، ولكنهم مبتَلون بعلل كثيرة منها: انعدام الراحة البدنية والروحية، وعدم الشعور بالأمن والطمأنينة، وفقدانهم الرضا والشكر، والعيش بغفلة. ومن أهم أسباب هذه العلل الإفراطُ في تغذية النفس، وأما علاجها فهو الأخذ بما يكفي من النعم الحلال مع الحذر كل الحذر من الحرام والمشبَّهات.

وبحسبِ العبد القانع الصابر الكابح نفسَه القليلُ من الرزق الحلال، ليجعله مطمئن الفؤاد. أما الذي لا يعرف معنى الجوع، فلا يعلم قيمة النعمة البتة، وقد لا يجد لذة في ألذ الأطعمة.

لذا، إذا أراد الميسور أن يجد طمأنينةً في قلبه واتزانًا في روحه، فيجب عليه أن يحمي الفقراء ويرعاهم، ويقف إلى جانب اليتامى، ويأخذ العبرة مما يراه من حال الفقر المدقع التي يعيشون فيها. أما إذا نسي الرأفة والرحمة، فلا يمكنه النجاة من بلاء قسوة القلب.

وعندما سُئل سيدنا يوسف عليه السلام حين حلَّت على مصر سنين عجاف وكان حاكمًا على خزائنها:

«إنك حاكم على خزائن مصر، فلماذا تجوِّع نفسك؟»

فأجابهم عليه السلام إجابة معبِّرة:

«أخشى إن شبع بطني، أن لا أشعر بالجياع!»

ولنا أن نسرد هنا شيئًا من ذكريات الشيخ سعدي الشيرازي المليئة بالعبر والمتعلقة بالحساسية القلبية التي يجب على المؤمن أن يتحلى بها:

حلت بالشام مجاعة في إحدى السنوات، فصار الناس في حال بائسة. وفي يوم من الأيام زار الشيخَ أحدُ أصحابه الأثرياء، وقد كان يعهد صاحبه قبل المجاعة جسيمًا ذا بأسٍ، فدُهِشَ حين رآه ضعيفًا شاحبًا، وسأله عن سبب تغير حاله، فحزن صاحبه بعد هذا السؤال وقال مشدوهًا:

«يا صاحبي، إن لم تكن تعلم سبب همِّي فيا لها من غفلة! وإن كنت تعلم فلمَ تسأل؟ ألا ترى أن الكارثة قد حلت علينا وبلغ السيل الزبى؟»

وحين قال الشيخ سعدي:

«أعلم، ولكن ما سبب حزنك وهمك إلى هذه الدرجة؟ فكل شيء لديك حاضر...» قال له صاحبه وهو من أهل الكمال:

«كيف لقلب المرء أن يطمئن وهو في الساحل ويرى إخوته في الدين يغرقون في البحر؟ لقد شحب لوني بسبب الابتلاءات التي وقع فيها المسلمون... فكلما رأيت إخوتي البائسين في هذه الحال السيئة، تقف كل لقمة في نحري وتأبى النزول، وكأنني أتجرع السم. وكيف للمرء أن يتنعم في بستان الورود وهو يرى أبناء جنسه في البؤس؟ حين يبكي أحدهم، ترى الدموع قد ذرفت من عينيَّ...»

وها نحن اليوم نجد بلاد المسلمين تحترق في فلسطين وسوريا والعراق وأفريقيا، فواجب علينا أن نحاسب أنفسنا حسابًا شديدًا، ونُظهِر أحاسيسنا ومشاعرنا تجاه إخواننا المسلمين الذين يعيشون تحت نير الظلم. فهذا الموضوع مهم جدًّا ويندرج تحت مسؤوليتنا تجاه إخواننا في الدين، وقد يكون وبالًا علينا في الآخرة.

ها نحن اليوم نجد بلاد المسلمين تحترق في فلسطين وسوريا والعراق وأفريقيا، فكم نحس بمشاعر الأخوة تجاه المسلمين الذين يعيشون تحت نير الظلم؟ وأداء حق الأخوة اليوم منوط بالتضحيات التي نقدمها في هذه الأيام الصعبة التي تمر علينا. لهذا سيكون دعاؤنا وإنفاقنا وتضحياتنا في سبيل إخواننا في الدين المظلومين المقهورين- إن شاء الله- خيرَ عمل ودليل على شكرنا لله وحمده.

ولا ننسى أن المتحابين في الله هم من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.[١٤٦]

وأداء حق الأخوة اليوم منوط بالتضحيات التي يقدمها المرء في هذه الأيام الصعبة التي تمر علينا. لهذا سيكون دعاؤنا وإنفاقنا وتضحياتنا في سبيل إخواننا في الدين المظلومين المقهورين- إن شاء الله- خيرَ عمل ودليل على شكرنا لله وحمده.]

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين من أهل الخدمة والتضحية والكرم الذين يشاركون هموم إخوانهم في الدين، وتستفيد أمة محمد من أيديهم وألسنتهم وقلوبهم.

آمين!

١٤٦ انظر: البخاري، الرقاق، ٢٤.

الشيخ

سعدي الشيرازي

رحمة الله عليه

-١-

يقول الله تعالى:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] لذلك فإن السخي الذي ينفق- دون التفات إلى همزات الشيطان وتخويفه إياه من الفقر- إنما هو من أهل الشجاعة الذين خاطروا في سبيل الله ﷻ.

الشيخ سعدي الشيرازي (رحمة الله عليه) -١-

[عاش الشيخ سعدي وهو من أرباب التربية الروحية في القرن الثالث عشر، وقد عُرف في العشرينيات من عمره بمؤلفاته التي كتبها، لا سيما كتابَيه المليئَين بالحِكم (بستان) و(غولِستان)، وقد كتبهما بأسلوب يشبه أسلوب مولانا جلال الدين الرومي. وكان الشيخ سعدي متصوفًا عالمًا أديبًا، وتوفي في مسقط رأسه شيراز بعد أن قضى حياة مليئة بالعلم والعرفان والعبادة والجهاد.

وقد نقل الشيخ سعدي لنا في كتابه (غولِستان) ذكرياته التي تشير إلى ترعرعه وتلقيه الإرشاد والتربية المعنوية، وهي ذكريات تفيض بالحِكم، منها:

أذكر جيدًا أنني في صغري كنت كثير التعبد، فقد كنت أقوم الليل وأشتغل بالعبادة. وفي إحدى الليالي كنت أجلس بجنب أبي، ولم أغمض عينيَّ فيها أبدًا، وما تركت القرآن الكريم. وكان بعض الناس ينامون بجانبنا، فقلت لأبي:

«لا أحد من هؤلاء يرفع رأسه عن الوسادة كي يصلي ركعَتي التهجد، بل ينامون كالأموات». فقطَّب أبي جبينه، وقال:

«يا بني، ليتك نمت مثلهم ولم تغتب أحدًا».

أي كأن الأب يعلِّم ابنه سعديًّا الدرس التالي:

«حتى لو حُرِم هؤلاء الذين تحتقرهم من رحمات السحر وفيوضاتها، فإن الملائكة لا تسجِّل أي سيئة عليهم. أما أنت فقد كُتِب في سجل أعمالك أنك احتقرت إخوتك في الدين واغتبتهم...»

على هذا المنوال ترقَّى الشيخ سعدي معنويًّا، وبهذه الإرشادات والتنبيهات الدقيقة تربى، فظلَّ إلى يومنا هذا مرشدًا بآثاره المليئة بالإخلاص والحكمة، والتي صارت منبع حكمة للقلوب المتعطشة للحقيقة، وعزاءً وسلوى للقلوب المتعبة الوحيدة.

هلمُّوا إذًا إلى «بستانه» القلبي كي نتذوَّق ثمار الحكمة، وإلى «غولستانه»[١٤٧] الفكري كي نجمع باقة من ورود العِبَر، ولنذهب معًا في رحلة ممتعة لنحلق في عوالمه الروحية:

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«يشتري أولياء الله بضاعتهم من الدكاكين المهجورة التي لم يمر عليها أحد».

[يقف أولياء الله إلى جانب أولئك البائسين الذين لا مؤنس لهم ولا رفيق، فيزورون الغرباء، ويبحثون عن المحتاجين المتعففين. وترى أولياء الله هؤلاء ينظرون إلى المخلوقات بنظرة الرأفة والرحمة التي ينظر بها الخالق إلى مخلوقاته، لذا فهم لا يفوِّتون

١٤٧ غولستان كلمة تركية تعني بستان الورود (وهو كتاب للشيخ سعد). [المترجم]

الفرص العظيمة حين يرون أبواب الأجر الكثيرة التي لا ينتبه إليها أغلب الناس لغفلتهم، بل يطرقونها كي ينالوا الثواب.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«سُئل أحد الحكماء: أيهما أفضل السخاء أم الشجاعة؟

فقال: لا حاجة للسخي إلى الشجاعة».

[المال قُراضة الروح، وخروجه من يد الإنسان من أعظم أسباب قلقه. غير أن المال والملك أمانتَان أودعهما الله تعالى لدى الإنسان كي يمتحنه بهما، وقد قال ربنا في كتابه العزيز: ﴿...**وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**...﴾ [التوبة: ١٠٤] أي إنه ﷻ يطلب من عباده صرف جزء معلوم من المال الذي أكرمهم به في سبيله.

لكن الإنسان الغافل ينسى أن المال والملك مجرد أداتَان في الامتحان، ويظن أن هاتين الأمانتَين الإلهيَّتَين ملكه، فتجده يلجأ إلى قوتهما النسبية بدل أن يلجأ إلى الله- صاحب النعم الحقيقي- ويتوكل عليه.

وتسعى النفس والشيطان إلى إبعاد الإنسان دائمًا عن الإنفاق في سبيل الله بإخافتهما له من الوقوع في الفقر، وهذه حقيقة وضَّحها

يقول أهل الحكمة:

«حين يموت العبد، يرى مصيبَتين في المال لم يرَ مثلهما قط:

أولاها خروج المال كله من يده، وثانيها خضوعه للحساب؛ من أين اكتسب ماله وأين أنفقه».

المولى ﷻ في قوله:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ...﴾ [البقرة: ٢٦٨]

لذلك فإن السخي الذي ينفق- دون التفات إلى همزات الشيطان وتخويفه إياه من الفقر- هو من أهل الشجاعة الذين خاطروا في سبيل الله ﷿. أي إن السخاء هو انتصار القلوب التي تنعم بالشجاعة الإيمانية، وفن الأفئدة الصالحة الكاملة.



وقد كانت أم المؤمنين خديجة ﵂ مثلًا يوضِّح لنا الشجاعة الإيمانية حين بذلت ثروتها كلها في سبيل الله ﷿ ورسوله ﷺ في وقت كان الإسلام فيه ضعيفًا غريبًا.

وخير مثل على الجلادة في الإيمان سيدنا أبو بكر الصديق ﵁ الذي ترك لعياله اللهَ ورسوله، وأنفق مرات كثيرة ماله وملكه كله، وقال ﵁ مُظهرًا حبه حين أثنى عليه النبي ﷺ:

«يا رسول الله، هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟».[١٤٨]

إن أولئك الصحابة وأمثالهم ممن قالوا: «فداك أبي وأمي وروحي يا رسول الله» لم يترددوا هنيهةً في المخاطرة والمشقات

١٤٨ انظر: ابن ماجه، مقدمة، ١١/ ٩٤.

في هذه الدنيا؛ بل لقد غدوا نجومًا برَّاقةً في سماء الإسلام بتلك الأفئدة القادرة على التضحية بكل ما تملك في سبيل الله تعالى، رضي الله عنهم أجمعين.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«اعطِ زكاة مالِك، فكلَّما قلَّم البستاني أغصان العنب، زاد عطاؤها».

[يبدو المال ناقصًا في الظاهر عند الإنفاق، لكن هذا الإنفاق في الحقيقة وسيلة للبركة في الدنيا والآخرة.

إذ جاء في الأحاديث الشريفة قوله ﷺ:

«ما نقصت صدقة من مال قط، ولا مدَّ عبد يده بصدقة إلا ألقيت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل...».[١٤٩]

«ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا».[١٥٠]

«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل».[١٥١]]

١٤٩ علي المتقي، كنز العمال، جـ٦، ٣٧٧/ ١٦١٣٤؛ الطبراني، المعجم الكبير، جـ١٤، ١٠٩.
١٥٠ البخاري، الزكاة، ٢٧/ ١٤٤٢؛ مسلم، الزكاة، ٥٧/ ١٠١٠.
١٥١ البخاري، الزكاة ٨؛ التوحيد ٢٣؛ مسلم، الزكاة ٦٣، ٦٤.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«البخيل يرى الدائن من بعيد ويعرفه».

«ومال الخسيس يخرج من التراب بعد أن يُدفَن هو فيه».

«الذهب والمعادن تخرج بالحفر، أما الذهب والمعادن الموجودة في يد الخسيس والشحيح والبخيل فال تخرج إلا بخروج الروح».

«يجمع البخيلُ المالَ بمشقة، ويكنزها بخسَّة، ويتركها بندامة وحسرة».

[يقول أهل الحكمة توضيحًا لهذه الحقيقة:

«حين يموت العبد، يرى مصيبَتين في المال لم يرَ مثلهما قط:

أولاها خروج المال كله من يده، وثانيها خضوعه للحساب؛ من أين اكتسب ماله وأين أنفقه».

وفي كلام أبي ذر رضي الله عنه الكثير من المعاني العميقة، فهو يقول:

«في المال ثلاثة شركاء: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم، وأنت الثالث، فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن فإن الله عز وجل يقول: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**...﴾ [آل عمران: ٩٢]، ألا وإن هذا الجمل مما كنت أحب من مالي، فأحببت أن أقدِّمه لنفسي».[١٥٢]]

١٥٢ أبو نعيم، حلية، جـ١، ١٦٣.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«ليست المعرفة والمهارة الحقيقية أن تملك الدنيا بين يدَيك، بل أن تعرف كيف تسعد القلوب».

[ما أفضل ما ينقله مالك بن دينار لذلك المؤمن الذي يبحث عن رضا الله تعالى: «قال موسى عليه السلام: يا رب أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم».[١٥٣]

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«فليبحث الحاجُّ عن صاحب البيت هناك، فبعد أن يجده، سيجد الكعبة في كل مكان».

إن الوسائل التي توصل العبد إلى ربه تعالى كثيرة كثرة الأنفاس، والمهم هو أن يحيا هذا العبد في إطار بحثه عن الوصال مع الحق سبحانه. ومن أفضل الطرق التي توصل إلى رضا الله تعالى تفريج الهم عن القلوب المتعبة التي تكون محل نظر الله تعالى.

١٥٣ أبو نعيم، الحلية، جـ٢، ٣٦٤.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«فليبحث الحاجُّ عن صاحب البيت هناك، فبعد أن يجده، سيجد الكعبة في كل مكان».

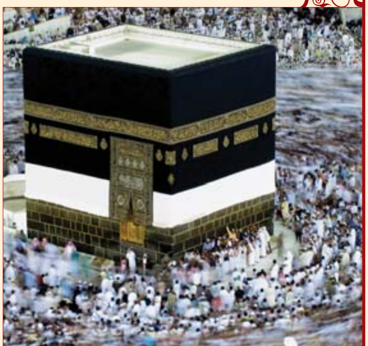
إن الوسائل التي توصل العبد إلى ربه تعالى كثيرة كثرة الأنفاس، ومن أفضل الطرق التي توصل إلى رضا الله تعالى تفريج الهم عن القلوب المتعبة التي تكون محل نظر الله تعالى.

ويعبِّر المُلا جامي عن هذه الحقيقة بقوله:

«أدخِل السرور في قلبٍ (يكون محل نظر الله)! فذاك هو الحج الأكبر».]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«إن كنت لا تريد لقلبك أن يعرف ما الهم والكرب، ففرِّج عن القلوب المكروبة».



[إن الأدعية الصادقة من القلوب المكروبة تكون شفاءً لهموم الناس الذين يقدِّمون يد العون لهذه القلوب. وأعظم كُرَب العبد المؤمن سلامتُه في الآخرة، ويبيِّن الحديث الشريف التالي الطريق إلى هذه السلامة والسعادة:

«من نفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن يسَّر على معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».[١٥٤]]

١٥٤ مسلم، الذكر، ٣٨/ ٢٦٩٩؛ ابن ماجه، مقدمة، ١٧.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«لا تذكر حاجتك لرجل عبوس أبله متجهم، لأنك تتأثر بطبيعته السيئة. ولكن إن كان لديك همٌّ، فعليك برجل صالح عطوف، لأنك تجد- على أقل تقدير- في وجهه الطلق الأمنَ والطمأنينة رأسًا».

«إن أردت شيئًا من دنيء يمنُّ عليك، فقد تكسب ماديًّا ولكنك تخسر معنويًا».

[حين تطلب شيئًا من رجل وضيع، فإنك تظن أنك قد كسبت شيئًا في تلك اللحظة إن هو أعطاك ما تبتغيه، غير أنك في الواقع قد نقصت من عزتك وشخصيتك؛ فنظراته وتصرفاته التي تبدي أنه يمنُّ عليك وفظاظته عند استرجاع دَينه تمحقك وتشعرك بالدونية، وهذا ما يجعلك تندم ألف مرة لقَبولك عونه.

لهذا السبب يجب على المؤمن أن يحفظ ماء وجهه ولا يمد يديه طالبًا العون من أحد كي يصون شخصيته ووقاره. وحين تجبره ظروف الحياة على طلب العون، فينبغي له أن يلجأ إلى المؤمنين الصالحين لا إلى غيرهم.

فعن ابن الفراسي، أن الفراسي قال لرسول الله ﷺ: أسأل يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ:

«لا، وإن كنت سائلًا لا بد، فاسأل الصالحين».[١٥٥]

١٥٥ أبو داوود، الزكاة، ٢٨/ ١٦٤٦.

فالصالحون يحذرون أشد الحذر من السلوك الذي قد يجرح مشاعر من يطلب عونهم. ويجدون لذة ما بعدها لذة حين يُطَمئِنون القلوب التي تكون محل نظر الله، ويكونون سندًا لمن لا حول لهم ولا قوة.

إن الإنسان يغلبه الإحسان، ويميل إلى حال من يرى منهم عونًا. لذلك ترى العارفين لا يطلبون البتة شيئًا من الكافرين والفاسقين.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«سمعت صاحب طريقة يقول لأحد مريديه:

(لو ارتبط الناس بالله تعالى كارتباطهم بأرزاقهم، لصاروا إلى مرتبة أسمى من مرتبة الملائكة)».

[يخضع الإنسان في هذا العالَم لامتحان، لذلك فإنه حين يتَّبع ملذَّات الدنيا لا أوامر المولى، ولا يعتقد أن كل شيء يمر عليه- خيرًا كان أم شرًّا- هو عبارة عن امتحان إلهي، ويقع في الجحود بنسيانه الرزاق وهو يركض وراء رزقه، فإنه- آنذاك- سيقع في غفلة نسيان ربه مسبِّب الأسباب، وسيرتبط بالأسباب الفانية في هذا العالَم الزائل.

وكلما زادت نسبة هذه الغفلة لدى الإنسان، ضعفت روحانيته، وقد يصير كالأنعام بل أضل. وكلما قلَّت نسبة هذه الغفلة، سما وارتقى، وقد يفوق الملائكة ذاتها في اللطافة والروحانية.

ولا شك أنه من الضروري الأخذ بالأسباب أثناء السعي وراء الرزق، غير أن نسيان الرزاق ﷻ والقلق بلا مبرِّر يُوهِن إيمان العبد بالله تعالى الذي تكفَّل بالرزق، يقول ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]

ويقول رسول الله ﷺ:

«لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا».[١٥٦]

لذلك يرى أولياء الله أن أكل رزق الرزَّاق مع نسيانه إسرافٌ عظيم وغفلة ما بعدها غفلة.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«لقد عصى كنعان أباه نوحًا عليه السلام، فما ازداد قدْره ولا كانت له قيمة- وهو ابن نبي- لأنه لم يكن ذا شخصية خاصة.

فاترك أصلك وعرقك ونسبك، وأظهِر مهارتك إن كانت لديك مهارة. فالوردة جاءت من شوكة، وسيدنا إبراهيم كان أباه آزر».

«رأيت أعرابيًّا يقول لابنه:

يا ولدي، يُقال لك يوم القيامة: (ماذا ربحت؟) لا (ما نسبك؟)

أي إنك تُسأَل عن عملك، ولا يُقال لك: (من أباك؟)».

١٥٦ الترمذي، الزهد، ٣٣/ ٢٣٤٤؛ ابن ماجه، الزهد، ١٤.

[جاء في الحديث الشريف:

«...من بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه».[١٥٧]

لقد كان النبي ﷺ يحذِّر دائمًا آل بيته، لا سيما فاطمة التي كان يحبها كثيرًا، من الميل إلى الدنيا، ويأمرهم كل حين بأداء الأعمال الصالحة والسعي في سبيل الآخرة. وكان مما ذكره لأهله في أيامه الأخيرة:

«يا فاطمة بنت رسول الله، يا صفية عمة رسول الله. اعملا لما عند الله، إني لا أغني عنكما من الله شيئًا».[١٥٨]

وعلى هذا الأساس نجد أن ما سينجي العبد لدى عرضه على ربه ﷻ هو درجة قربه من حال رسول الله والأولياء ومنهاجهم في الحياة، لا نسبه وعرقه. فقد كان أبو لهب عمَّ الرسول وأقرب الناس إليه من ناحية الرابطة بالدم، لكنه هلك في ظلمات الجاهلية لعدم إيمانه بالرسول ﷺ.

ونجد أن رسول الله ﷺ قد أثنى على سلمان الفارسي الذي لا تصله به أي قرابة، لكنه كان يحيا حياة مليئة بالتقوى، حين قال:

---

١٥٧ مسلم، الذكر، ٣٨/ ٢٦٩٩؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧.

١٥٨ انظر: ابن سعد، جـ٢، ٢٥٦؛ البخاري، المناقب، ١٣-١٤؛ مسلم، الإيمان، ٣٤٨-٣٥٣.

قال موسى عليه السلام:

«يا رب أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم».

«سلمان منَّا أهل البيت».[١٥٩]

لذا فإن القرب الحقيقي من عظماء الإسلام لا يرتبط بالقرابة بالدم، بل بالقرابة الروحية والحياة بأحاسيس الارتباط والانتساب إليهم في كل أمر، وهذا هو القرب الذي يجد منه العبد النفع يوم لا ينفع مال ولا بنون.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«مهما قرأت ومهما كنت ملمًّا بالعلوم، ستبقى جاهلًا ما لم يكن سلوكك يليق بعلمك [أي إن لم تكن هناك حياة مليئة بالتقوى]».



«أيغدو الحمار عالمًا إن حمَّلته بعضًا من الكتب؟ ذاك حيوان لا عقل فيه، ولا يدري ما يحمل على ظهره، أحطبًا أم كتبًا».

[تظهر حقيقة العلم بالعيش في سبيل رضا الله، والعلم الذي لا يُطبَّق في الحياة هو حِملٌ لا معنى له، فقد قال المولى ﷻ عن صاحب مثل هذا العلم:

﴿...**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**...﴾ [العنكبوت: ٦٠].

١٥٩ ابن هشام، جـ٣، ٢٤١؛ الواقدي، جـ٢، ٤٤٦-٤٤٧؛ ابن سعد، جـ٤، ٨٣؛ أحمد، جـ٢، ٤٤٦-٤٤٧؛ الهيثمي، جـ٦، ١٣٠.

والعلم يكون علمًا نافعًا إن كان يسوق المرء إلى الحقيقة، والخير، والتقوى، والعمل الصالح. وإن لم يكن كذلك، فهو علم لا طائل منه، لإن إبليس وقارون كان لديهما علم، لكنهما جعلا العلم وسيلة لإشباع الأنانية، فانجرًّا إلى مستنقع الغرور والكِبر والنفسانية.

ولا يكفي تخزين العلم في الذهن، بل المهم في الأمر أن يؤدي النضجُ في العلم إلى نيل شخصية مثالية، وبهذا يُجسِّد العلم الأعمال الصالحة عبر تحوله إلى معرفة. أما العلم الذي لا يوجِّه السلوك نحو الاستقامة فهو ليس إلا حمل ثقيل لا نفع منه.

يقول رسول الله ﷺ:

«اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها». [١٦٠]

اللهم اجعلنا ممَّن يأخذون دروس الحكمة الضرورية من مدرسة الحكمة التي نعيش فيها، واجعل هذه الدروس تنعكس على أحوالنا وسلوكنا يا رب العالمين.

آمين!

١٦٠ مسلم، الذكر، ٧٣/ ٢٧٢٢؛ النسائي، الاستعاذة، ١٣، ٦٥.

الشيخ

سعدي الشيرازي

رحمة الله عليه

ـ٢ـ

إن من أعظم المؤثرات في روح الإنسان:

١. درجة الحلال في اللقمة التي تدخل فمه.

٢. والحال الروحانية لمن يصاحبهم.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«ترى الناس يمسحون وجوههم بستار الكعبة ويقبِّلونه. وهذا الستار الحريري لم يكن ذا قيمة من قبل لإنه في الظاهر من شرنقة دودة القز، لكنه حين وُضِع على جدران الكعبة صار عزيزًا على قلوب الناس أجمعين».

[إن القرب من كائن مقبول لدى ربه ﷻ يرفع حتى من قيمة الجمادات نفسها. ولا شكَّ أن هذه القاعدة تنطبق أكثر على الإنسان الذي كرَّمه الله على المخلوقات كلها ورفع شأنه.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]

والناس أينما كانوا يشبهون بعضهم بعضًا من ناحية البدن شبهًا تامًّا أو جزئيًّا، لكن ماهية عالمهم الداخلي تتكون وفق شخصية أولئك الذين يتبادلون معهم المحبة والألفة والأُنس. فمن يكون مع الصالحين والصادقين يقتبس من فيوضات روحانياتهم على حسب استعداده. ومهما كانت فيه من مثالب، تراه يزداد قيمةً لقربه ومحبته الخالصة لهؤلاء المقبولين المُحترمين في إطار مشاعر الانتساب لهم.

وعلى العكس تمامًا، لا بد أن تسري العادات والأمور السلبية في أولئك الذين لديهم مشاعر محبة وإعجاب- لغفلتهم- تجاه الفجَّار والفَسَقة مهما كان حجمها. إذًا يجب على الإنسان أن ينتبه إلى الأمكنة التي يكون فيها وإلى الأشخاص الذين يكون معهم بسبب انتقال الحال بين المخلوقات والقلوب، فهذا الشأن هو الذي يحدد نيل الإنسان الدرجات المعنوية أو خسرانها.

ويوضح الشيخ سعدي الشيرازي كيف يغير انتقال الأحوال حياةَ المرء المعنوية عبر المثال التالي:

«لقد نال قطمير- كلب أصحاب الكهف- شرفًا عظيمًا لصحبته الصادقين، وصار له ذكر في القرآن الكريم.[١٦١] أما زوجة سيدنا نوح وزوجة سيدنا لوط فقد دخلتا النار بسبب تعاطفهما مع الفاسقين وصحبتهما إياهم[١٦٢]».

وينبغي ألا ننسى أن من أعظم المؤثرات في روح الإنسان:

١. درجة الحلال في اللقمة التي تدخل فمه.

٢. والحال الروحانية لمن يصاحبهم.

وكان أهل التقوى يرون أنه لا يجوز حتى السير في ظل الأماكن التي تُرتَكب فيها المحرمات والمكروهات ما لم يكن ذلك لزامًا، خوفًا من خطر انعكاس القسوة على القلب من تلك الأماكن.

١٦١ انظر: الكهف، ١٨.

١٦٢ انظر: التحريم: ١٠.

وإظهار هذه الدقة تجاه أماكن المعصية كلها ضرورة من ضرورات «التقوى»، فالقاعدة الأولى في الحذر من المحرمات هي عدم الاقتراب منها.

وقد أسرع النبي ﷺ في حجة الوداع حين دخل وادي محسر بين منى ومزدلفة، لأن أصحاب الفيل هلكوا هناك.[١٦٣]

فلا يجوز الوقوف في هذا الموضع في الحج. وقد أسرع النبي ﷺ أيضًا حين مرَّ أثناء عودته من غزوة تبوك على الموضع الذي هلك فيه قوم ثمود.[١٦٤]

نجد إذًا أن تجليات الرحمة والقهر تسري حتى في الجمادات والأماكن. لذلك وجبت الاستفادة الروحانية من تجليات الرحمة في الكعبة الشريفة والمساجد ومجالس الصالحين، والهرب من أماكن المعاصي والذنوب التي يتجلى عليها القهر الإلهي.]

---

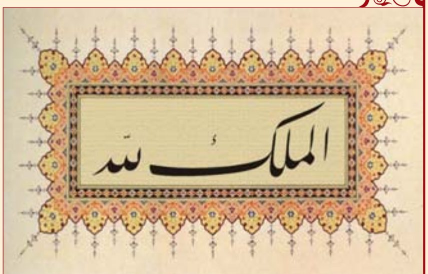
١٦٣ النووي، شرح مسلم، جـ١٨، ١١١؛ ابن القيم، جـ٢، ٢٥٥-٢٥٦.
١٦٤ انظر: البخاري، الأنبياء، ١٧.

كان أهل التقوى يرون أنه لا يجوز حتى السير في ظل الأماكن التي تُرتكب فيها المحرمات والمكروهات ما لم يكن ذلك لزامًا، خوفًا من خطر انعكاس القسوة على القلب من تلك الأماكن. وإظهار هذه الدقة تجاه أماكن المعصية كلها ضرورة من ضرورات «التقوى»، فالقاعدة الأولى في الحذر من المحرمات هي عدم الاقتراب منها.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«أدخِل السعادة في قلوب الفقراء والمساكين والمحتاجين أيام رخائك، فذاك يردُّ البلاء عنك. وإن عرض عليك محتاجٌ حاله وطلب منك شيئًا، فأعطه؛ لأنك إن لم تعطه، يُسلَّط عليك ظالم يأخذ منك ذاك الشيء قهرًا».

[المُلك في الإسلام لله تعالى، وهو أمانة لدى العبد يمتحنه الله بها. غير أن المحرومين من فراسة الإيمان يغفلون عن حقيقة أن هذا المُلك هو مجرد امتحان إلهي.



يقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾

[الفجر: ١٥-١٦]

لذلك يجب على المؤمن حين ينال نِعم الله أن لا يُطلق العنان لنفسه الأمَّارة، بل عليه أن يؤدي الشكر الفعلي بالإنفاق في سبيل الله، والشكر القولي بذكره سبحانه.

ويجب على المؤمن أن لا يعصي ربه حين يضيِّق عليه رزقه امتحانًا له، بل يتوجه إلى ربه بالصبر والشكر والرضا كي ينال

الدرجات العليا في الروحانية. فالله تعالى يدعو عباده الراضيين إلى جنته بقوله:

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨]

ويجب على المرء أن لا ينسى الحساب في الآخرة ومسؤوليته عن النعم والإمكانات التي أكرمه بها الله تعالى، لا سيما في أيامنا هذه التي يزداد فيها الإسراف، ويصل الاستهلاك إلى حد الجنون. وينبغي أن يتذكر المرء دائمًا حقوق المساكين والفقراء والمحتاجين التي وضعها الله تعالى في الثروات، فإن لم ينفق المرء طوعًا، فليرتقب المصائب والبلايا التي ستحل عليه.

لذلك يعد إنفاق المرء بقلب مطمئن سلوكًا عقلانيًّا منطقيًّا ما دامت الفرصة متاحة أمامه.

فالله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم مخاطبًا إيَّانا:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

[المنافقون: ١٠-١١].]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«الجميل من يحبه الفؤاد.

فالإنسان إن لم يشعر بالمحبة تجاه امرئ ما، سيبدو له قبيحًا حتى لو كان جماله كجمال سيدنا يوسف عليه السلام».

[لقد كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرة محبة عميقة، فكان على قربه منه يشعر بشوق كبير إليه، وما كان يشبع من التأمل في وجهه الكريم صلى الله عليه وسلم. أما أبو جهل الذي اسودَّ قلبه نتيجة غيظه وعداوته للنبي صلى الله عليه وسلم فكان حاله عكس حال أبي بكر رضي الله عنه.

وهذا يعني أن العين بمثابة النظارة للقلب الذي يعد الأساس في عملية النظر، وأن معنى الأشياء التي تُرى يتغير بتغير حال القلب المعنوية.

ولنا في قصة مجنون ليلى خير مثل، فحين رأى السلطان ليلى شُدِهَ وقال:

العين بمثابة النظارة للقلب الذي يعد الأساس في عملية النظر، فقد كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرة محبة عميقة، فكان على قربه منه يشعر بشوق كبير إليه، وما كان يشبع من التأمل في وجهه الكريم صلى الله عليه وسلم.
أما أبو جهل الذي اسودَّ قلبه نتيجة غيظه وعداوته للنبي صلى الله عليه وسلم فكان حاله عكس حال أبي بكر رضي الله عنه.

«أأنتِ ليلى التي ذهبَتْ بعقله وجعلَتْه يجول في الصحارى؟ وأنا لا أرى أي فرق بينك وبين بنات جنسك!»

فأجابته ليلى: «إنك لا تنظر إليَّ بعينَي قلبه.»

فلا يمكن لأي امرئ أن يرى جمال ليلى ما لم ينظر إليها من نافذة قلب مجنونها. فمحبة مجنون ليلى كانت محبة قوية جعلته يراها جميلة من رأسها إلى قدمها، وغدا هذا الجمال المجازي درجة ترفعه نحو العشق الإلهي؛ فبلوغ الجمال الحقيقي منوط برؤية تجليات العظمة والقدرة الإلهية في الكون بمشاعر إيمانية من نافذة المحبة الموجودة في القلب.

وما المخلوقات التي خلقها الله تعالى بدافع المحبة إلا تجليات أسمائه الحسنى، ولا يمكن لتجليات الأسماء الحسنى أن تكون قبيحة، ويقبل المؤمنون من أهل المحبة الذين يحيون بعشق إيماني كلَّ ما يقدِّره الله تعالى بمحبة، فليس في نظرهم كائن في الكون خُلق عبثًا دون حكمة، لذا تجدهم أصحاب قلوب مطمئنة آمنة في أحوالهم كلها.

أما المحرومون من المحبة الحقيقية نتيجة وقوعهم أسْرى رغباتهم النفسانية فيرون الجمال الحقيقي قباحة، ويظنون السعادة الحقيقية دناءة وسفالة، ولا يتخلصون من الشكوى والتذمر وسوء الخلق والصراعات، فلنعلم جيدًا أن علة انعدام الطمأنينة إنما هي نقص المحبة الحقيقية.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«إن خشي الغواص التمساحَ في النهر وسمك القرشَ في البحر، فلن ينال اللآلئ».

[إن قيمة النجاح في أمر ما ترتبط بالصعوبات التي يواجهها المرء في سبيل الوصول إليه. فالمؤمن الذي يرجو رضا الله تعالى ودخول جنته ورؤية جماله سبحانه، يجب عليه في البداية أن يخوض معركةً ضارية ضد النفس والشيطان، وحين ينبغي له الاختيار بين رضا ربه ورغبات نفسه، يجب أن يرمي مصالح النفس بمحبة إيمانية؛ فلكل نعمة ثمن، والإيمان أعظم هذه النعم، فمن الضروري دفع ثمنها للمولى جَلَّ جَلَالُهُ.



إن التضحية هي ميزان المحبة. ولا يُقاس الإخلاص في المحبة ودرجتها إلا بالتضحية من أجل الحبيب، والدخول في الأخطار حين اللزوم. فيجب على المؤمن الذي يحب الله تعالى حبًّا مطلقًا أن يُضحِّي بكل ما لديه في سبيله سبحانه وتعالى في أوقات الضرورة.

ولهذه الحقيقة مظاهر لا تحصى ولا تستقصى نراها في حياة النبي ﷺ والصحابة الكرام والسلف الصالح.]

«يقول الشيخ سعدي الشيرازي مشرحًا بُنية القلب لدى الإنسان في ثلاثة أصناف:

١. يحافظ الشخصان من أهل القلوب حتى على الشعرة بينهما ولا يقطعانها.

٢. وهذا ما يفعله الاثنان إذا كان أحدهما فظًّا والآخر صاحب عقل سليم.

٣. أما إذا كان الاثنان جاهلَين، فسيكسران كل شيء بينهما حتى لو كانت سلسلة قاسية».

«يأكل عشرة رجال الطعام في مائدة واحدة، لكن لا يتفق كلبان على جيفة».

[من خصال المؤمن الكامل أنه قادر على الألفة مع غيره، يقول رسول الله ﷺ:

«المؤمن مؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».[١٦٥]

والله ﷻ يطلب من المؤمنين أن يكونوا كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.[١٦٦] والمقصود هنا هو تلافي المرء عيوب أخيه المادية والمعنوية، والستر على العيوب والنواقص والعفو عنها، والمشاركة في السراء والضراء، وأن يكون عونًا لا حِملًا، وأن يتواصى مع أخيه

١٦٥ أحمد، جـ٢، ٤٠٠، جـ٥، ٣٣٥.

١٦٦ انظر: السيوطي، جامع الأحاديث، رقم: ٢١٠٢٨.

دائمًا بالحق والخير، ويحذر كلاهما من الباطل والشر، ويُحييا الإخوة في الدين في الأحوال كلها، وذلك بترك الجدال الذي يقوم على أساس «أنا على حق ولست أنت» كي لا يتحول الاختلاف إلى خصومات وعداوات. فالأمر الإلهي في هذا الموضوع واضح جلي حين قال سبحانه وتعالى:

﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]

لقد خلق الله تعالى كل إنسان وجعله مختلفًا في عالمه الداخلي عن غيره، لهذا السبب من الطبيعي أن يقع الاختلاف في وجهات النظر في المجتمع، لكن المهم في هذا الشأن هو ألا يُؤذَن للخصومات والنزاعات أن تأخذ موضعًا في القلوب، وذلك بالمقاربة بين الأفكار المختلفة بروح الأخوة التي علَّمنا إيَّاها الإسلام.

إن السبب في زيادة معدلات الطلاق زيادة مروعة في مجتمعنا هذه الأيام، وانعدام الأخلاق، وقلة الصبر، وكثرة الجدالات والنزاعات، وانعدام الطمأنينة، هو قلة أهل القلوب والطمأنينة الذين يؤْثِرون على أنفسهم.

وبسبب نقص التربية المعنوية، ترى النفوس قد أُطلق لها العنان، والناس يحيون حياة كلها أنانية ومصالح وانتهازية، وهذا ما ينشر السموم في مشاعر الأخوة والصداقة والصحبة.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«لا يتعكر صفو البحر الواسع بحجر قذر. والمؤمن الذي ينكسر خاطره كالمياه الضحلة».

«إن المؤمن القريب من ربه والذي نال نصيبه من المعرفة لا ينكسر ولا يستاء إن رأى دناءة من الجاهلين المحرومين من الأدب».

«قد يكسر الحجرُ طبقًا ذهبيًا، لكن لا تزيد قيمته ولا تنقص قيمة الذهب».

[إن إساءة الجاهلين ذوي القلوب الفظة بالكلام على العارفين الناضجين لا يُنقِص شيئًا من قيمتهم.

ولا يخفى على أحد أن بركة المياه الصغيرة الضحلة تتعكر بأصغر قاذورة تُرمَى فيها، أما البحر الزاخر فلا يتعكر صفوه بسهولة، لا بل يُطهِّر الأشياء القذرة التي تُلقى فيه.

ولا يمكن للسلوك الفظ والتصرفات الدنيئة المهينة للغافلين والجهلة أن تؤثر البتة في قلب المؤمن الكامل الذي يشبه قلبه البحر في سعته وعمقه.

والحادثة التالية خير مثال لهذا الأمر:

ذات مرة أرسل السلطان أحمد خان هدية قيِّمة لأستاذه الذي كان يحبه كثيرًا وهو الشيخ هُدائي، لكن الشيخ لم يقبل الهدية إذ لم يكن عهده أخذ الهدايا من رجال الدولة. فأرسل السلطان الهدية

التي خرجت من عهدته إلى أحد شيوخ ذلك العصر وهو الشيخ عبد المجيد السيواسي، فقبِلها. وأثناء زيارة السلطان للشيخ سأله:

«يا شيخي، لقد أرسلت هذه الهدية إلى الشيخ هُدائي قبل أن أرسلها إليك، فلم يقبلها، وقبلتها أنت!»

فأجابه الشيخ السيواسي الذي فهم مقصود السلطان إجابة مليئة بالحِكم:

«يا مولاي، إن الشيخ هُدائي عزيز النفس يأبى أن يأخذ السفاسف».

فسُرَّ السلطان بهذا الجواب، وبعد مضي عدة أيام، زار السلطان الشيخ هُدائي وسأله:

«يا شيخي، لقد قبِل الشيخ عبد المجيد الهدية التي لم تقبلوها».

فأجابه الشيخ هُدائي بوجه متبسِّم:

«يا مولاي، إن الشيخ عبد المجيد بحر، ولن يتعكر صفو هذا البحر الواسع إن سقط فيه شيء قذر».

تعرض رسول الله ﷺ كثيرًا لفظاظة الجهلة وسيئي الخلق، ولكنه كان يملك قلبًا كاللجة الواسعة يفيض رحمة ومحبة، فما تأثّر بسلوكهم، بل كان يحزنه حال هؤلاء.

ولم يدعُ على أهل الطائف بالهلاك حين رموه بالحجارة، بل لقد دعا لهم بالهداية والسلامة.

ومن الأقوال المشهورة التي كان يتداولها الناس: «قد تُرجَمُ الشجرة المثمرة». فلا بد حينئذ أن يكون المؤمن الكامل مستعدًّا لتلقي الحجارة التي قد تصيبه.

وقد تعرض رسول الله ﷺ كثيرًا لفظاظة الجهلة وسيئي الخلق، ولكنه كان يملك قلبًا كاللجة الواسعة يفيض رحمة ومحبة، فما تأثَّر بسلوكهم، بل كان يحزنه حال هؤلاء. وما كان يعبأ بما يلقاه بعد أن رضي عنه ربه، وكان جلُّ اهتمامه منصبًّا على رضاه ﷻ، لا على ما يلقاه من الناس من المدح والثناء أو الذم والاستهزاء. ولهذا السبب لم يدعُ على أهل الطائف بالهلاك حين رموه بالحجارة، بل لقد دعا لهم بالهداية والسلامة.

ويجب على المؤمن الصالح أن يلقى من يرى منهم الأذى والجفاء بعقل راجح وقلب سليم، ويعفو عنهم بدل أن يغضب عليهم، وأن ينظر إليهم بنظرات الرحمة، ويدعو لهم بالخير.

وقد كان منصور الحلاج يدعو حين كان يرجمه أولئك الذين لم يفهموا مقصوده قائلًا:

«يا رب، اعفُ عمَّن يرجمني قبل أن تعفو عني».

يقول الله تعالى مبيِّنًا بعضًا من مناقب عباده الصالحين:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]

إن من لا يُظهِر هذا النضج والإدراك ويسعى للانتقام الشخصي حين يُساء إليه هم أولئك الذين يفهمون الأمور فهمًا سطحيًا، والبعيدون أشد البعد عن النضج المعنوي.

لهذا السبب كان الدرس الأول في بداية التصوف الذي يعد سبيلًا إلى النضج المعنوي هو «أن لا تؤذي أحدًا» والدرس الأخير فيه «أن لا تتأذّى من أحد».

وما أجمل قول الشاعر حين يلخِّص معنى ما ذكرناه:

أيها العاشق،

غاية الإنس والجن في هذه الدنيا

أن لا تُؤذي أحدًا ولا تتأذّى من أحد]

يقول الشيخ سعيد الشيرازي:

«لا يمكن الدخول إلى الجنة بالحيلة، فقناع الوجه سيسقط غدًا».

[إن المجرمين الذين يظنون أنهم قد نجوا بإخفائهم جرائمهم وذنوبهم في هذه الدنيا بالحيل والمكر لن يجدوا أي مبرر غدًا حين يُعرَضون أمام الله تعالى أحكم الحاكمين في المحكمة العظمى يوم القيامة، ولن يستطيعوا إخفاء ما اقترفوه من ذنوب بالمراوغة، ولا

سترَ وجوههم الحقيقية بأي قناع. فذاك يوم تُبلَى فيه السرائر، وتشهد على الإنسان جوارحه.

يقول المولى ﷻ في كتابه العزيز:

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ. فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩-١٠]

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢١]

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]

ولا بد أن نذكر هنا أننا سنحاسب يوم العرض الأكبر على أعمالنا كلها، والنِعم التي كنا نتقلب في أحضانها في الدنيا، وصمتنا حين كان واجبًا علينا الكلام، وكلامنا حين كان واجبًا علينا الصمت،

وعباداتنا وأعمالنا الصالحة أكانت خالصة لله، أم كان فيها رياء ونيَّات أخرى. وسنرى آنذاك عالمنا الداخلي وحالنا الحقيقية بأجلى صورة.

يقول سيدنا عمر رضي الله عنه:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا».[١٦٧]

فيجب علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن تقوم القيامة، ونسعى من يومنا هذا لتبييض دفتر أعمالنا عبر تفكرنا في ذلك اليوم العصيب، ففي ذلك اليوم لا يمكن الاستغفار للذنوب، ولا المسامحة في حقوق العباد.

والخلاصة هي أن اليوم هو يومنا هذا، والزمان زماننا هذا، والفرصة هي الفرصة التي بين يدينا الآن، فلنغتنمها قبل فوات الآوان]

اللهم اجعلنا ممن يأخذون كتابهم بيمينهم يوم العرض الأكبر، واجعل تلك السطور التي تدوِّنها الملائكة في سجل أعمالنا مليئةً بالخيرات والحسنات والأعمال الصالحات!

آمين!

١٦٧ ابن كثير، تفسير، جـ١، ٢٧.

الشيخ
سعدي الشيرازي
رحمة الله عليه
-٣-

القدرة على الاستقامة في ضوء الحقائق الإلهية هي الفلاح لمن في روحه جوهرة مكنونة. وحتى لو أمطرت السماء ماء الحياة فلن ينال المحرومون من الروحانية قطرة منها، كالصخرة الملساء لا تنتفع من قطرات المطر المتساقطة عليها.

الشيخ سعدي الشيرازي (رحمة الله عليه) -٣-

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«يبدأ العدو بإظهار صداقته حين يقف عاجزًا عن نيل ما يريد بالحيل، ثم يأتي بأفعالٍ تحت اسم الصداقة، لا يمكن حتى للعدو أن يأتي بها».

[أشد أعداء الإنسان عدوَّان: إبليس والنفس. يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿**وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ [الزخرف: ٦٢]

﴿...**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**...﴾ [يوسف: ٥٣]

حين لا تستطيع النفس والشيطان خداع المؤمن وإبعاده عن طريق الحق وجرِّه إلى الذنوب والمعاصي، فإنهما يغيِّران طريقة تعاملهما معه ويَظهران له بصورة الحق. فقد كان من قول إبليس للمولى عز وجل:

﴿...**لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الأعراف: ١٦]

أي إن إبليس لا يكتفي بأداء وظيفته في دعوة الناس إلى طرق الضلال فحسب، بل يقعد للإنسان في كل زاوية من زوايا حياته حتى في الصراط المستقيم.

فعلى سبيل المثال، قد لا يعيق الشيطانُ المرءَ إذا أراد بناء مسجد أو مؤسسة خيرية، لكنه يوسوس للمرء كي يُطلقَ اسمه على ذلك المسجد أو المؤسسة، فيسعى إلى إضاعة الأجر بإفساد الإخلاص في العمل بالرياء والشهرة والكِبر.

وقد يوسوس الشيطان للإنسان الذي لم يستطع صده عن الصلاة بقوله:

«ما أحسن صلاتك! إن لم تُقبَل صلاتك فصلاة من تُقبَل إذًا؟ انظر إلى غيرك كيف يصلُّون صلاتهم بغفلة...»



ومن خلال هذه الوساوس يجر الشيطان الإنسان نحو الكِبر والغرور. أو قد يُشغِل المؤمن في صلاته بأفكار دنيوية، فيُفسد عليه عبادته، ولا يبقى من العبادة إلا الظاهر. أو يوسوس للعبد أن صلاته غير مقبولة فيوقِعه في اليأس، أو يجعله يقبل فكرة أن عدم أداء الصلاة أبدًا خير من أدائها غير مقبولة. وبذلك يصول الشيطان على الإنسان من كل جانب كي يُبعِده عن العبادة خطوة خطوة.

وثمة حيل مشابهة كثيرة للنفس والشيطان، فيجب على المؤمن أن يحتمي بالفراسة والبصيرة من مكائدهما، ويستعيذ بربه دائمًا منهما.

ويجب أن نتذكر أنه من السهل اتخاذ تدابير الحماية والوقاية تجاه العدو الظاهر، لكن المهم هو عدم الغفلة عن الأعداء الذين يتقنعون بقناع الصداقة والمحبة، فالقِلاع غالبًا ما تنهار من الداخل.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«حين حضرَت أبي المنيةُ قال لي ناصحًا:

(يا بني، إياك والشهوة فهي نار تحرقك. ولا توقدنَّ لنفسك نارَ جهنم، فإن لم تكن لديك طاقة لتتحمل تلك النار، فأطفئها بالماء بصبرٍ من يومك هذا)».

[الشهوة هي رغبات النفس الحثيثة وأهواؤها بأنواعها كافة. ومما تشمله الشهوة الطغيان والحرص على متاع الدنيا مثل المال والمقام والموقع والشهرة والولع بالجنس ولعًا يتجاوز الحدود، وهذه الأشياء امتحانات مهمة يمر عليها الإنسان الغافل فتُبعده عن شرف إنسانيته وغاية وجوده الحقيقية . إن الهزيمة أمام النفس الأمارة وعدم الصبر أمام هذه الامتحانات تجعل الحياة الأبدية حياةً يتجرع فيها العبد العذاب الأليم من أجل لذّات مؤقتة ومنافع فانية.

وقد كان بهلول دانا يسعى إلى تنبيه الناس– لا سيما الخليفة هارون الرشيد– وإرشادهم بنصائحه المليئة بالحِكم. وكان الخليفة هارون يحب فيه إخلاصه، ويأذن له بدخول قصره. فغاب عنه بهلول حينًا، ومضت الأيام وبهلول لا يزوره.

وحين التقى هارون الرشيد به سأله:

«لقد غبت عنَّا طويلًا يا بهلول، فأين كنت؟»

فأجابه بهلول:

«أُريتُ جهنم وأحوالها».

فقال هارون مندهشًا:

«وكيف دخلتها؟ ألم تحرقك نارها؟»

فأجابه بهلول إجابة مليئة بالعبر جعلت الخليفة يقف مشدوهًا:

«كلا، ما رأيت نارًا هناك، فكل امرئ يأتي بناره من دنياه!»

من أجل هذا كله، إن أردنا أن نجعل حياتنا وسيلة لسعادة أبدية لا لعذاب خالد، فيجب علينا أولًا أن نتحلى بالصبر حتى خروج نفَسنا الأخير، ونكون أصحاب دراية كي نستطيع أن نقول لرغباتنا النفسانية: قفي.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«ترى في كل إنسان قالبًا وهيئةً خاصة به. والإنسانية لا تُحدَّد بذلك القالب والكسوة، بل بالعظمة والجود والإيثار. والصورة لا تكفي، بل المهم السيرة [أي العالم القلبي]. فيجب على الإنسان أن يكون صاحب معرفة وفضيلة [أي ذا قلب رقيق حساس]. فإن لم يكن ذلك في الإنسان، فينبغي حينئذ أن نطلق اسم (إنسان) على

الصور المرسومة بألوان مختلفة على الجُدُر. وإن لم يكن لدى الإنسان معرفة وفضيلة ورحمة وكرم وإحسان، فما الفرق إذًا بينه وتلك الرسومات؟»

[ليس ما يجعل الإنسان إنسانًا مظهرُه الخارجي، بل قدرته على إبراز شخصية قادرة على المنافسة من أجل شرف الإنسانية ونبلها. وكما أن الإنسان قد يصل بأحواله وسلوكه إلى درجة أعلى من درجة الملائكة نفسها، فقد يسقط إلى مستوى يكون فيه أضل من الأنعام ذاتها. لهذا جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».[168]

ويوضِّح الله تعالى أن قيمة العبد عنده لا تكون وفقًا لأحواله الظاهرية والمادية، بل وفقًا لأحواله المعنوية:

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ [الحجرات: ١٣]

والتقوى لا ترتبط بالبدن بل بالقلب، لهذا فإن إعطاءَ الأهمية للمظاهر الخارجية والاعتماد على المال والمنصب والمقام يُطلِقان العنان للنفس بإضعاف روحانية القلب. فالإنسان إذًا ينال قيمة لدى الله تعالى بمقدار ما يزيِّن عالمه الداخلي بالتقوى، ويقوِّم سلوكَه بالأخلاق الحميدة والأعمال الصالحة.

١٦٨ مسلم، البر، ٣٤/ ٢٥٦٤.

ويقول يونس أَمْرَه عن أولئك الذين لم يدركوا حقيقة الإسلام كما ينبغي، ولمَّا يصلوا إلى الرقة الروحانية، وحصروا التدين بالشكل واللباس دون السلوك والعمل.

ليست الدروشة بخرقة ولا سبحة

فدرويش القلب لا يحتاج لخرقة]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«حتى لو أمطرت السحب ماء الحياة، فإنك لن تستطيع أن تأكل ثمرةً من شجرة الصفصاف لأنه لا ثمرة لها. ولا تجالس دنيئًا فاسدًا [أعمى القلب]، لأنك لن تجد السكر في قصب الحصير».

[لا يمكن لأعمى القلب أن يأخذ نصيبًا من الحِكم الإلهية ولا تحويلها إلى أعمال صالحة. وكما أن المرء الذي يُغلق عينَيه بأصبعَيه لا يرى شيئًا، فإن الذي يتَّبع هوى نفسه ورغباتها ويتحول قلبه إلى سجن مظلم سيقع في أشد ضروب عمى الإدراك عاقبة.

لذلك فإن القدرة على الاستقامة في ضوء الحقائق الإلهية هي الفلاح لمن في روحه جوهرة مكنونة.

وحتى لو أمطرت السماء ماء الحياة فلن ينال المحرومون من الروحانية قطرة منها، كالصخرة الملساء لا تنتفع من قطرات المطر المتساقطة عليها.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«لولا همُّ المعدة ما وقع طيرٌ في المصيدة».

[إن من أعظم أسباب المصائب التي تحل بالإنسان «الحرص». ويوضِّح مولانا جلال الدين الرومي هذه الحقيقة بالتشبيه التالي:

«كم من سمكة كانت آمنة من كل مكروه في الماء أمسكتها الصنارة بسبب طمعها».

والإنسان في هذا الامتحان الدنيوي كهذي السمكة قد يصادفه طُعمٌ فيصير فريسة، فالغافل الشره الذي يرى الطُعم ولا يرى الصنارة يجرُّ نفسه إلى الهلاك من أجل لذة مؤقتة. وهذا هو حال العبد الذي نسي ربَّه وغدا أسير رغباته النفسانية.

والخلاصة هي أن الشهوات النفسانية تضع حجابًا أمام عينَي القلب، فتنشر السموم في دنيا الإنسان وآخرته.]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«العنب في أوله يكون حامضًا، ثم يغدو حلوًا إن صبرت عليه بضعة أيام».

«قد يبدو الصبر علقمًا في بدايته، ولكنه ما إن يصير طبعًا وسجية حتى يكون ألذ من العسل».

[الصبر موضوع لامتحان عظيم شاق. والصبر مرٌّ في جانبه الدنيوي، مليء بالمكافآت الإلهية في جانبه الأخروي. فالله تعالى

يمتحن عباده الذين يحبهم، فيضعهم داخل طوق من المصائب، وأولئك المعرَّضون لأشد الامتحانات هم الأنبياء والمؤمنون الصالحون على حسب قربهم من المولى ﷻ، يقول رسول الله ﷺ:

«... **قد أوذيت في الله وما يؤذى أحد...**».[١٦٩]

فما أكثر المصائب التي تعرض لها النبي ﷺ، فقد وضع سفهاء المشركين على رأسه سلى الجزور وهو ساجد أمام الكعبة، ورموه بالحجارة في الطائف، وتوفي ستة من أولاده السبعة في حياته. لكن النبي ﷺ لقي تلكم الألاقي كلها بصبر عظيم ورضا وتوكل، فكان أحسن أسوةٍ لأمته.

ونخلص من هذا كله أنه كلما زاد قرب العبد من ربه، زاد صبره على تجليات الامتحانات الإلهية، وغدت الآلام في سبيله تعالى حلوة، والأعباء نعمة، والمشقات رحمة.]

---

١٦٩ الترمذي، القيامة، ٣٤/ ٢٤٧٢.

الصبر مرٌّ في جانبه الدنيوي، مليء بالمكافآت الإلهية في جانبه الأخروي. فالله تعالى يمتحن عباده الذين يحبهم، فيضعهم داخل طوق من المصائب، وأولئك المعرَّضون لأشد الامتحانات هم الأنبياء والمؤمنون الصالحون على حسب قربهم من المولى ﷻ. فكلما زاد قرب العبد من ربه، زاد صبره على تجليات الامتحانات الإلهية، وغدت الآلام في سبيله تعالى حلوة، والأعباء نعمة، والمشقات رحمة.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«لا يرضى الله عن عبد لا يرضى بنصيبه».

[إذا أردنا أن نصل إلى رضا الله ﷻ، فيجب علينا أولًا أن نرضى بما قسمه لنا ربنا تعالى. وعلينا أيضًا أن نطمئن به سبحانه، ونحقق الوصال معه بقلب مطمئن بصحبته جلَّ وعلا. ولا بد أن ننقش على قلوبنا الحكمة التي وردت في الحكم العطائية، وهي:

«يا رب، ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟»



فالعبودية الحقيقية هي:

- فن الرضا بما قسمه لك المولى ﷻ.
- ومهارة البقاء محبوبًا عند الله تعالى كل زمان ومكان.
- وإبداع القدرة على نسيان الشكوى والتذمر دون إفساد التوازن أمام تغير الظروف، وتقلبات الحياة، وظهور المفاجآت.

فقد وصل سيدنا أيوب عليه السلام إلى درجة غدا فيها وكأنه «يرحِّب» بالمحن والمصائب، فقال عنه المولى ﷻ:

﴿...نِعْمَ العَبْدُ...﴾ [ص: ٣٠]

ويقول ﷻ في كتابه العزيز أيضًا:

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

إن الغيب لا يعلمه أحد إلا الله سبحانه وتعالى، ولأننا لا نطَّلع إلى حقيقة الحوادث التي نصادفها، فيجب علينا أن نُظهِر التوكل والتسليم للمولى ﷻ في تلك الحوادث التي تبدو وكأنها مصائب في الظاهر. فالعباد الذين يحبهم الله تعالى ويرضى عنهم هم أولئك العباد الصالحون الذين يرضون بما قدَّره لهم ربهم في كل حال من أحوالهم.

يقول نبينا ﷺ:

«من قال حين يمسي: رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، كان حقا على الله أن يرضيه».[١٧٠]

---

١٧٠ الترمذي، الدعوات، ١٣/ ٣٣٨٩.

العبودية الحقيقية هي:

- فن الرضا بما قسمه لك المولى ﷻ.
- ومهارة البقاء محبوبًا عند الله تعالى كل زمان ومكان.
- وإبداع القدرة على نسيان الشكوى والتذمر دون إفساد التوازن أمام تغير الظروف، وتقلبات الحياة، وظهور المفاجآت.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«لا تتأذى إن أصابك ضرر من العوام، فإنهم لا قوة لديهم على إصابتك بمحنة ولا قدرة لهم لتقديم النفع لك. واعلم أن محبة الحبيب وعداوة العدو من الله تعالى، فقلب الاثنين بين يديه سبحانه يقلبهما كيفما شاء. ومهما أُطلِقت سهامٌ من قوسٍ، فلا يرى العاقل أنها بسبب تلك القوس، بل بسبب صاحبها الذي يمسك بها».

[من أركان الإيمان في الإسلام الإيمان بقضاء الله خيره وشره. فالعبد الذي يكون ارتباطه القلبي مع ربه ﷻ ارتباطًا سليمًا يرى كل مصيبة وغائلة تحلُّ عليه امتحانًا من ربه، ولا يعبأ بأسبابها؛ بل ينتقل بقلبه من السبب إلى المُسبِّب، ومن الفاعل الظاهري إلى الفاعل الحقيقي المطلق، ويركز انتباهه في الإرادة الإلهية في كل حادثة من الحادثات. وما أجمل قول الشاعر:



﴿...وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]

لا القهر آتيك من العدو

ولا اللطف نازل بك من الحبيب

فوِّض أمرك إلى المولى

فكل شيء منه ذو العلا

فيجب إذًا عدم الشكوى البتة مما قدَّره المولى على العبد، فالمؤمن الكامل لا يتشاءم في أيام الضيق والعسر، ولا يفسد في أيام الرخاء واليسر، بل يسعى للفوز المعنوي في كل أحواله بالصبر والشكر الدائم على ما يمتحنه الله تعالى به.

وقد كان النبي ﷺ كثيرًا ما يردد قوله:

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة...»[١٧١]

وبذلك يخبرنا ﷺ أن كل قهر أو لطف يواجهه العبد في الدنيا هو محض امتحان إلهي يخضع له.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥-٦]

وقد كان النبي ﷺ يحث دائمًا ابنته فاطمة أحب الخلق إليه على التقوى والزهد والاستغناء، ويوصيها بالفوز بالسعادة السرمدية في دار القرار عبر مواجهة الهموم الدنيوية.

ويجب علينا نحن في أيام المحن ولحظات السعادة أن نقول:

«يا رب هذه الامتحانات كلها منك، والسعادة والطمأنينة الحقيقية في الآخرة»،

وعلينا أن نرضى بالشكر والصبر كي يرضى عنَّا المولى سبحانه وتعالى.]

---

١٧١ البخاري، الرقاق، ١.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«أحسِن إلى الناس لكن لا تمنن عليهم، فعملُ الخير الذي تقوم به هو لك. واعلَمْ أنك إن عملت خيرًا ستنتفع منه في نهاية الطريق».

«اشكر الله إن عملت خيرًا، فهو سبحانه لم يتركك دون لطفه وإحسانه...وكن ممتنًّا له أن استعملك في طريق الخير».

[إن النعم كلها ألطاف إلهية، وصرفُ هذه النعم في سبيل الله هو أيضًا لطف إلهي آخر. ويجب على أولئك الذين يقدمون الخدمات من أجل الله تعالى أن يتذكروا دائمًا أن جهودهم هذه تنفعهم أكثر مما تنفع أولئك الذين يتلقون الخدمات. ولا بد أن يعلموا أن هذه الخدمة هي نعمة من الله تعالى، وأن يسعوا شاكرين دون أن يرجوا من أحد جزاءً ولا شكورًا.

يقول الشيخ علي راميتني:

«هناك الكثير ممَنْ يخدمون الناس وهم يمنُّون عليهم، لكن قليل هم الذين يرون الخدمةَ نعمة. فإن أدركتم أن نيل فرصة تقديم الخدمات هي نعمة من الله تعالى وكنتم ممتنِّين لأولئك الذين تخدمونهم، فستجدون أن الناس شاكرين لا يشكون منكم».

وقد وضَّح والدي موسى أفندي- رحمة الله عليه- الذي قضى عمره عابدًا لله تعالى وخادمًا لمخلوقاته، أهميةَ الخدمة وقيمتها، فكان يقول:

«لا يمكن لكل امرئ أن يحظى بتقديم الخدمة. فثمة كثير من الناس لديهم استعداد لتقديم الخدمات في كل مضمار لكنهم محرومون من ذلك بسبب ظروف الزمان والمكان. فعلى أهل الخدمة أن يدركوا أن الخدمة نعمة، ويزدادوا تواضعًا، ويشكروا أولئك الذين يتلقون الخدمات فهم الوسيلة لنيل هذه النعمة».]

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«لا تقطع شجرتك في الخريف، كي لا تُحرم من منظر زهورها الرائع في الربيع».

[للسعي والجهد وقت، وللنوم والاستراحة وقت آخر، ولن يكون للغافلين المتكاسلين مستقبلٌ آمن مطمئن، كذلك هي الحياة الدنيا فهي زمان سعي وعمل، لا زمان لذة وصفاء.

وكما أن مخزن المُزارع الكسول يغدو فارغًا، كذلك هو حال المرء حين لا يجني حصاد السعادة في الآخرة لأنه لم يزرع بذور الخير والحسنات والأعمال الصالحة في مزرعة الدنيا. لذلك فلنقدِّم في حياتنا الفانية الخدمات في سبيل الله كي تكون حياتنا الأبدية في ظل رحمة الوصال مع ربنا العزيز الغفَّار.

ولا بد أن نتذكر دائمًا أن من ينسى الله تعالى بانخراطه في لذاذات الدنيا سيكون من المنسيِّين حين ينزِّل الله تعالى رحماته يوم القيامة.

يقول المولى ﷻ في القرآن الكريم:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦]

اللهم احفظ عيون قلوبنا من سبات الغفلة، اللهم لا تُنقِص قلوبنا من إيمان وغيرة على دينك تجعلان حياتنا الفانية هذه بضاعةً للسعادة السرمدية.

آمين!

الشيخ
شاه نقشبند
رحمة الله عليه
-١-

كلما اقترب المؤمن من المولى ﷻ، ازداد إدراكه بقصور حاله، ونقصان عبادته، وقلة حمده وشكره، وذكره ومعرفته ويقينه. لذلك كان من دعاء النبي الكريم ﷺ الأسوة الحسنة لعباد الله :
«اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».
فعلَّم أمَّته الأدب مع الله تعالى.

هو محمد بهاء الدين شاه نقشبند أحد أولياء الله العِظام، ووارث نور الإرشاد المنتقل من روحانية النبي ﷺ ثم المنعكس على القلوب تسلسلًا إلى أن وصل إلى يومنا هذا... ولا يُنسب الشيخ نقشبند إلى النبي ﷺ معنويًا فقط، بل هو من نسبه الشريف وآل بيته.

وقد كان اسم طريق التصوف «**خواجكان**»[١٧٢] إلى أن جاء هذا المرشد الكبير فجعل اسمه «النقشبندية»، اسمٌ صار نقشًا في القلوب لا يُمحى...

والشيخ نقشبند طبيب القلوب الذي ينقشها بمحبة الله تعالى ولذة الإيمان...

وهو المرشد الكامل الخامس عشر في السلسلة الذهبية...

وهو بحر عظيم لا حدَّ له في التصرف المعنوي، ومحيطٌ في معرفة الله تعالى...

١٧٢ خواجكان: هو جمع كلمة «خواجه» التي تعني عالم الدين من أهل الطريقة. وقد كان أغلب مرشدي الطريقة النقشبندية يُدعَون بهذا الاسم لمرتبتهم العلمية، لا سيما قبل مجيء الشيخ نقشبند.

وهو ذروة التواضع والمحوية والإيثار قد تطهَّر من علل الأنانية بكل أنواعها...

وهو قائد جيش الأولياء...

ولا ريب أن هذا المقام المعنوي العظيم هو لطف استثنائي من الله تعالى قبل كل شيء، لكن الاستثناء هنا يشمل أيضًا ذلك الاستعداد القلبي وقوة الإرادة والشوق والعزيمة التي يظهر عليها هذا اللطف الربَّاني.

يفدي بروحه...

ينقل لنا الشيخ نقشبند قصة معبِّرة زادت عزيمته القوية وسعيه في سبيل الله تعالى، فيقول:

بينما كنت أسير ذات يوم في طريقي، مررت بمكان يُقامر فيه بعض الناس، فرأيت نفرًا كان القمار شغلهم الشاغل. وكان بينهم اثنان يلعبان وقد أغرقهما لجُّ النسيان فما عادا منتبهين لما يدور حولهما. كانا يلعبان بكل طاقتهما المادية والمعنوية، وكأنهما سكرا تحت تأثير لذة القمار، وغابا عن وعيهما.

فتبادل الاثنان الربح والخسارة، وبعد برهة غُلِب أحدهما، وزادت خسارته خسارة، فوضع كل ما يملك في القمار. وفي النهاية أخذ منه منافسه كل ما يملك.

ومع أنه كان في حال بؤس، فإنه ظلَّ مستمرًا في المقامرة بإصرار وعزيمة، وكان حرصه يزداد كلما غُلِب، فقال لمنافسه:

«انظر إلي، حتى لو علمت أنني لن أكتفي بإعطاء مالي وثروتي فحسب، بل حتى رأسي، فلن أرجع عن هذا الأمر! سألعب ولو كلَّفني ذلك حياتي. سأمضي كي تقع في هذا اليأس الذي وقعتُ فيه!»

وحينما رأيت حرص المقامر وعزمه وقوة إرادته وإصراره على التخلي عن كل شيء حتى عن روحه، أصابتني حال من النشاط والحماسة لم يكن لي بها عهد، فقلت في نفسي بعدما رأيت العبرة من هذه المصيبة أمامي:

كيف لا أكون صاحب عزيمة وسعي وتضحية في سبيل الله تعالى وأنا أرى هذا المقامر حريصًا مصرًّا على التخلي عن كل شيء من أجل أمر باطل؟ ومنذ ذلك اليوم قويت عزيمتي وإرادتي في اتباع سبيل الله تعالى، والحمد لله على أنهما تزدادان قوةً في كل يوم يمر علي.[١٧٣]

لذلك نجد أن ولي الله هذا ذو قلب وإحساس روحي قادر على أخذ العبر ودروس الحكمة من كل مشهد يراه مهما كان. وهذا يعني أنه حين يصل العبد إلى هذا النضج القلبي، سيكون قادرًا على تعلم الأدب من امرئ لا أدب عنده، وسيأخذ من حال المقامر المفلس دروسًا عظيمة في العزيمة والثبات والإرادة اللازمة في طريق الوصال مع الله تعالى.

١٧٣ انظر: أكرم ساغرأوغلو، شاه نقشبند، دار ياسين للنشر، إسطنبول ٢٠٠١، ص٩٩-١٠٠.

والحق أنه ثمة الكثير من الناس يجازفون براحتهم ومالهم وصحتهم وحتى أرواحهم من أجل سراب أو هوى عابر، ونجد أن المفسدين في أيامنا هذه في سعي حثيث وتضحية كي تستمر دعواتهم الباطلة. فأنَّى لنا نحن- المنتسبين لدعوة الحق والحقيقة- بعد كل هذا أن نرى غيرتنا على ديننا كافية؟ وكيف لوجوهنا أن تبيضَّ بعد أن نحاسب ضميرنا في هذا الشأن؟

فينبغي لكل مؤمن أن يجيب عن مثل هذه الأسئلة الصعبة بنفسه، ويستشعر ضرورة بذل الجهد ورفع الهمة وتقديم الخدمة في سبيل الله بعشق واشتياق في الليل والنهار دون كلل أو ملل.

على خطوات الخدمة...

إن العظماء الذين حققوا الوصال مع الله تعالى نالوا المنازل العليا عبر سلوكهم طريق الخدمة دائمًا، وخير مثال لذلك هو الشيخ نقشبند الذي بذل الجهد بدءًا من خطواته الأولى على طريق الروحانية.

وكان من وصايا شيخه أمير كُلال من أجل إصلاح ميوله النفسانية والترقي باستعداداته الروحانية:

«أَدخِل السرور في قلوب الناس، واخدم العَجَزة، واحمِ الضعفاء والمساكين، فهؤلاء لا مكسب لهم من الناس. إن مثَل هؤلاء الناس يحيون بقلب مطمئن وتواضع وانكسار، فابحث عن أمثالهم واخدمهم!»

وفي السنوات الأولى من انتساب الشيخ نقشبند إلى الطريقة سعى أولًا للوصول إلى «المحوية» التي هي عكس الغرور والكِبر، فكان يخدم المرضى والمعاقين والحيوانات الجريحة، وظل ينظف الطريق الذي يمشي عليه الناس لسنوات طويلة، فعاش حياة خدمة لا يدانيه فيها أحد.

ويقول عن نفسه:

«لقد عملت مدة طويلة كما أمرني شيخي، وقدمت الخدمات كلها، ووصلت إلى حال كنت فيها إذا ما صادفت أي مخلوق من مخلوقات الله أثناء سيري في الطريق، أقف وانتظر مروره. وبقيت على هذا المنوال طوال سبعة أعوام، وصرت بعد هذه الخدمات إلى حال من الفيوضات الربانية،



إذ بدأت أحس بالأنَّات الحزينة التي تخرج من هذه المخلوقات وصرت أشعر بالتجائهم إلى المولى ﷻ».

ونرى مما سلف أن السير في طريق النضج المعنوي لا يكون بقراءة الكتب أو حضور المجالس فحسب؛ بل باستخلاص وصفة من هذه الكتب والمجالس، والعيش باستقامة على أساسها، وتقديم

الخدمات في سبيل الله تعالى. ويرتبط أُنس الأفئدة بالأسرار والحِكم الإلهية بمثل هذه الجهود المميزة. وهكذا بعدما وضع الشيخ نقشبند تاج «المحوية» و«الفناء» على رأسه نتيجة التربية المعنوية التي تلقَّاها، نال فيوضات القلب الحقيقية والفتوحات المعنوية.

يقول الشيخ نقشبند:

«العالم قمح وأنا قشة،

الكل حسن وأنا السيء»

[أي إن كل امرئ فيه الخير، وأنا السيء... والسر الذي يوصل أولياء الله إلى أعلى الدرجات مخفيٌّ في حال التواضع هذه. وهذا ما عبَّر عنه الشاعر نجيب فاضل في أبياته حين قال:

أولئك عظماء في القلوب

يتحملون أذى الغياب في التراب

تسبيحاتهم تبلغ النجوم

وهم في الصلوات في الصفوف الأخيرة.

يقول الشيخ نقشبند:
«العالم قمح وأنا قشة....الكل حسن وأنا السيء»

وقد كان ولي الله نقشبند يحيا في تواضع ومحوية جعلته يرى نفسه أمام باب الروحانية مع أنه كان في أسمى درجاتها. وقد أثابه الله على هذا التواضع، فرفع قدره، وحبَّب الناس إليه، وجعله يليق بمهمة الإرشاد والتربية التي هي مقام رفيع عنده سبحانه وتعالى.

وما أجمل قول الشاعر الذي يلخِّص لنا هذا السر بقوله:

لا ينمو النبات ولا يثمر ما لم يدفن في ترابه

كذا المرء لا يرفعه الرحمن ما لم يعش في تواضعه

فلا يمكن للبذرة أن تنمو وتكون فيها البركة ما لم تسقط في التراب، وكذلك هو حال العباد المتواضعين الذين يرون نفوسهم حقيرة دنيئة، إذ ينظر إليهم المولى بالرحمة، ويرفع شأنهم، ويُعلي مقامهم.]

يقول الشيخ نقشبند:

«من اليسير على الإنسان بعون الله تعالى أن يخالف نفسه إن عرف حيلها، وأن يسعى لإصلاح أخطائه بعد رؤيتها».

[إن الخطوة الأولى في الانتصار على النفس إدراك ماهيتها ومعرفة أنها عدو لا أمان له. أما الغافل عن مصائد النفس فلا يشعر بالأضرار الناتجة عنها، بل يرى هذه الحال المفجعة طبيعية رائعة، فلا يقدر على الإحساس بثقلها بروحه المخدِّرة، ولا يشعر بحاجة إلى السعي نحو إصلاح حاله.

لهذا السبب يجب على المؤمن أولًا أن يعلم حيل النفس ومصائدها ومخاطرها كي يقاومها بالتدابير الضرورية؛ أي بالتقوى والعمل الصالح.

وبناءً على هذه الحقيقة قيل: «من عرف نفسه فقد عرف ربَّه».]

يقول الشيخ نقشبند:

«قال رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: (إماطة الأذى عن الطريق صدقة).[١٧٤] والمقصود من (الأذى) هنا هو الرغبات النفسانية، أما (الطريق) فهو (الطريق إلى الحق تعالى).

فلتطأ على نفسك ولترتقِ! وإن أنت أردت دخول دائرة القرب من الحق تعالى، فاترك رغبات نفسك وأقبلْ».

[إن النفس عائق كالأصبعَين حين توضعان أمام العينَين، فيغدو المرء أعمى أمام الحقائق كلها. لهذا السبب يجب على العبد أن يبذل جهدًا كي يتجاوز حاجز النفس الذي يعد أكبر عائق بينه وبين

---

١٧٤ البخاري، الجهاد، ١٨؛ مسلم، الزكاة، ٥٦؛ الترمذي، البر، ٢٨.

ما أجمل قول **نجيب فاضل** في توضيحه لحال الفناء والمحوية في القلب:

أولئك عظماء في القلوب
يتحملون أذى الغياب في التراب
تسبيحاتهم تبلغ النجوم
وهم في الصلوات في الصفوف الأخيرة.

ربِّه، أي لا بد أن يربِّي نفسه بالتخلي عن رغباتها، ويكبح هفواتها، ويرتقي معنويًا بجعلها درجةً تحت قدميه يطأ عليها، فيبلغ الدرجات العليا في روحانيته.

والنفس كالفرس الهائج ما لم تخضع للتربية، وتصل إلى نضج يكون وسيلة للأعمال الصالحة. فالفرس الهائج يكون سببًا في هلاك صاحبه حين يلقيه إلى الهاوية بدل أن يوصله إلى مقصوده، أما حين يكون الفرس مروَّضًا خاضعًا لتربية فسيحمل صاحبه بسلامة، حتى وإن مرَّ بأشد الطرق خطرًا.



من أجل هذا كله يجب على المرء أولًا أن يتخلَّص من هوى النفس ووساوسها بالتربية المعنوية كي يجد سبيلًا إلى الله سبحانه وتعالى. ولذلك قيل تبيانًا لهذه الحقيقة: «حين تخرج من بين الخلق، يبقى الخالق».]

يقول الشيخ نقشبند:

«إن طريق أهل الباطن (أهل القلوب) هو رؤية الأعمال الصالحة قليلة، وإن الحياة إنما تكون في إطار التواضع والعجز والمحوية، وإدراك أن أعمالهم قاصرة، وأحوالهم ناقصة. ولا شيء أكثر نفعًا من رؤية النفس مخطئة قاصرة حين يريد العبد التخلص من أنانيتها. وهذه هي إحدى الحِكم من وراء زلَّات الأنبياء».

[إن حال المجرم التائب النادم على ارتكاب الذنوب أفضل بكثير من حال ذاك المغرور الذي يتوكل على صحة أعماله ظاهرًا، ويحيا براحة وكأنه ضمِن آخرته لأنه لم يدرك أخطاءه وعيوبه. فإقامة الصلاة وأداء الصوم والمسارعة في الإنفاق هي طرق يقترب بها العبد من ربه، لكن المهم هنا هو أن لا يرى نفسه خيرًا من غيره لدى أداء تلك العبادات، وأن يدرك أنها نِعم وتوفيق من الله تعالى.

وما أجمل قول لقمان الحكيم:

«لا تنسَ الله تعالى والموت. وانْسَ شيئَين: الخير الذي أدَّيته للآخرين، والإساءة التي تلقيتها منهم».

ولكي لا يصل الإنسان إلى قاع النفسانية بالغرور والكِبر والعُجب، يجب عليه أن ينسى العمل الصالح رأسًا بعد أن يؤديه. ولئن كانت الخيرات والعبادات، مثل الصلاة والصوم والإنفاق والبذل في سبيل الله ﷻ، سببًا في علو النفس وغلوِّها، فلا بد من القضاء على هذا الطبع السيء قبل كل شيء. والسبيل إلى ذلك هو التخلص من غفلة التوكل على الأحوال والأعمال- وهي إحدى حيل النفس- وأداءُ العبودية لله بقلب واجف في إطار الخوف والرجاء كي ينال العبد رحمته سبحانه وتعالى، والالتجاءُ في نهاية المطاف إلى مغفرته ﷻ ورحمته.

ما أجمل قول **لقمان الحكيم** في المحافظة على استقامة القلب:
«لا تنسَ الله تعالى والموت. وانْسَ شيئَين: الخير الذي أدَّيته للآخرين، والإساءة التي تلقيتها منهم».

وقد كان من دعاء نبينا ﷺ، ذروة البشرية في عبوديته لله بأحواله وأعماله:

«اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».[١٧٥]

أي إن المؤمن كلما اقترب من الله ﷻ، ازداد إدراكه بقصور حاله، ونقصان عبادته، وقلة حمده وشكره، وذكره ومعرفته ويقينه. لهذا ترى العارفين أكثرَ الناس معرفة لله تعالى، ولذلك أيقنوا أنهم لن يعرفوه سبحانه كما يليق به. وتجد أفضل الخلق عبودية للحق تعالى هم العابدون الذين فهموا أنهم عاجزون عن عبادته كما يليق به ﷻ.]

يقول الشيخ نقشبند:

«إن لم يرَ السالك نفسه أسوء من نفس فرعون، فليس من أهل طريقتنا. فتركُ ادعاء الوجود، ثم الوصولُ إلى الفناء الحقيقي أمران عظيمان في طريقتنا. وليس من اليسير أن ترى نفسك ناقصة، فإدراك نقصان النفس هو أولى خطوات طريقك في الوصال مع الحق تعالى.

وأثناء استخلاصي لهذه السجايا، قِست نفسي بالمخلوقات كلها بأنواعها كافة، وزِنتُها مع كل ذرة في الكون، فرأيت في الحقيقة كل شيء وكائن ومخلوق خيرًا من نفسي. وحين وجدت نفسي عاجزة ضعيفة إلى هذا الحد، طهَّرتها من أدرانها كلها».

١٧٥ مسلم، الصلاة، ٢٢٢/ ٤٨٦.

[سيبقى لدى الإنسان وإن كان كافرًا كفرَ فرعون احتمالُ تطهِّره من الذنوب كلها ونيل الهداية حتى يخرج نَفَسه الأخير. لهذا السبب يجب على المؤمن أن لا يرى أنه أرفع من غيره شأنًا، ويحذر أشد الحذر من «استحقار عباد الله» وتوهم أنه أفضل منهم.

وإذا ما نظرنا إلى الظلم والجور والشهوة سنجد أن أساسها هو ذاك الطبع الذي يقول لك: «إنك أفضل من غيرك وأحقُّ بالنعمة منهم». وأنفع علاج للخلاص من هذا الطبع السيء هو وضع حدٍّ للنفس برؤية كل امرئ ومخلوق خيرًا منك، وكبح أهوائها وغوائلها.

ويُروى أن الشيخ محي الدين بن عربي كان يسير بجوار الساحل، فرأى شابًا يشرب الخمر وبيده الزق، ويتحرش بامرأة كانت بالقرب منه. فقال الشيخ ابن عربي في نفسه:

«يجب على الإنسان أن يكون متواضعًا ويرى نفسه أدنى من المخلوقات كلها. لكنني- مهما كان- لست أسوء من هذا الشاب المذنب؛ فأنا لا أشرب الخمر، ولا أقوم بسلوك متهتك وضيع كهذا».

وفي تلك الأثناء سمع صوتًا قادمًا من بعيد يقول:

«إننا نغرق، أنجدونا!»

وما إن سمع الشاب هذا الصوت، حتى رمى بزق الخمر من يده، ورمى نفسه في البحر بطرفة عين، وأنقذ في بضع دقائق أربعةَ

أشخاص كانوا على وشك الغرق. فندم الشيخ ابن عربي، الذي دُهِش مما حدث أمامه، على ما كان يفكر فيه، وقال لنفسه:

«انظري يا نفس إلى ذلك المذنب الذي استحقرتيه قبل قليل، لقد أنقذ أربعة من الناس، وأنتِ، ماذا صنعتِ؟ إنك لم تنقذي حتى واحدًا!»

وفي النهاية جمعت المحبة بين الشيخ ابن عربي وذلك الشاب بسبب رحمته ورأفته، وترك الشاب حياة المجون وصار ملازمًا للشيخ، وبدأ حياة نزيهة، وغدا طالبًا مخلصًا لديه.



فنفهم من هذه القصة أن الفضائل التي نظنها فينا قد تكون لدى الكثير ممن نستحقرهم، لا بل قد تكون فضائلهم أعلى درجة. لذا فإن استحقارنا لعباد الله هو في الحقيقة سلوك خاطئ يقلِّل من شأننا عند المولى ﷻ.

إن الفوز بحال المحوية لدى النظر إلى الناس والمخلوقات كلها يقوِّي أدب العبودية اللازم على العبد أن يتحلى بها حين يكون مع ربه، فإدراك العبد فناءه وعدمه أمام عظمة الله وقدرته هو رأس أدب

العبودية. وأيًّما كانت المرتبة الروحانية التي وصل إليها العبد، فلا بد أن يرى نفسه سائلًا مفلسًا أمام الله تعالى، وأن يعلم أن كل خير إنما هو من الله تعالى، وأن كل شر وعيب إنما هو من نفسه، من أجل هذا كان العارفون يقولون:

«لا معرفة مثل معرفة المرء عيوبه».

وقد سُئِل الشيخ أبو العباس القصاب يومًا:

«أي آية نقرأ عليك حين يُحمَل نعشك؟»

«إن قراءة الآيات مخصوصة بالعظماء، أما أنا فقولوا في حقي:»

ثم قرأ بيتًا من الشعر معناه:

«أي شيء أفضل في العالَم من أن يصل الحبيب إلى محبوبه؟»

وبعد أن نقل قطب الأولياء الشيخ نقشبند هذه القصة لطلابه قال بتواضع:

«وهذا البيت هو محصول العظماء. اقرؤوا عليَّ في جنازتي هذا البيت:

جئناك سائلين ضارعين فلا تطردنا

ومن رؤية جمالك يا رب لا تحرمنا»

إن أمثال هؤلاء العظماء لا ينظرون البتة إلى سمو حالهم وأعمالهم مع أنهم وصلوا إلى أعلى درجات الروحانية ونالوا

الكشوفات والكرامات؛ بل كانوا يذكِّرون الناس كل حين أنهم سائلون عاجزون أمام باب الله تعالى، وأنهم «لا شيء» دون لطف المولى سبحانه عليهم.

وفي يوم من الأيام طلب مريدو الشيخ نقشبند منه أن يُظهر كرامة من الكرامات، فقال الشيخ:

«إن كرامتنا جليَّةٌ للجميع، فها نحن ذا نستطيع الوقوف على أقدامنا، والمشي على هذه الأرض، مع كثرة الذنوب على أكتافنا، فهل ثمة كرامة أعظم من هذه الكرامة؟»

ثم بيَّن أن الكرامة ليست الأمر المهم في التصوف بل الأهم الاستقامة، فقال:

«إذا دخل المرء بستانًا، فنادته كل ورقة من أوراق أشجارها: (يا ولي الله أهلًا بك!)، فيجب عليه أن لا يلتفت إلى ذلك الصوت لا ظاهرًا ولا باطنًا، بل عليه أن يسعى لزيادة سعيه وعزمه على العبودية».

فقال بعض طلبته:

«يا شيخنا، مهما حاولت إخفاء كراماتك، فإنها تظهر بين الحين والآخر».

فقال ذلك العابد الزاهد المتواضع:

«إن ما ترونه هو كرامات المريدين»

وذلك كي يحافظ على أدبه وعلى حال المحوية التي يحيا في إطارها، ويفيض على المريدين من التجليات الروحانية لديه.]

اللهم يسِّر لنا حياة عبودية على صراطك المستقيم بتمسكنا بالقرآن والسنة.

آمين!

الشيخ
شاه نقشبند
رحمة الله عليه
-٢-

التصوف هو الجانبُ الباطني من الدين وجوهره وقلبه، وهو من هذا المنظور كاللاكتوز في الحليب، فنحن إن استبعدنا التصوف فلن يبقى من الدين إلا منظومة من القواعد الجامدة.

من الضروري تلازم الكلام والجوهر، والشكل والروح أثناء أداء الأوامر الإلهية، ويجب على من كان مؤمنًا حقًا أن لا يقتصر على أحدهما ويترك الآخر.

يقول الشيخ نقشبند:

«قد يكون لدى أولياء الله كشوفات وظهورات معنوية، فيقيس أصحاب الفراسة والدراية هذه الأحوال بالمقاييس الشرعية، فإن وافقتها، اعتمدوها وأظهروها وطبَّقوها. وأما إن خالفتها، تركوها ولم يكترثوا بها.

يقول أحد أولياء الله:

(لا أقبل أي كلام صادر عن قلبي ما لم يكن له شاهدا عدل: القرآن والسنة)».

[يقول **جنيد البغدادي** رحمة الله عليه:

«إن رأيت رجلًا يطير في الهواء، ولم يكن حاله موافقًا للكتاب والسنة، فهو استدراج [لا كرامة]».

فالاستدراج هو الخوارق للعادات التي تظهر من الكافر والفاسق والمتمشيخ الذي يتظاهر بالولاية. وكثيرًا ما تتحقق مثل هذه الأحوال بوساطة مجموعة من الرياضات الروحانية؛ أي إنه من الممكن إخراج بعض الاستعدادات الروحية من القوة إلى الفعل عبر تأثيرات تخرج عن إطار الدين، فقد يصل مثلًا العبَّاد الهنود إلى القوة الروحية عبر ممارسة الرياضات، ويمكن في بعض

الأحايين أن يكون ذلك سحرًا أو استخدامًا «للخدَّام» من الجن. وقد يُظهِر بعضهم هذه الأحوال بالخيال والوهم عبر تأثيرهم على نظر المشاهدين.

واختلاف هذه الأحوال غير العادية عن الكرامة هو أمر جلي، ولأننا نرى من الأمثلة التي ذكرناها في الأعلى أن القسم الأكبر من هؤلاء لا يحيون في إطار «التقوى»، وأحوالهم لا تناسب القرآن والسنة، حتى إن قسمًا من هذه الأحوال خارج عن الإسلام خروجًا تامًّا، وهذه النقطة الأخيرة هي أول نقطة يجب الانتباه إليها.



وهذا يعني أن المؤمن مهما بدا له من أحوال وكشوفات في عالمه القلبي، فيجب عليه أن لا يسعى وراءها ويغرق في التفكير فيها، ولا يظنن أن كل رؤيا يراها هي رؤيا صادقة ورحمانية، وينبغي أن يكون ميزانه دائمًا الكتاب والسنة، ويتذكر كل حين أن غايته هي نيل رضا الله تعالى والاقتراب منه، ولا يقع في غفلة من ينصب رأيه وفكره ميزانًا بدل الكتاب والسنة، لأن دستور المؤمن في الحياة لا بد أن يكون التحذير الإلهي التالي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]

يقول الشيخ نقشبند:

«اقطع علاقتك مع القرَّاء الغافلين الذين يتمسكون بظاهر الدين، وكن مع المتصوفين الحقيقيِّين الذين أدركوا حقيقة الدين!

من (القارئ)؟ ومن (الصوفي)؟ إذا أردنا أن نعرف ما المقصود من هذا الكلام نقول:

(القارئ) هو الذي ينشغل بـ(الاسم) فقط، أما (الصوفي) فهو الذي ينشغل بـ(المُسمَّى)»

[أي إن «القارئ» ينشغل دائمًا في ظاهر العمل وقشرته، أما «الصوفي» فهو القادر على الانتقال إلى اللُّب والحقيقة.

ولا يمكن لأولئك الذين يتمسكون بظاهر الدين فقط ويهملون الباطن أن يدركوا جوهر الدين حق إدراكه، ولا فهم مقصوده، بل يغفلون عن الغاية الأساسية منه. لذا فإن الذين يرون الدِّين من منظور «القارئ» الجاهل يُحرَمون من «روحه» الذي ينتج عن الحياة في إطار انسجام البدن مع القلب.

فأهل التصوف الحقيقي لا يفهمون الحقائق الإلهية بالشكل والظاهر والعقل والبدن فقط، بل بالروحانية والقلب والروح، ويسعون إلى تطبيقها عمليًّا في حياتهم. ويؤدُّون العبادات بانسجام القلب مع البدن، وبهذا الانسجام يقرؤون القرآن الكريم، فتؤثِّر قراءتهم في أحوالهم وسلوكهم في إطار هذا الانسجام نفسه. وترى

أن كل آية من القرآن الكريم وكلمة من الحديث النبوي ترتقي بأرواحهم إلى درجات سامية.

والتصوف في الأصل هو الجانب الباطني من الدين وجوهره وقلبه، وهو من هذا المنظور كاللاكتوز في الحليب، فنحن إن استبعدنا التصوف فلن يبقى من الدين إلا منظومة من القواعد الجامدة.

لهذا كله نجد أن أكثر الأمور التي يقف عندها المتصوفة هو عدم الغفلة عن إدراك الحقائق الإلهية وعدم نسيان الغاية الأساسية من الحياة.

ويشير يونس أَمْرَه إلى هذه الحقيقة بقوله:

معاني الكتب السماوية الأربعة مكنوزة في الأَلِف

فإن كنت لا تعلم معنى الألِف، فأي علمٍ هذا؟

وإن قرأت من البداية إلى النهاية

فكلها تسعة وعشرون مقطعًا

ثم ستقول ما معنى الألِف؟

إن الغاية الأساسية والنهائية من العلوم كلها هي «معرفة الله» ومعرفته ﷻ بالقلب. ويجب على المؤمن الساعي نحو الكمال أن يفهم الدين في إطار تكامل المادة والمعنى، وتوازن الظاهر والباطن، بدل إهمال حقيقة أن هذه العلوم الظاهرية هي مجرد خطوة في هذا

الطريق. ومن اللازم في حياة العبودية اشتراك العقل والقلب، وصحبة الأحاسيس مع الأفكار، وانسجام الروح مع البدن.

فما أعظم غفلة العبد حين يقف في صلاته ببدنه، وينشغل قلبه وعقله بالخواطر النفسانية، والحسابات الدنيوية، والأفكار التافهة بينما كان ينبغي له أن يعرج في هذه اللحظات بروحه وهو يقف أمام ربه. وقد قال ربنا ﷻ عن مثل هؤلاء:

﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّين. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ [الماعون: ٤-٥]

فهو سبحانه وتعالى ينتظر من عباده صلاة تامة كاملة. والصلاة التي أمرنا بها هي الصلاة بـ«**خشوع**» حين قال:

﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١-٢]

وينبغي لنا هنا أن نوضِّح الفكرة التالية: إذا كان هذا التحذير الإلهي الخطير قد نزل في المؤمنين الذين يصلون الصلاة بغفلة، فما بال أولئك الذين لا يصلون أبدًا؟ إذًا لا بد أن نتفكر في عِظم هذا الذنب بالنسبة للمؤمن الحقيقي.

وثمة أشخاص يقعون في خطأ مشابه حين يعطون أهمية لروح الدين وباطنه ويهملون ظاهره، إذ لا يمكن أداء الصلاة والصوم دون البدن، ولا تأدية العبادات المالية دون الإنفاق من مال المرء ومُلكِه. فالإيمان الذي يُعدُّ أكثر الحقائق المجردة يكون في البداية تصديقًا بالقلب، ثم يقتضي بعد ذلك إقرارَ الحقيقة التي صدَّقها

القلب باللسان، وانعكاسها على الخارج، وإخراجها إلى الظاهر على صورة سلوك ومعاملات.

ويشير المولى ﷻ إلى هذه الحقيقة بقوله في كتابه العزيز:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]

وهذا يعني أن كمال الإيمان يتحقق حين يتحد الظاهر والباطن معًا. فالصحابة الكرام- الذين يُعدُّون معيارنا العملي- لم يكتفوا بالكلام فحسب، بل كانوا يُظهِرون إيمانهم بسلوكهم وتضيحاتهم.

لهذا كان من الضروري تلازم الكلام والجوهر، والشكل والروح، ويجب على من كان مؤمنًا حقًا أن لا يقتصر على أحدهما ويترك الآخر.

وتسلِّط الحادثة التالية الضوء على هذه الحقيقة:

مرَّ إبراهيم بن الأدهم- وهو أحد أولياء الله- في يوم من الأيام على مجلس الإمام الأعظم أبي حنيفة، فاستحقره طلاب الإمام،

ثمة أشخاص يقعون في خطأ حين يعطون أهمية لروح الدين وباطنه ويهملون ظاهره، إذ لا يمكن أداء الصلاة والصوم دون البدن، ولا تأدية العبادات المالية دون الإنفاق من مال المرء ومُلكِه. فالإيمان الذي يُعدُّ أكثر الحقائق المجردة يكون في البداية تصديقًا بالقلب، ثم يقتضي بعد ذلك إقرارَ الحقيقة التي صدَّقها القلب باللسان، وانعكاسها على الخارج، وإخراجها إلى الظاهر على صورة سلوك ومعاملات.

ونظروا إليه نظرات غريبة، وحين رأى الإمام الأعظم موقفهم هذا، قال لإبراهيم بن الأدهم:

«أهلاً بك يا شيخنا، هلَّا شرَّفت مجلسنا هذا!»

فسلَّم عليهم إبراهيم بن الأدهم باستحياء، وأكمل سيره في طريقه. فدُهِش الطلاب من احترام أبي حنيفة- سيد الفقهاء- وثنائه على هذا الدرويش، وحين فارقهم إبراهيم بن الأدهم، سأل الطلابُ إمامهم أبا حنيفة:

«كيف يليق هذا الرجل بالسيادة وعظم الشأن إذا قيس بكم؟ وكيف لإمام مثلك أن يقول (يا شيخي) لرجل مثله؟»



فأجابهم الإمام الأعظم الذي جمع بين العلم والعرفان جوابًا فيه الكثير من التواضع:

«إنه مشغول مع الله دائمًا، أما نحن فمشغولون بالقيل والقال».[١٧٦]

ولا ريب أن هذا الحُكم ينطبق على الكثير ممن لم يفهموا الدين بتكامل الروح والشكل، ولم يأخذوا بالقدر الكافي من معرفة الله. وكان ذلك تأديبًا لطلبة الإمام الأعظم، ودليلًا على تواضعه.

١٧٦ الهجويري، كشف المحجوب، ص١٢٦.

فمهما بلغت فتاوى هذا الإمام الكبير ودروسه المتعلقة بالأحكام الظاهرة، فقد ظل يحيا بمشاعر الإخلاص والتقوى في حياته الخاصة. وهو يُعدُّ في تاريخ الإسلام أحدَ الأربعة الذين كانوا يختمون القرآن في ركعتين، وكان دائمًا يُظهِر شخصية الإسلام بمحبته ومعرفته، ومراقبته وإحسانه. فكان عبر أسلوب حياته مُبلِّغًا الدين بمعناه التام، وذلك بتكامل الظاهر والباطن. وقوله «القيل والقال» عن جهوده العلمية العظيمة ما هو إلا إيضاح لمكانة هذه المساعي أمام «التقوى».]

يقول الشيخ نقشبند:

«كن كالشمعة تضيء لغيرها.

ولا تكن كالشمعة، تضيء غيرَك وتُبقي نفسك في الظلام».

[إن الشمعة تضحي بنفسها كي تضيء لغيرها، ثم تذوب وتتلاشى في نهاية المطاف. وهذي الحال هي صفة المؤمنين الصالحين أصحاب الغيرة على الدين حين يضحون في سبيل الله، ويعدون العدة بكل ما أوتوا من قوة من أجل رضا الله، ويجدون السعادة في ما يكابدونه من مشقات؛ فهي فضيلة عظيمة أن يشبه المرء الشمعة من هذه الناحية.

ويا سوء حال الشمعة حين تُضيء غيرها لكنها لا تعطي النور لقاعدتها؛ فإياك ثم أياك أن تتشبَّه بحال الشمعة هذه، فتلك

صفة الغافلين الذين ينصحون غيرهم بالعلم والحكمة ويسعون لإرشادهم لكنهم لا يعطون أنفسهم أو من بجوارهم نصيبًا من هذا العلم والحكمة؛ ويبيِّنون للآخرين عظمة الله تعالى وقدرته، لكنهم لا يتقونه حق تُقاته؛ ويحذِّرون غيرهم من المحرَّمات، لكنهم لا يُظهِرون الدقة في هذه الموضوعات في حياتهم. وما أعظم تحذير المولى ﷻ حين قال عن هؤلاء الذين لا يتطابق كلامهم مع ما يكنُّونه في صدورهم، وتكذِّب أفعالُهم أقوالَهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]

يقول الشيخ نقشبند:

«إن النور والصفاء والحكمة أن تكون مسلمًا حقًّا، تتَّبع الأحكام الشرعية، وتراعي التقوى، ولا تأخذ بالرُخص ما استطعت، وتميل إلى العزم في الأمور. وهذه الأفعال كلها وسائل توصل العبد إلى درجات الولاية والمقامات العليا، ذلك أن أولياء الله يبلغون مقام الولاية بالتربية الناتجة عن هذه الصفات».

[إن الشرط الأول للتقرب من الله تعالى والدخول في أفق الولاية هو إطاعة الأحكام الإلهية قلبًا وقالبًا وبإخلاص وتسليم تامَّين. ولا يمكن للعبد أن يلج أفق الولاية ما لم يطبِّق في كل مرحلة من مراحل حياته القرآنَ والسنةَ، ويُظهِر عزيمة وإرادة وسعيًا في

التكاليف الإلهية بأسمى أشكالها، ويطبِّق الأوامر الدينية في إطار العزم والتقوى لا في إطار الرُخص والفتاوى، ويجعل محبة الله تعالى والخشية منه بوصلةً في حياته.

ولا قيمة هنا لنَسَب المؤمن ولا حسبه، فما يرفع من مستوى العبد معنويًّا هو إيمانه وتقواه وما يقتضيان من أعمال صالحة. وكلما كثرت الرغبة والسعي والخدمة في هذا الطريق نال العبد درجات أسمى، يقول المولى ﷻ:

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]

وقد قيل: «التقدير الأزلي عاشق للسعي». عبارةٌ توضح أن النجاح في الأمور كلها يقتضي السعي والبذل بصبر وثبات. فلطف الله تعالى وإحسانه وإكرامه يكون للعباد المخلصين الذين يسعون في سبيل رضاه سبحانه بإرادة وصبر.]

يقول الشيخ نقشبند:

«ليس لكل امرئ أن يصطاد الفريسة بالجري، بل ينجح في اصطيادها من يتعقَّبها دائمًا. لذلك من الضروري العمل دائمًا باستقامة».

يقول الشيخ خالد البغدادي:

«نسأل الله لنا ولكم دوام الاستقامة، فعليكم بالسعي الحثيث في أسبابها فهي خير من ألف كرامة».

[إن من يسعى ويبالغ في سعيه للحظات فقط غالبًا ما يصيبه التعب والنصب بسرعة، وحين لا يصل إلى مقصوده، تنكسر عزيمته، ويقلُّ حماسه، وقد يقع في حال أسوء مما كان عليها.

وقد أوصانا رسول الله ﷺ في الحديث الشريف فقال:

«...سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا».[١٧٧]

ولا بد من الاعتدال في أداء العبادات كي تستمر على النحو الذي يريده الله تعالى، لأنها وظيفة واجبة على الإنسان طوال عمره لا لمدة محددة. تقول سيدتنا عائشة رضي الله عنها:



«كان عمله ديمة[١٧٨]».[١٧٩]

وكان نبينا ﷺ يعبد الله كثيرًا في أوقات خاصة به لا سيما في الأسحار حينما كان يقف أمام ربه إلى أن تنتفخ قدماه الشريفتان، ويبتلُّ محل سجوده بدموعه المسكوبة من

١٧٧ البخاري، الرقاق، ١٨/ ٦٤٦٣.

١٧٨ أي يدوم عليه ولا يقطعه، وأصله الواو لأنه من الدوام فانقلبت ياءً للكسرة قبلها، قال أهل اللغة: «الديمة» المطر الدائم في سكون، شبه به عمله في دوامه مع الاقتصاد.

١٧٩ البخاري، الصوم ٦٤، الرقاق ١٨؛ مسلم، المسافرين، ٢١٧.

مقلتَيه المباركتَين. غير أنه كان يعبد الله باعتدال في المواقف التي يكون فيها أسوةً لأمته من بعده.

فالاعتدال هو الذي يحفظ دوام العمل، وحين يخرج المرء عن الاعتدال يمسي خروجه ذاك نهاية عمله.

وقد حذرنا رسول الله ﷺ تحذيرًا شديدًا حين قال:

«**هلك المتنطعون**[١٨٠]».[١٨١]

ويبيِّن لنا لزوم المحافظة على العبادات باعتدال دون المبالغة فيها حين قال:

«**اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن خير العمل أدومه، وإن قلَّ**».[١٨٢]

ويجب أن يغدو الدوامُ في العبادة والإخلاصُ في النية جزءًا من الشعور في القلب. ولا بد أن نعلم أنه بعد الوصول إلى هذه الحال ينال العبد الأجر عن العبادات حتى لو لم يؤدها- عدا الفرائض- بسبب مرض أو كبر في العمر. يقول المولى ﷻ:

﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ [التين: ٦]

ونخلص من هذا كله إلى أن الإهمال في العبادات يضع الإنسان

---

١٨٠ المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

١٨١ مسلم، العلم، ٧/ ٢٦٧٠.

١٨٢ ابن ماجه، الزهد، ٢٨/ ٤٢٤٠.

في موقف عصيب يوم القيامة، في حين أن السعي بعجلة ومبالغة يكون سببًا للتعب والسأم والوقوع في الأخطاء؛ لذلك لا بد من تأسيس العمل على الوسطية والدوام، فالإفراط في العبادات الخاصة الذي يكون سببًا في إهمال عبادات اجتماعية، مثل الخدمة في سبيل الله، يجعل المرء في موقف لا يرضى عنه الله تعالى.

فهو سبحانه وتعالى يدعونا- نحن عباده- في القرآن الكريم كي نكون رحماءَ، وذلك بتذكيره إيَّانا كثيرًا باسمَيه «الرحمن» و«الرحيم». والرحمة هي أولى ثمرات الإيمان، وأكبر مظاهرها خدمة مخلوقات الله تعالى في سبيل رضاه.]

يقول الشيخ نقشبند:

«ليست المعرفة إظهار كرامة بالطيران في الهواء، أفلا ترون مخلوقاتٍ أصغر من الإنسان تطير في الهواء؟ إن الإنسان أعظم إبداع إلهي وأكمل آثاره سبحانه، ولا شكَّ أن الإنسان الذي خلقه ربه في أحسن تقويم أعلى شأنًا من الطير، لهذا السبب لا يُعد طيران الرجل حادثة كبيرة وعملًا عظيمًا، فمثل هذه الكرامات لا قيمة لها في نظر الخواص عند الله تعالى».

[إن الكرامات خوارق للعادات يكرم الله بها أولياءه نتيجة إيمانهم الكامل ومعرفتهم وتقواهم، حيث تظهر عليهم هذه الخوارق ولا يمكن تفسيرها بالقوانين الطبيعية.

وتنقسم هذه الكرامات إلى قسمَين:

١. **الكرامات الكونية الصورية**: وهي خوارق العادات الظاهرة في العالم المادي مثل طي المكان، واستحضار البعيد، وتسخير الحيوانات الوحشية، وما شابهها من خوارق.

ولا يولي أولياء الله تعالى أهميةً لمثل هذه الكرامات ولا يعظِّمون شأنها، ولا يُسرُّون في إظهارها ما لم تكن ضرورية، فهذه الحال تجلب دهشة الناس وثناءهم، فيبدأ الجهَّال بانتظار كل شيء من الولي. وهي تسبب آفة الشهرة والغرور التي تنشر السموم في القلب، لهذا السبب لا يميل أولياء الله إلى مثل هذه الكرامات، وحتى لو كانوا مجبَرين على إظهارها، تراهم يسعون لإخفائها قدر استطاعتهم.

٢. **الكرامات المعنوية**: وهي العيش في ضوء الآية الكريمة: ﴿**فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**...﴾[هود: ١١٢] وذلك بقطع المراحل تلو المراحل وإكمالها في العلم، والأخلاق، والعبادات، والمعرفة، والتقوى.

ومع أن الناس يُقبلون على النوع الأول من الكرامات، غير أن الكرامة الحقيقية المقبولة هي النوع الثاني؛ فأهل التصوف متفقون على أن «أعظم كرامة هي المحافظة على الاستقامة مع وجود المصاعب الكثيرة». وإظهار السالك كرامة دون أن يكون على استقامة أمرٌ لا قيمة له.

يقول مولانا خالد البغدادي في المكتوب الذي أرسله لأحد طلابه:

«نسأل الله لنا ولكم دوام الاستقامة، فعليكم بالسعي الحثيث في أسبابها فهي خير من ألف كرامة، وأوصيكم بالاشتغال بإحياء السُنن السَّنِيَّة، وقمع البدع الردية، ونَشْرِ العلوم بالإخلاص، والتمسك بآداب ساداتنا الخواص، ونفي الوجود، وبذل الموجود، والصبر على المفقود، والتبتل إلى الملك المعبود، وتذكر هذا المسكين بالدعوات الخيرية على الدوام، والسلام في البدء والختام»[١٨٣].

إن الغاية هي العيش بتقوى وعلى نهج الكتاب والسنة، فالإنسان حتى لو كان صاحب كشف وكرامة، فلن يضمن إيمانه لحظة خروج نَفَسه الأخير، لهذا كان الصحابة الكرام يحيون في قلق وخشية من العاقبة، والحادثة التالية خير دليل على حالهم:

عن أبي البختري قال: جاء الأشعث بن قيس، وجرير بن عبد الله البجلي إلى سلمان الفارسي، فدخلا عليه في حصن في ناحية المدائن، فأتياه، فسلَّما عليه وحيياه، ثم قالا: أنت سلمان الفارسي؟ قال: نعم. قالا: أنت صاحب رسول الله ﷺ؟

فقال [سلمان الذي كان من كبار الصحابة وقد قال عنه رسول الله ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**»[١٨٤] وفي قلبه خشية من «النَفَس

١٨٣ أسعد صاحب، بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد، ص٢٦٧، رقم: ٩٨.
١٨٤ ابن هشام، جـ٣، ٢٤١؛ الواقدي، جـ٢، ٤٤٦-٤٤٧؛ ابن سعد، جـ٤، ٨٣؛ أحمد، جـ٢، ٤٤٦-٤٤٧؛ الهيثمي، جـ٦، ١٣٠.

الأخير»]: لا أدري. فارتابا وقالا: لعله ليس الذي نريد، قال لهما: أنا صاحبكما الذي تريدان، إني قد رأيت رسول الله ﷺ وجالسته، فإنما صاحبه من دخل معه الجنة.[١٨٥]

وقد كان الشيخ خالد البغدادي- الولي الذي كان يُعرف باسم «شمس الشموس» في العلم والعرفان- يطلب من طلابه في مكتوباته لهم الدعاءَ له بحسن الخاتمة.

وهذا يعني أن المقصود الأساسي ليس الوصول إلى المواقع والمقامات السامية بل تسليم النَفَس الأخير بإيمان ويقين، والوقوف أمام المولى ﷻ في زمرة عباده المرضيِّين.]

اللهم احفظنا من الوقوع في مصائد المغريات المادية والمعنوية التي تُبعِدنا عن الغاية من خلقنا والتركيز في هدفنا الأساسي. وأحسِن يا رب علينا بانشراح في صدورنا، وفراسة في قلوبنا، وبصيرة في عيوننا.

آمين!

١٨٥ انظر: الهيثمي، جـ٨، ٤٠-٤١؛ الذهبي، السير، جـ١، ٥٤٩.

الشيخ

شاه نقشبند

رحمة الله عليه

-٣-

يجب أن يكون قلب المؤمن رقيقًا حسَّاسًا، فيغدو كالأشعة السينية يفهم حال أخيه من ظاهره، ويشعر بلزوم تعويضه وتقديم العون له.

ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم:

﴿...تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ...﴾ [البقرة: ٢٧٣]

يقول الشيخ نقشبند:

«قيل: (الكاسب حبيب الله).[186] والحقيقة هي أن حبيب الله هو الذي يعمل ليربح رضا الله، وليس الذي يعمل كي يجمع المال ويحظى بثروة في الدنيا».

[يجب على المؤمن في كل أمر أن يضع رضا الله نصب عينيه ويجعله هدفًا له، ويعمل على تأمين قوته من عرق جبينه، ولا يمد يديه للسؤال إلا من الله تعالى. ولا بد أن يعمل ويربح ساعيًا أن يكون اليد العليا لا اليد السفلى، وعلى هذا المنوال تغدو نتيجة سعي العبد الذي أصلح نيته وغايته هي الرضا والمحبة عند الله سبحانه.

وحين بدأت تتنزل الآيات الكريمة التي تأمر بالإنفاق، كان الفقراء من الصحابة يحتطبون من الجبال ويحملون الحطب على ظهورهم ثم يبيعونها، وينفقون من ربحهم فيجدون لذة وطمأنينة. وبهذا أرشدوا الناس إلى أن الكرم وغنى القلب هما البضاعة

١٨٦ الألوسي، روح المعاني، جـ٢٠، ص١٠٩.

الحقيقية اللازمة كي نكون من أهل الإنفاق. وسعوا وبذلوا جهدًا كي يكونوا قرآنًا حيًّا أمامنا، وذلك عبر إثبات محبتهم لله ﷻ ولرسوله ﷺ بالأعمال الصالحة.

ومن ناحية أخر ينبغي لنا أن نرعى العاجزين من إخواننا في الدين الذين لم يُوَفَّقوا لنيل ما يكفيهم من الرزق بعد أن بذلوا جهودًا كي يؤمِّنوا قوتهم وقوت عيالهم، فالمؤمن مسؤول عن أخيه المؤمن.

وما أجمل قول الشيخ سعدي:

«يا صاحبي، كن من أهل الرحمة والرأفة، واسلك طريق الصالحين، وإن كنت قائمًا فأمسك يد أخيك الذي وقع كي تعينه على الوقوف».

إن رؤية المحتاجين من إخواننا في الدين وتقديم العون لهم هو دَين في رقابنا. يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]

هذا يعني أنه يجب أن يكون قلب المؤمن رقيقًا حسَّاسًا، فيغدو كالأشعة السينية يفهم حال أخيه من ظاهره، ويشعر بلزوم تعويضه وتقديم العون له.

ونخلص من هذا كله إلى أن العبد الذي يحبه الله تعالى هو الذي ينفق على عياله والمحتاجين من حوله، ويقدم الخدمات في سبيل الله ﷻ ويعمل كي ينال رضا الله، لا ذلك العبد البخيل المستأثر بماله الذي تكون غاياته ومساعيه كلها هي جمع المال والثروة والوصول إلى الراحة في الدنيا.

والرحمة التي هي أعظم ثمرات الإيمان لا تعني الألم لحال الضعفاء والفقراء والمساكين فحسب، ذلك أننا حين نقف أمام الظلم نجد أن المثير للرحمة والشفقة ليس المظلوم وحده، بل ضمير ذاك الظالم وقلبه الذي قُدَّ من حجر. فمن يثير الشفقة في هذه الدنيا هم أرباب الأعمال الذين يظلمون العمال والزبائن ويأكلون حقوقهم حرصًا منهم على زيادة ربحهم. والمسكين الحقيقي هو الظالم الذي أصاب روحَه الدرنُ، فصار أسير المُلك الفاني.

وعند النظر في نظام الرأسمالية القائم على أساس الظلم وانعدام الحقوق علينا أن نأخذ العبرة من عاقبة الأثرياء المتكبرين وسوء مآلهم، قبل أن نأخذها من الفقراء المظلومين.

لا تعني الرحمةُ التي هي أعظم ثمرات الإيمان الألمَ لحال الضعفاء والفقراء والمساكين فحسب، ذلك أننا حين نقف أمام الظلم نجد أن المثير للرحمة والشفقة ليس المظلوم وحده، بل ضمير ذاك الظالم وقلبه الذي قُدَّ من حجر. فمن يثير الشفقة في هذه الدنيا هم أرباب الأعمال الذين يظلمون العمال والزبائن ويأكلون حقوقهم حرصًا منهم على زيادة ربحهم. والمسكين الحقيقي هو الظالم الذي أصاب روحَه الدرنُ، فصار أسير المُلك الفاني.

وليس للمؤمن أن ينبهر بالعظمة والأبهة المؤقتة لهؤلاء الظلمة؛ بل يجب عليه السعي لإصلاحهم عبر الإرشاد والتنبيه بلسان ليِّن مبين. ذلك أن الله تعالى لم يرضَ أن يحرم فرعون الذي بلغ أعلى درجات الكفر من التبليغ والإرشاد، فأرسل إليه موسى عليه السلام وأمره أن يقول له قولًا ليِّنًا.

إن وظيفة كل مسلم هي أن يمنع الظلم ويتمسك بالحق ويُعليه. والمسؤولية الإيمانية تقتضي السعي بلسان سلس كسلاسة الماء لتوجيه أولئك الذين ضلوا، فصاروا كجذوع الأشجار التي تجرفها السيول.



«خير المال ما أنفق في سبيل الله»

وينبغي أن لا ننسى أن أصحاب الثروات الذين يتجاوزون حدود الله من أجل الوصول إلى السلطة المادية في هذا العالم الفاني سيغدون- إن لم يصلحوا حالهم- خاسرين مفلسين في الآخرة.

وما أشد التحذير الإلهي لهؤلاء الحريصين المصابين بالشره حين قال جل جلاله:

﴿... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ١-٧]

يقول الشيخ نقشبند:

«إن علة بُعْدِ الناس عن مرضاة الله تعالى هي بعدهم [بغفلتهم] عن الله تعالى ووقوعهم في أسر المغريات الدنيوية حين يميلون إلى الشهوات، إذ لا عيب في الفيوضات الإلهية فهي تتجلى كل حين.

ويضرب لنا الشيخ سعيد أمير كُلال مثلًا فيقول:

(ما لم يتخلص الإنسان من النسمات العليلة لمحبة الدنيا، فلن ينفعه صلصال جسده. فلكي يُصنَع الفخار يوضع في الموقد بصورة صحيحة. وحين يُوضع الفخار في موقد التصرف المعنوي يخرج بعضه سالمًا، وبعضه مكسورًا... ونحن لا نفقد الأمل بذلك الفخار الذي يخرج مكسورًا، إذ نجعله غبارًا ثم نجمعه مع صلصال آخر، ونصنعه فخارًا ثم نضعه في الموقد، ونداوم على ذلك حتى يخرج سالمًا)»

[إن من أعظم أسباب بقاء العبد غافلًا عن ربه جعل فؤاده أسيرًا لمحبة الدنيا ولذّاتها الفانية. وقد وهبنا الله تعالى النِعم الدنيوية كي نصرفها في سبيل رضاه، ونجعلها وسيلة للوصول إلى الثواب

الإلهي وبضاعةً للسعادة الأبدية، لا لكي نبقى بجعل الوسائل غايات متعلقين بلذات الدنيا المؤقتة ومغرياتها الدنيئة ساعين نحو الشهوات النفسانية.

إن حياتنا التي نعيشها في هذه الدنيا هي رحلة يقتضيها الامتحان الإلهي لنا، رحلةٌ مليئة بضروب شتى من العوائق التي يجب أن نتجاوزها. والعبد الذي ينسى منتهى هذه الرحلة ويتعلق بزخارف الدنيا تعلقًّا يزيد على حده، ويلهو بزينة الحياة الدينا أكثر من الضرورة، هو الغافل عمَّا يجب أن يُعدَّ للرحلة نحو دار المقام، والذي يجلب الهموم العظيمة بنفسه. وسيأتي دون تفكير بأفعالٍ تجره إلى العذاب في قبره، وتضعه في موقف عصيب يوم العرض الأكبر أمام الميزان.

وما يجعل الإنسان متأخرًا في طريق الوصال مع الحق تعالى هو هذا النوع من الحِمل الزائد الذي يضعه على كاهله بسبب الرغبات والملذَّات النفسانية، ولا يمكنه المضي قُدُمًا في العالم الروحاني بروح تمزقت تحت هذه الأثقال.

وتوضِّح الحادثة التالية هذه الحقيقة أجمل توضيح:

في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فُتِحت بلاد الشام ومصر وفارس، ودخلت هذه البلاد كلها في حدود الدولة الإسلامية. وبدأت خزائن بيزنطة وفارس الوفيرة تتدفق إلى بيت مال المسلمين، فارتفع مستوى الرخاء. لكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان

ذا فؤاد استغنى عن عظمة الدولة وغنى بيت المال والرخاء في زمانه، فظلَّ يخطب بثياب مرقعة، وكان مَدينًا في كثير من الأحيان، واستمرت حياته تملؤها الهموم والمشقات، فقد كان يأخذ من بيت المال ما يكفيه فقط، فلقي من لأواء العيش ما لقيه.

ولم يحتمل كبار الصحابة رؤية الخليفة على هذه الحال فأرادوا زيادة نفقته، لكنهم استحيوا من تقديم هذا العرض، فلجؤوا إلى السيدة حفصة ﵂ ابنته وزوجة النبي ﷺ. فقالت له:

«يا أمير المؤمنين، لو لبست ثوبًا هو ألين من ثوبك، وأكلت طعامًا هو أطيب من طعامك، فقد وسَّع الله ﷻ من الرزق وأكثر من الخير».

فقال سيدنا عمر ﵁ لحفصة ﵂ التي شهدت الأيام التي كان لا يجد فيها رسول الله ﷺ في بيته تمرة يسكت بها جوعه:

«إني سأخاصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش»، فما زال يذكرها حتى أبكاها.

ثم قال لها: «إن قلت لك ذاك، إني والله لئن استطعت لأشاركنهما [يعني رسول الله ﷺ وسيدنا أبا بكر ﵁] بمثل عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرخي».[١٨٧]

١٨٧ انظر: أحمد، الزهد، ص١٢٥؛ شهبندر زاده أحمد حلمي، التاريخ الإسلامي، جـ١، ٣٦٧.

إن الهدف من أصول التربية مثل الزهد والرياضة والمجاهدة في طريق الوصول إلى الروحانية هو هذا النضج القلبي؛ أي أن يكون المرء ذا قلب حاضر ذاكر لا تشغله دنياه عن آخرته، وذلك بالبعد عن الرفاه والإسراف والمظاهر، وإدراك أن العيش بقناعة وبساطة هو من الإيمان.

ويُروى أن ملكًا بنى قصرًا عظيمًا، ثم دعا أحد أولياء الله وأطلعه على كل مكان في القصر، ثم سأله بأدب:

«كيف رأيت القصر يا مولاي، هل من عيب أو علة فيه؟» فقال ولي الله:

«إن عظمة القصر وفخفخته تأخذ بالألباب، فكل ما فيه كامل، لكن ثمة نقص واحد فقط».

فسأل الملكُ، الذي لم يتوقع مثل هذا الجواب، بحيرة ودهشة عن النقص. فأجابه الولي جوابًا فيه العِبر: «قصرك لا بقاء له».

ثم قال له محذرًا:

«إن كنت قد بنيت هذا القصر بمالك، فاعلم أن الله لا يحب المسرفين. وإن كنت بنيته من بيت المال، فلا تنسى أن الله لا يحب الظالمين».]

إن فرعون ونمرود وأتيلًّا وأمثالهم قد باتوا أعداء البشرية جمعاء نتيجة ظلمهم. وأما أولياء الله مثل مولانا جلال الدين الرومي، ويونس أمره، وشاه نقشبند وغيرهم فسيبقون أحبابًا للناس كلهم حتى قيام الساعة.

يقول الشيخ نقشبند:

«يقول الناس إنه لا رياضة في طريقنا، فأي رياضة أعظم من قطع صلتك عما سواه سبحانه، والمحافظة على رابطة الحضور مع الله [أي معية الله، والشعور بأنك أمامه كل حين]؟

اتَّبع السنة في أحوالك الظاهرة والباطنة كلها، وخالف نفسك أبدًا، ومهما بدت مخالفة النفس عملًا صغيرًا، فيجب على السالك أن يعلم أنها عمل عظيم. وإن كان قادرًا على مخالفتها، فليعلم أن ذلك توفيق من الله تعالى وعناية منه، فيلزم شكره».



[إن الرياضة الصوفية هي تربية النفس بحرمانها من أهوائها وشهواتها، أو الاقتصار على أقل القليل من المتع والملذات بما يصلح النفس ولا يفسدها. إذ لا يمكن أن تترقى الاستعدادات الروحية ما لم تكن الرغبات النفسانية داخل الإنسان في أدنى درجاتها، فكفة الميزان لا ترجح إلا إن خفَّت الأخرى.

أما الهدف من مخالفة النفس فهو إخضاعها للعبودية، والوصول بها إلى الطمأنينة والأمان، بجعل استعداداتها الروحية ناضجة كاملة. حينها يدرك العبد ويشعر- بابتعاده عن الغفلة- بأنه تحت نظر الله دائمًا؛ أي ينطلق من الإيمان إلى الإحسان. وما جوهر الرياضة وغايتها إلا إيصال القلب الذي يتجلى فيه الإيمان إلى هذا المستوى.

وأما الوصول إلى الإحسان بتربية النفس والمحافظة على هذه الحال فهو الفلاح والنصر في العبودية. فيجب على العبد أن يعلم أن هذا النصر نعمة لا مثيل لها أكرمه بها المولى ﷻ، فيسعى لزيادة شكره لربه.]

يقول الشيخ نقشبند:

«يجب على المتوكِّل أن لا يرى نفسه، وأن يسعى لإخفاء توكله بالعمل».

[إن المؤمن من أهل التوكل بمعناه الحقيقي لا يتوكل إلا على ربه، ولا يعتمد إلا عليه، ولا يلجأ إلا إليه وحده. ويعلم أن تدبيره وجهوده «لا شيء» أمام قدر الله تعالى.

لكنه لا يهمل التدبير والسعي مراعاة لشروط عالَم الأسباب، إذ يجعل الله تعالى في أعمالنا الصادقة وجهودنا- حين توافق قوانينه وأقداره- الفلاحَ والبركة.

أما إذا لم يوافق العمل أو النية التقديرَ الإلهي فلن يتحقق ولن يرى النجاح حتى لو اجتمعت الدنيا كلها على ذلك.

لهذا يجب على المؤمن أن يسعى ويأخذ بالأسباب ثم يترك النتيجة لله سبحانه، وحتى لو لم ينل مقصده في نهاية المطاف، فعليه أن يترك العصيان والشكوى معتقدًا أن قضاء الله ﷻ خير له. وينبغي أن لا يصيبه الغرور والكبر إن وُفِّق في عمله، بل يشكر الله

ويحمده على ما وفق، ويعلم أن التوفيق منه سبحانه لا من جهده بإرادته الجزئية ونفسه العاجزة.

إن أمل المؤمنين الكاملين من أهل السعي هو في الله تعالى وحده، لذلك فهم يُخفون توكلهم بعزمهم وسعيهم كي يحافظوا على حال «**التواضع والمحوية**» التي هي العلامة الفارقة للعبودية المقبولة.

والمرجع الوحيد الذي يُعتَمد عليه في نظر المؤمنين الكاملين هو الله تعالى ذو القدرة المطلقة، فإن لم يكن كذلك، فلا معنى للتوكل على الله ﷻ والاعتماد عليه، وهذا مما يخل بضرورة من ضرورات الإيمان.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ...**﴾ [الفرقان: ٥٨]

وثمة مقولة تتناقلها ألسنة العامة وهي: «لا تعتمد على الرجل فإنه يموت، ولا على الجدار فإنه يسقط». فهذه المقولة تبيِّن لنا ضرورة الاعتماد والتوكل على الباقي لا على الفاني.

ويخبر الله سبحانه عباده في الآيات أنه يريد منهم أن يتوكلوا عليه وحده:

﴿... **وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [إبراهيم: ١١]

﴿...**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...**﴾ [الطلاق: ٣]

وعن عمر بن الخطاب ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا».[١٨٨]

وثمة قصص كثيرة تبين لنا أن التوكل الصحيح هو التوكل على الله بعد الأخذ بالأسباب والسعي لتحقيق الهدف، لا التوكل دون عمل أو تدبير: إذ قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال ﷺ:

«اعقلها وتوكل».[١٨٩]

وقد رُوي عن ابن عباس ﵄، قال: كان أهل اليمن يَحُجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون:

نحن متوكِّلون، فيحجُّون، فيأتون مكة، فيسألون الناس، فأنزل الله هذه الآية الكريمة:

﴿...وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى...﴾[البقرة: ١٩٧]

ولقي عمرُ بن الخطَّاب ناساً من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: بل أنتم المتأكلون، إنَّما المتوكل الذي يُلقي حبَّه في الأرض، ويتوكَّل على الله ﷻ.[١٩٠]

---

١٨٨ الترمذي، الزهد ٣٣/ ٢٣٤٤؛ ابن ماجه، الزهد، ١٤.
١٨٩ الترمذي، القيامة، ٦٠/ ٢٥١٧.
١٩٠ ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، عمان ١٩٩٠، ص٦٥٠.

يقول الشيخ نقشبند:

«لا خير ولا بركة في طعام أُعِدَّ بغفلة وغضب ودون رغبة مهما كان نوعه، فقد وجدَت النفس والشيطان طريقًا إليه. ولا بد أن تكون النتيجة سيئة بالنسبة لآكل مثل هذا الطعام [فيؤثر في الفيوضات والطمأنينة]. والخير كل الخيرِ [الفيوضات والروحانيات] في الطعام الحلال الخالص الذي أُعِدَّ دون غفلة، وأكله العبد وهو يتفكر في الله تعالى.

إن علة عدم توفيق الناس في أعمال خالصة صالحة هي عدم احتراسهم في مأكلهم ومشربهم [عدم انتباههم بدرجة كافية للحرام والمشبَّهات وحقوق العباد]. وثمة أحوال كثيرة مرتبطة بأكل اللقمة الحلال، وطبخ الطعام مع التفكر في الله، وأكله كأن العبد أمام ربه؛ ومن هذه الأحوال: الخشوع والخضوع والحضور مع الله في الصلاة، وأدائها بلذة ودموع. إذ لا يشعر بلذة الصلاة من ربَّى جسده باللقمة الحرام [والمشبوهة]».

[يُروى في الآثار أن الشيخ نقشبند كان في كثير من الأحيان يطبخ طعامه بيده، ويُعدُّ المائدة بنفسه، وينصح السالكين قائلًا:

«اعلموا أنكم حين تكونون على المائدة فأنتم في حضرة الله تعالى، ولا تنسوا أنكم تأكلون من رزقه».

وإذا وضع أحدهم لقمة بغفلة في فمه أثناء اجتماعهم على الطعام، يدرك الشيخ بفراسته ذلك ويقول:

«كُلْ طعامك متذكِّرًا أنك أمام الله تعالى، ولا تتفكر في ما سواه، تفكر في مولاك الذي هو أقرب إليك من نفسك».

وكان الشيخ بتنبيهاته هذه يذكِّر السالكين بضرورة ذكر الله دائمًا وفي كل حال، والتفكر فيه سبحانه، والبقاء معه بالقلب، لا سيما أن بقاء العبد غافلًا عن ربه أثناء أكله من رزقه سبحانه يعد عيبًا كبيرًا من حيث أدب العبودية. وانطلاقًا من هذه الحكمة كان من آداب الطعام في الإسلام ذكر اسم الله في البداية وحمده وشكره في النهاية.

ولئن كان الطعام قد طُبِخ بغفلة أو غضب أو كرهًا، فما كان الشيخ يأكل منه ولا يأذن للسالكين أن يأكلوا.

وقد أهداه يومًا أحد أصحابه خبزًا، فقال له الشيخ:

«لا يناسبنا أكل هذا الخبز، فقد عُجِن وخُبِز بغضب».

ولقد أثبتت بعض الأبحاث العلمية هذه الأيام أن للأحوال المعنوية تأثيرًا كبيرًا في المادة. فكانت من نتائج التجارب مثلًا أن الماء إذا قُرِئت عليه كلمات وعبارات جميلة، فإن ذراتها تأخذ شكل بلورات جميلة؛ وإذا قُرِئت عليه كلمات سيئة بذيئة، فإن هذه البلورات تتبعثر وتأخذ شكلًا قبيحًا.

لم يكن الشيخ شاه نقشبند يأكل من الطعام ولا يأذن للسالكين أن يأكلوا إن كان قد طُبِخ بغفلة أو غضب أو كرهًا. وقد أهداه يومًا أحد أصحابه خبزًا، فقال له الشيخ: «لا يناسبنا أكل هذا الخبز، فقد عُجِن وخُبِز بغضب».

إذًا؛ لا ريب أن الحال الروحانية ستنعكس على الطعام أثناء تحضيره وأكله، وأن للطاقة الناتجة من الطعام تأثيرًا في حال الإنسان المعنوية، قد يكون هذا التأثير إيجابيًّا أو سلبيًّا. ولا بد من معرفة وإدراك أن الأطعمة الحرام والمشبوهة قد تسبب بلادة معنوية وغفلة لدى الإنسان.

ويوضِّح الشيخ **عبد القادر الجيلاني** مقدار التأثير الحياتي للقمة في حال الإنسان المعنوية بقوله:

«أكل الحرام يُميت القلب، وأكل الحلال يُحييه. وثمة لقمة تُشغلك بالدنيا، وأخرى بالآخرة. وثمة لقمة تُرغِّبك في الله ﷻ».

اللهم اجعلنا- نحن عبادك العاجزين- من الصالحين من أهل التقوى والإخلاص والسعي الذين يدركون هذه الحقائق إدراكًا صحيحًا ويعزمون على العيش بمقتضاها.

آمين!

الشيخ
شاه نقشبند

رحمة الله عليه

-٤-

إن البدن الذي يحمل الطاقة الإيجابية للطعام الحلال يصبح مستعدًّا للصلاة الخاشعة بعد أخذ الوضوء بالذكر. فأداء الصلاة بغفلة وإهمال ودون إعداد بدني وروحاني لَهوَ الخسران العظيم، لهذا السبب لا بد من إخراج الأفكار التي تُبعِد العبد عن الله تعالى من الذهن والقلب في أول تكبيرة. ويجب أن يكون العبد واعيًا جديًّا مؤدَّبًا، وذلك بتركيز فكره ومشاعره أثناء الصلاة واستشعار وقوفه أمام الله ﷻ؛ فقبلة البدن في الصلاة الكعبة، وقبلة القلب الله تعالى.

الشيخ شاه نقشبند (رحمة الله عليه) -٤-

يقول الشيخ نقشبند:

«يصل العبد إلى الخشوع في صلاته بأربعة أشياء:

١. الطعام الحلال، وأكله بقلب واعٍ حاضر.

٢. الابتعاد عن الغفلة أثناء الوضوء.

٣. إدراك أنه في حضرة الله ﷻ عند التكبيرة الأولى.

٤. عدم نسيان الله البتة بعد الفراغ من الصلاة».

[يقول الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]

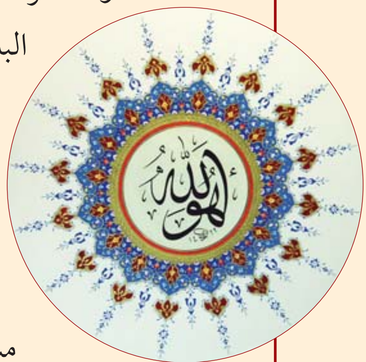
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥]

ترتفع الحُجب في القلب حين يصلي العبد صلاته بخشوع ومراعاة للآداب والأركان البدنية والقلبية، ويحيا في وصال لا يوصَف مع الله تعالى عبر تجليات حقيقة أن: «**الصلاة معراج المؤمن**»[١٩١]. ولكي يعيش المرء معراج الروح هذا في الصلاة، لا بد من الإعداد الظاهري والباطني له.

١٩١ السيوطي، شرح ابن ماجه، جـ١، ٣١٣.

والبدن الذي يحمل الطاقة الإيجابية للطعام الحلال يصبح مستعدًّا للصلاة الخاشعة بعد أخذ الوضوء بالذكر. فأداء الصلاة بغفلة وإهمال ودون إعداد بدني وروحاني لَهوَ الخسران العظيم، لهذا السبب لا بد من إخراج الأفكار التي تُبعِد العبد عن الله تعالى من الذهن والقلب في أول تكبيرة.

ويجب أن يكون العبد واعيًا جديًّا مؤدَّبًا، وذلك بتركيز فكره ومشاعره أثناء الصلاة واستشعار وقوفه أمام الله؛ فقبلة البدن في الصلاة الكعبة، وقبلة القلب الله تعالى.



ويجب أن يكون الواقف في الصلاة في حال خشوع وطمأنينة باستشعاره عظمة الله وقدرته مقابل عبودية الإنسان وفنائه وعجزه. ولا بد أن يبذل جهدًا كي ترقَ حاله إلى مستوى «**الاستغراق**» أي درجة الفناء في الله تعالى بنسيان وجوده، ولا شك أنه لم يصل عبد إلى هذه الحال بعد رسول الله ﷺ.

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه أنه قال:

«أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل».[١٩٢]

---

١٩٢ أبو داوود، الصلاة، ١٥٧؛ النسائي، السهو، ١٨.

وقد كان سيدنا علي ﷺ أحد الصحابة الكبار الذين تربوا في المدرسة النبوية وعلى عينه ﷺ، فكان من خير الصحابة في معراج الروح واستغراق القلب في الصلاة. ففي إحدى المعارك دخل سهم في ساقه ﷺ، ولم يستطيعوا إخراجه لشدة الألم، فقام سيدنا علي ﷺ إلى الصلاة، وأكمل صلاته بطمأنينة دون أن يشعر بإخراج السهم وذلك ببركة حال الاستغراق المعنوي التي دخل فيها.

إن أداء الصلاة بمراعاة الآداب الظاهرة والباطنة مرحلةُ استعدادٍ تجعل العبدَ مدركًا قيامه بين يدَي الله دائمًا، وتجعل القلبَ شاعرًا بأنه مع ربه كل حين، وذلك بمقتضى قوله تعالى:

﴿...إِلَّا الْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢-٢٣]

﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢]

لهذا فإن شعار المؤمنين الكاملين الذين يقيمون الصلاة كما ينبغي هو إبقاء شعور العبودية حتى النفَس الأخير، والحفاظ على الأدب حين يكونون في حضرة الله حتى خارج أوقات العبادة؛ لذا فإن صلاة عشَّاق المولى ﷻ صلاة دائمة لا تنقطع، فهم يعيشون بذكر دائم وسجود روحاني في أوقات الصلاة وخارجها، أي طوال أعمارهم. فحتى لو أدى العبد العبادات في أوقات محددة وانتهى، يبقى الإيمان بالحق تعالى والعبودية له على الدوام، فلا مجال لانقطاعهما أو انتهائهما.]

يقول الشيخ نقشبند:

«إن أساس طريقنا هو أن تكون في الظاهر مع الخلق، وفي الباطن مع الحق. ويشير القرآن الكريم إلى هؤلاء في الآية الكريمة:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور: ٣٧]».

«لا يبقى فرق بين قلب السالك ولسانه حين يصل إلى النضج الكافي، أي إن المشاغل الدنيوية لا تمنعه عن أعماله القلبية والباطنية، ولا تعيق أعمالُه الباطنية مشاغلَه الدنيوية».

[من الممارسات الضرورية في طريق التربية المعنوية الابتعادُ عن الناس مدة معينة واعتزال المشاغل الدنيوية، وذلك من أجل التطهر القلبي بالتفكر العميق، والانبعاث معنويًا، والتجدد، والنشاط، وجعل الاستعدادات الروحانية كاملة.

فقد صام سيدنا موسى عليه السلام قبل أن تنزل التوراة عليه أربعين يومًا صيامًا متواصلًا في طور سيناء، ولبث سيدنا عيسى عليه السلام جائعًا عطشانًا أربعين يومًا حتى سمع أول كلام إلهي في الإنجيل. وقبل أن يأتي الوحيُ رسولَ الله ﷺ، اعتزل الناس في غار حراء في جبل النور شهرًا كاملًا.

وهذا دليلٌ على ضرورة العزلة والانزواء لمدة محدودة في الحياة المعنوية. ولكن لا يعني ذلك أبدًا تعميم هذه الحال وجعلها كحياة الرهبانية، فاستمرار المرء بعبودية الحق تعالى بين الناس

أصل في الإسلام، إذ في العزلة خطر الشهرة. ولخص الشيخ نقشبند هذه الحال في شعاره: «الخلوة مع الله بين الناس».

ومن آداب العبودية التي يجب على المؤمن أن يراعيها طوال حياته «الوحدة في الكثرة» أي أن يكون القلب مع الله تعالى ولو كان بين الكثير من الناس ومتعرضًا لمشقات الحياة التي لا تعد ولا تحصى.

وذات يوم وبينما كان الشيخ محمد بارسا– أحد أولياء الله الذين رباهم الشيخ نقشبند– في طريقه إلى الحج مارًّا ببغداد، رأى صرَّافًا شابًّا ذا وجه طلق نيِّر، فحزن لمَّا رأى الشاب ومنصرفًا إلى مشاغل الدنيا يتاجر دون توقف.

فقال الشيخ في نفسه:

«واحسرتاه، يشغل هذا الشاب عمره بأمور الدنيا وهو أهل لأداء أعظم العبادات».

وبعد أن أمضى مدة في مراقبته، أصابته الدهشة حين رأى قلب هذا الشاب الذي يبيع ويبتاع الذهب حاضرًا في معية الله تعالى، فقال معجبًا بالشاب:

«ما شاء الله، اليد في العمل، والقلب مع الله».

وحين وصل الشيخ محمد بارسا الحجازَ رأى عجوزًا أشيب باكيًا معتلقًا بأستار الكعبة، فقال بعد أن رأى توسله إلى الله تعالى

والتجاءه إليه:

«يا ليتني أستطيع أن ألجأ إلى الله باكيًا متضرعًا مثله».

وبعد أن نظر إلى قلبه، رأى أن أدعيته كلها وبكاءه من أجل أمور دنيوية فانية، فحزن لذلك.

نخلص مما ذكرنا إلى أنه لا ضرر على القلب الذي يكون مع الله حتى لو كان بين الناس وفي إطار الأمور الدنيوية. ولكن يجب على المرء أن يحذر من عبادة الله بقلب غليظ غافل عن الله نتيجة سعيه وراء الدنيا.]

يقول الشيخ نقشبند:

«يقول رسول الله ﷺ: (إذا كرهت أن يرى عليك شيء في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت)[١٩٣] **(ما كره الله منك شيئًا فلا تفعله إذا خلوت)**[١٩٤].

من الضروري أن يلتزم الدراويش بهذَين الحديثَين، فهما يشيران إلى أنه يجب على السالك في طريق الله أن يعلم أن الأماكن التي يظن أنها خالية هي أماكن مليئة، وأن ما يفعله أمام أعين الناس يفعله أيضًا في الأماكن المخفية التي يعتقد أنه لا أحد يراه فيها».

---

١٩٣ معمر بن راشد، جامع، جـ١١، ١٤٤/ ٢٠١٥١؛ ابن حجر، المطالب، جـ١١، ٤٤٠/ ٢٥٧٥؛ كنز العمال، جـ٣، ٥٢٧٠؛ رياض الصالحين، جـ١، ٥٩٢، ٦٢٦.

١٩٤ ابن حبان، صحيح، جـ٢، ١٣٠/ ٤٠٣.

[من الضروري أن يسير الإنسان في رحلة تقوده من الإيمان إلى الإحسان إن كان يبتغي حياة عبودية مقبولة. والإحسان هو الوصول إلى شعور أن الله سبحانه يرانا ويراقبنا في كل زمان ومكان، وهذا ما يجعلنا لا نغفل ولو للحظة عن أننا بين يدَي الله تعالى، ويمنحنا إرادة ودراية تجعلاننا نحذر من العيوب التي قد تظهر منا أمام أعين الناس، وكذلك حين نكون في أزمنة وأمكنة نخلو فيها مع أنفسنا.

ويذكِّرنا الحديث الآتي بضرورة وجود هذا الشعور في قلب المؤمن بصورة قطعية:

فقد خرج رسول الله ﷺ يومًا إلى غنم له وفيها أجير له يرعاها، فإذا الأجير يتجرد فيها من ملابسه فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «كم لك عندنا من أجرك؟» فقال: لمَ يا رسول الله؟ ألم أحسن الرعاية والولاية؟ قال:

«**لا، إني أحب أن يكون فينا من يستحي من الله ﷻ إذا خلا**».[١٩٥]

وما أكثر العِبر إذا نظرنا إلى حال راعٍ آخر عاش بشعور الإحسان، وملأ قلبه بمحبة الله وخشيته بعد أن فهِم الحقائق النبوية:

---

١٩٥ انظر: البيهقي، شعب، جـ١٠، ١٩٦/ ٧٣٧٠؛ المروزي، تعظيم قدر الصلاة، جـ٢، ٨٣٦.

قال رسول الله ﷺ:

«إني أحب أن يكون فينا من يستحي من الله عز وجل إذا خلا».

خرج ابن عمر في بعض نواحي المدينة، ومعه أصحاب له، ووضعوا السفرة له، فمر بهم راعي غنم فسلم، فقال ابن عمر: هلمَّ يا راعي، فأصب من هذه السفرة، فقال له: إني صائم، فقال ابن عمر: أتصوم في مثل هذا اليوم الحار الشديد سمومه، وأنت في هذه الحال ترعى هذه الغنم؟، فقال: والله إني أبادر أيامي هذه الخالية، فقال له ابن عمر، وهو يريد أن يختبر ورعه: فهل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه فنعطيك ثمنها ونعطيك من لحمها ما تفطر عليه؟ قال: إنها ليست لي بغنم، إنها غنم سيدي، فقال له ابن عمر: فما يفعل سيدك إذا فقدها؟ فولَّى الراعي عنه، وهو رافع أصبعه إلى السماء، وهو يقول: فأين الله؟ قال: فجعل ابن عمر يردد قول الراعي، يقول: قال الراعي فأين الله؟، قال: فلما قدم المدينة بعث إلى مولاه، فاشترى منه الغنم والراعي، فأعتق الراعي، ووهب منه الغنم.[196]



«الحياء من الإيمان» [البخاري، الإيمان، ٣]

لا بد أن نتفكر هنا أنه إذا كانت مكافأة الشعور بالإحسان والمراقبة وبركته على هذا النحو ونحن في الدنيا، فمن ذا الذي يعلم عظمة المكافأة ومقدارها في الآخرة؟

١٩٦ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٣، ٣٤١.

ويجب علينا من جانب آخر أن ندرك الحديث النبوي:

«**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته...**».[١٩٧]

فنحن رعاة مسؤولون عن أنفسنا أولًا ثم عن عيالنا، والراعي الجيد يحتضن الشاة المريضة الضعيفة التي تتأخر عن القطيع ويضمها إلى البقية، ولا يجعلها فريسة للذئاب.

لكن نجد اليوم- مع الأسف- أن الرعي يكون لقطيع الماعز لا الغنم. فمع اتحاد الرأسمالية والمادية وانتشارهما في كل أنحاء العالم وإثارة الرغبات النفسانية دائمًا، ازدادت الأنانية وانعدم الإيثار، فصارت النفوس إلى حال لا تعرف الشبع.

وتذكرنا النفوس هنا بطبيعة الماعز، إذ ليس من الهيِّن رعايتها وحمايتها من الهلاك فهي لا تنأى بنفسها عن الأخطار، وتتسلق الأشجار، ومعروفة بعنادها، على عكس الغنم بطبيعتها المؤنسة وقيادتها السلسة. من أجل هذا كله يجب علينا أن نسعى ونكون أشد حذرًا في أيامنا هذه بسبب الظروف السيئة التي نعيش فيها.

ولكي لا نقع في مهاوي العذاب، نجد أننا مكلفون بحمل أنفسنا وأولئك الذين تقع مسؤوليتهم علينا إلى المنزل المقصود، سائرين على الصراط المستقيم، وذلك بالحذر من إغواء النفس والشيطان والمصائد

١٩٧ انظر: البخاري، الوصايا، ٩/ ٢٧٥١؛ مسلم، الإمارة، ٢٠/ ١٨٢٩.

المزينة بالمغريات الدنيئة. فالله تعالى يقول في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]

ويفسر الحديث الشريف التالي هذه الآية الكريمة:

«تنهوهنَّ عما نهاكم الله عنه وتأمروهن بما أمركم الله به فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار».[١٩٨]

والخلاصة هي أنه يجب علينا أن نضع في الحسبان أننا دائمًا تحت مراقبة الله ونظره في حركاتنا وسكناتنا.

أي لا ننسى أن القدرة على الاستقامة والحذر من الذنوب في المَواطن البعيدة عن العيون منوطة بإداركنا الكامل لحقيقة «أن الله يرانا كل حين، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد» وهذي الحقيقة هي التي تكوِّن علامة الإيمان الصادق. ويسعى أولياء الله أبدًا كي يكون حال طلابهم الذين يخضعون لتربيتهم المعنوية على هذه الحال.]

---

١٩٨ الألوسي، جـ٢٨، ١٥٦.

العمر بضاعة محدودة تُقدَّم للمرء مرة واحدة ولا يُعرف أيَّان تنتهي. وكل لحظة في هذا العمر مهمة، فقد تكون بذرة يجني منها صاحبها سعادة أو هلاكًا إلى الأبد. وينبغي للمؤمن أن يعلم أن يومه غنيمة له كي يعد زاد الآخرة، ولا يؤجل أي عمل خير إلى الغد المجهول، فقد قيل عن أولئك الذين يهملون أعمال الخير ويؤجلونها: «هلك المسوِّفون».

يقول الشيخ نقشبند:

«قيل إنه: (من استوى يوماه، فهو مغبون؛ ومن كان آخر يوميه شرًا، فهو ملعون؛ ومن لم يكن على الزيادة، فهو في النقصان؛ ومن كان في النقصان، فالموت خير له)[١٩٩].

ثمة إشارة في هذا القول إلى أولئك الذين يسيرون في طريق الحق، إذ يجب ألا يستوي يومان من أيام الطالبين في طلبهم زيادة اليقين، أي يجب أن يكون طلبهم ويقينهم غدًا أكثر من يومهم هذا».

[يجب أن لا نُسيء فهم حقيقة «استواء اليومين» المذمومة في هذه الرواية، إذ لا تعني ضرورة أن ينشغل المرء في يومه بالطاعات والأعمال الصالحات أكثر من يومه السابق، فلو كان الحال كذلك، فسيأتي يوم عليه لا يقدر فيه على أن يزيد من هذه الطاعات والأعمال قيد أنملة.

بل المقصود هو زيادة مجموع الثواب المُسجَّل في صحيفة أعمال المؤمن الذي يوفي بوظائف العبودية بصورة منظمة مستقرة في كل يوم يحياه مقارنة بالأيام الماضية.

ولا تتوقف هذه الزيادة إلا بانقضاء عُمر المؤمن- رأسماله- وانغلاق صحيفة أعماله. غير أن المؤمنين أصحاب الفراسة يسعون

١٩٩ العجلوني، كشف الخفاء، رقم: ٢٤٠٦.

لإبقاء صحائف أعمالهم مفتوحة بعد وفاتهم وذلك بالصدقات الجارية التي يتركونها خلفهم.

ولا تنحصر وظيفة المؤمن ومسؤوليته بالإكثار كل يوم من العبادات والطاعات فحسب، ذلك أنه يجب أن يزداد إيمانه الذي يكوِّن جوهر حياته الدينية، وأن تُفتح نوافذ جديدة في قلبه، ويطَّلع على آفاق أوسع، فيتقوَّى يقينه بالحق تعالى، ويتجذر في كل يوم جديد يطلُع عليه.

وقد كان رسول الله ﷺ يستغفر ربه حين يزداد يقينه بالحق تعالى في كل يوم بسبب حاله الماضية، والحكمة من قول النبي المعصوم ﷺ:



«يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب، في اليوم إليه مائة، مرة»[٢٠٠]

هي ندمه على حاله السابقة وخشيته من عدم القدرة على شكر ربه كما يليق به ﷻ.

ويجب علينا- معاشر المؤمنين- أن نسعى للتقرب من ربنا ﷻ أكثر في كل يوم، ونستغفره كثيرًا ونتوب إليه من ذنوبنا الظاهرة منها والباطنة، وإلا فإننا سنكون من المغبونين.]

٢٠٠ مسلم، الذكر، ٤٢/ ٢٧٠٢.

يقول الشيخ نقشبند:

«إن الفقراء الدراويش هم أهل نقد، أي يعملون بالنقد، ولا يؤجلون عملهم إلى الغد. لذلك قيل إن: (الصوفي ابن الوقت)».

[إن العمر بضاعة محدودة تُقدَّم للمرء مرة واحدة ولا يُعرف أيَّان تنتهي. وكل لحظة في هذا العمر مهمة، فقد تكون بذرة يجني منها صاحبها سعادة أو هلاكًا إلى الأبد، فيجب على المؤمن أن يرى كل لحظة من حياته بهذا الشعور والانتباه، ويسعى لتقييمها أفضل تقييم من أجل حياته الخالدة، بإدراكه أن كل يوم يمر به ليس له أوبة.

وينبغي له أن يعلم أن يومه غنيمة له كي يعد زاد الآخرة، ولا يؤجل أي عمل خير إلى الغد المجهول.

فقد قيل عن أولئك الذين يهملون أعمال الخير ويؤجلونها:

«هلك المسوِّفون».

ويحذرنا رب العالمين في هذا الموضوع فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩-١١]

ويُروى أن إلياس عليه السلام حين رأى ملك الموت خشي وارتعدت فرائصه، فسأله عزرائيل عليه السلام عن السبب:

«يا نبي الله، أتخشى الموت؟»

فأجابه إلياس عليه السلام:

«كلا، بل لِوَدَاعي هذه الحياة الدنيا، لا خشية من الموت».

ثم قال:

«كنت أسعى في الحياة الدنيا لعبادة ربي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقضاء وقتي بالعبادات والأعمال الصالحة، والعيش بالأخلاق الحميدة. فكانت هذه الحال مصدر طمأنينتي، وكان فؤادي مليئًا بالسرور والبهجة المعنوية. واليوم أحزن لأنني حين أموت سأُحرم من هذه اللذة والمتعة، وأبقى رهينًا في قبري إلى يوم القيامة».

لهذا السبب يجب علينا أن نسعى بكل ما أُوتينا من قوة للقيام بالأعمال الصالحة الكثيرة سيما أننا قادرون على ذلك قبل أن تخترمنا المنيَّةُ، فاليوم هو اليوم الذي نستطيع أن نملأ فيه صحيفة أعمالنا، إذ لا يمكننا أن نعمل الصالحات بعد مجيء الأجل لا في القبر ولا في الحشر.

وبناءً على هذه الحقيقة نبَّهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال:

«ما من أحد يموت إلا ندم»

قالوا: وما ندامته يا رسول الله؟

قال ﷺ:

«إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع».[٢٠١]

لذلك كان رسول الله ﷺ يحث أصحابه على معرفة قيمة الوقت والمنافسة في الخير، وكان يسألهم دائمًا:

«...فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟... »[٢٠٢]

والخلاصة أنه من الضروري السعي للعبادة وعمل الخير مرة تلو الأخرى، وطاعة رب العالمين بعزم في أمره التالي:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الإنشراح: ٧-٨]

اللهم احفظنا واحفظ عبادك أجمعين من غفلة اللهو في هذه الحياة الدنيا، وأكرمنا بأداء عباداتنا كأنها عبادتنا الأخيرة، وأكرمنا بإحياء أيامنا بالأعمال الصالحة كأنها أيامنا الأخيرة، مدركين أننا إلى الآخرة مسافرون، وإليك آيبون. وأكرمنا يا رب ببصيرة الاستعداد للآخرة التي منا تقترب، لا الدنيا التي عنا تبتعد.

آمين!

---

٢٠١ الترمذي، الزهد، ٥٩/ ٢٤٠٣.

٢٠٢ مسلم، فضائل الصحابة، ١٢/ ١٠٢٨.

فهرس